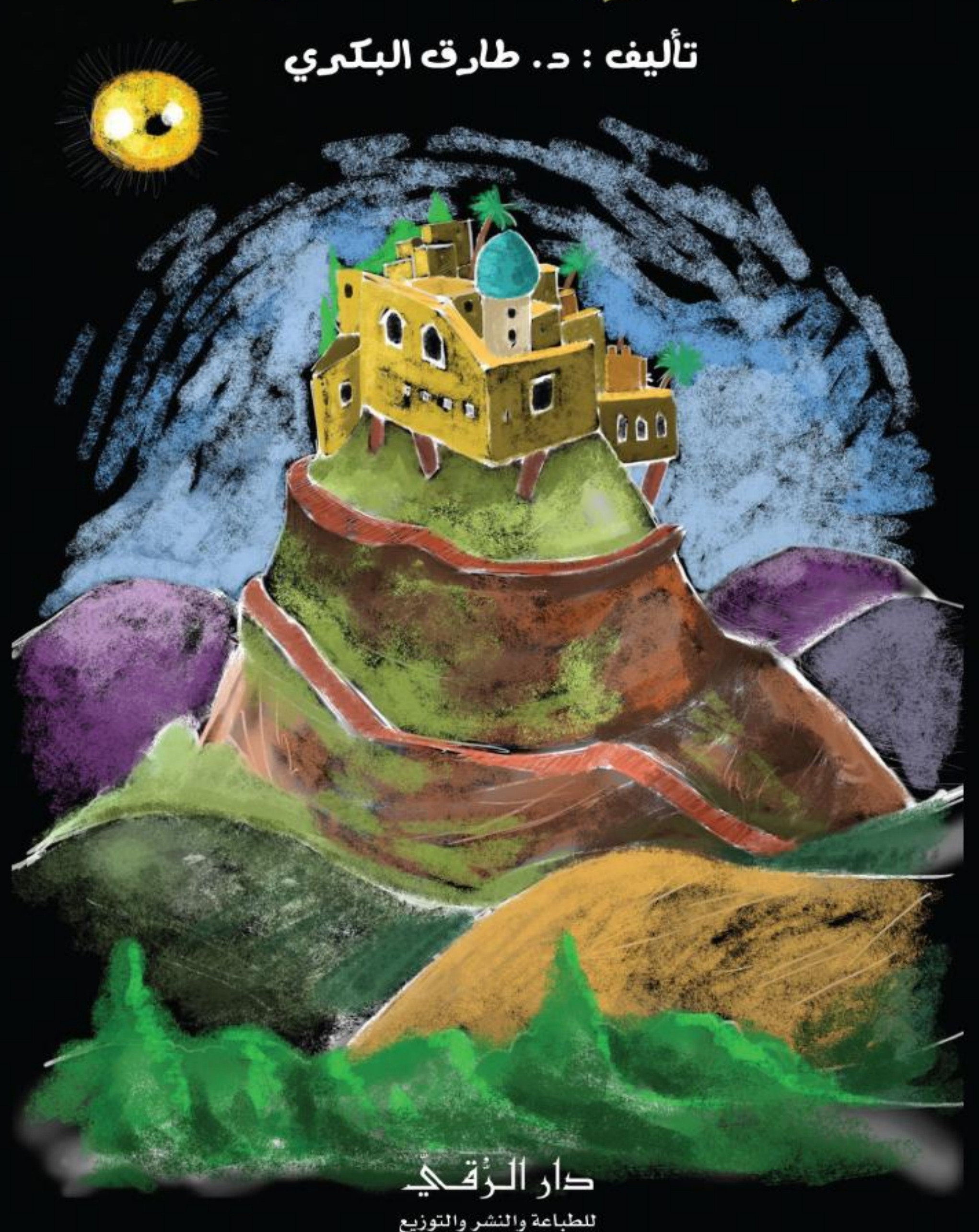
لغز القرية المسجونة

تأليف : د. طارق البكري



دار الرُّقيّ
للطباعة والنشر والتوزيع

لُغْزُ الْقَرْيَةِ الْمَسْجُونَةِ



رواية للناشئة والشباب

لُغْزُ الْقَرْيَةِ الْمَسْجُونَةِ



تأليف : د. طارق البكري

رسوم : فادي سلامة

دار الرُّقيّ

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ISBN : 978-9953-590-74-5



للطباعة والنشر والتوزيع

خليوي: 00961 3 235949
تلفاكس: 00961 7 920158
ص.ب: 4101 بيروت - لبنان

الـمَشْهَدُ الأَوَّلُ



كثـيرةٌ هـيَ القـصَصُ وَالحكايـاتُ التـي لا يُمْكِنُ تصديقُها بسهولةٍ..

وحتـى مَـنْ يَـرَاها حَقيقةً عَلى أرضِ الوَاقعِ يَظنُّ نفسَه يَحلمُ..

وربَّـما رأى الإنـسانُ أحداثًا لا يخبرُ بها، وقد يخبرُ بأحداثٍ من نسجِ الإنسانِ نفسِهِ..

وَمَع ذلك تبقى القصَصُ المحكيةُ راسخةً في ذاكـرةِ الـنَّاسِ، يَـرويها الكـبارُ للصِّغارِ، وتتناقلها الأمَمُ أجيَالًا وَراءَ أجْيالٍ..

وربَّما يكون معظمُ القصصِ أقرب إلى الخيالِ مـنها إلى الواقـعِ، لكـنَّ التجاربَ التي نحياها كلَّ

يومٍ تدهشُنا أحيانًا بوقائعَ كانت بالأمسِ خيالًا..

ولطالما سمعَ النَّاسُ عن أمورٍ غريبةٍ، لا يمكنُ أن تخطرَ على بالِ أحدٍ ببساطةٍ، وعن أحداثٍ عجيبةٍ لا ينسجُها إلَّا فكرٌ واسعٌ ونفسٌ غارقةٌ في الأحلامِ البعيدةِ..

وفي أحيانٍ عديدةٍ نسمعُ عن قصصٍ حدثت في التاريخِ وقد نظنُّ أصحابَها أسطورةً من الأساطيرِ، أو خلقًا من غيرِ البشر من غرابةِ الأحداثِ التي تصادفُهم..

لكن تلك القصصَ رغمَ كل ما تثيرُهُ من استغرابٍ؛ فإنها تظلُّ مرتبطةً بالواقعِ مثيرةً للجدالِ..

وهناك من يؤمنُ بأنَّ وراء الواقعِ شيئًا أبعدَ

مـن الحقـيقة.. وأوسعَ من الخيالِ.. وأنَّ وراءَ كلِّ خيالٍ.. طرفًا من الواقعِ.

هـي أشـياءُ لا تسقطُ مع المطرِ، ولا تنبعُ مع الماءِ، ولا تثمرُ مع الزهرِ، ولا تنبتُ مع العشبِ..

أشياءُ فوقَ العقلِ أوِ التوهُّم..

فوقَ الرُّؤى والأحلام..

ومـع ذلـك يظـلُّ الـناس يـسعون جاهدينَ لاقتناصِ الأمَلِ والحياةِ من وراءِ الواقع..

فما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمل..

ومنَ الحكايات التي عاشت دهورًا وتناقلها الـناس ولم تُمْحَ من صفحات الذكريات.. قصصٌ عـدّةٌ جـرَتْ تفاصـيلُها في مكـانٍ واحـد، لكـنها حـدثت في أزمـنةٍ متفـرقة.. منفـصلةٍ في أسـبابها،

مختلفةٍ في أحداثها، متباعدةٍ عن بعضها في الزمانِ وفي الأشخاص، غير أن هناك أثرًا واحدًا يَجمع بينها، ومع طول الزمان والتاريخ وتعاقب الأمم؛ شهد ذلك الأثرُ الكثيرَ من وقائع تلك الحكايات المليئة بالتشويقِ والمغامراتِ..

في ذلكَ المكانِ الشاهِق..

حيث الأفقُ حدودُه.. والنسائمُ ورودُه.. والزنابقُ جنودُه..

هناك..

حيث يبدو القمر أكبرَ بكثيرٍ وأشدَّ بياضًا ولمعانًا مما يراه سائر البشر!

سكنت قريةٌ صغيرةٌ قمةَ جبلٍ عالٍ، عاشَ فيها الناس في سلام وطمأنينةٍ وأمانٍ، في حضن الطبيعةِ الجميلة، والهواءِ البارد المنعش، داخلَ

سـور مـرتفع، تحـيط بهـم غابـاتٌ تكـسو الـتلالَ والجبالَ والوديان..

وفي ربـوةٍ عالـيةٍ مـن القـرية ينتـصبُ الأثرُ القديمُ، يبدو بقايا لقصر حَجَريٍّ مَتِين..

أهلُ القريةِ يتوارثونَ جيلًا بعد جيلٍ قصصًا كان مسرحُهَا أرجاءَ هذا القصرِ الجميل.

ينـسجونَ حولَهُ خيالاتٍ وقصصًا قريبة من الأحلام.

يـتوارثون قصصًا.. ويخترعون أخرى. فهم مـنذ مـئاتِ السنينَ يعيشون بعيدًا عن أهل القرى وسائر البلاد، لا يخرجونَ من قريتهم ولا يزورُهُمْ مِـنْ خارِجهـا أحـدٌ، لـيس عـندهم أجمل من هذا الأثـر لـيكون سـميراً لهم ورفيقًا على مدى الأيام والسنين..

كـانَ سُـكانُ القـرية بالرغم من كلِّ الوَدَاعَة التـي يـنعمونَ بهـا في محـيط قـريتهم، مِـن طبـيعة سَـاحِرَة خلَّابَةٍ وَهدوءٍ تامٍّ لا يَقطعه سِوَى صَوتِ زقزقةِ الطيورِ أو حفيفِ أوراقِ وأغصانِ الشَّجرِ.. يخشون الخروج من قريتهم التي تحيط بها الجدرانُ العالـيةُ، حمايـةً لهـم مِـنَ الأخطارِ الخارجيَّةِ، حتى إنهـمْ عندما أقاموا هذه الجُدُرَ لم يجعلوا لها أبوابًا.. فَبَدَتِ القريةُ وكأنها سجنٌ كبير..

❋ ❋ ❋

المشهدُ الثاني



أهـلُ القـريةِ، ومـنذ زمـانٍ بعـيد، يَخْـشَوْنَ الحـيواناتِ المفترسةَ والفتَّاكةَ التي تملأ الجبلَ الذي يسكنون قمَّتَهُ. تَرْهَبُهم فكرةُ "الوحوش المرعِبة"، يعـتقدون أنهـا سـتجتاحُهُم لـو أزالـوا الجُدُرَ، أو سـتفتك بهـمْ في حـالِ خـروجِهِمْ خـارجَ أَسْـوَارِ القريةِ.

وتحكـي الجـدَّاتُ للأحفـادِ في الأمْـسِيَاتِ، ومـن حـين إلى آخـر، قصـصًا كثـيرةً محـزنةً، عن اختفاءِ عددٍ من أبناءِ القريةِ الأشدّاءِ، الذين تجرَّأوا وغـادروا القـرية التـي تُـشْبِهُ الحـصنَ، وجَالوا في أمْكـنةٍ قـريبةٍ في جِـوَارِ قـريتهم للاسـتطلاعِ والمغَامَرَةِ..

لم يذهبوا إلى مَكانٍ بعيدٍ، لكنهم لم يعودوا إلى القريةِ منذ أن غادروها..

لم يجرؤْ أحدٌ بعدَ ذلك على الخروجِ للمغامرةِ أو حتى للبحثِ عنهم.

الناسُ في تلك القرية اقتنعوا مع مضِيِّ السنينَ والأجيالِ بأنَّ العالم كلَّهُ هو عالمُهم وَحْدُهُم فقطْ، فليسَ من أمكنةٍ خارج قريتهم يمكنهم أن يقصدُوها، ولا من طعَامٍ غير الطعامِ الذي يعرفونه.

لا شيء غير هذه الأسوار التي بناها أجدادُهم، لإبعاد خطر الحيواناتِ المفترسة.. ومنها الأفاعي والثعابين، التي لا تقوَى على تسلُّقِ جدرانِ السُّورِ المبنيةِ من صخورٍ ملساءَ شديدةِ الصَّلابة..

الخطرُ يَكْمُنَ وراءَ هذه الجدرانِ، والخير كُلُّهُ في ظلِّ حمايتها لهم..

أحــلامُ الانطــلاقِ خلــفَ تلــكَ الجــبالِ المحفـوفةِ بِالمخاطـرِ تقلَّـصَتْ، حتى أضحى مُجَرَّدُ التفكيرِ بذلكَ بدعةً غيرَ واردةٍ على الإطلاق، ولا يُستحـسنُ مجـردُ التفكـير فـيها.. ويعاقـبُ عليها قانونُ القريةِ.

ذاكـرةُ الـتاريخِ مـستمدةٌ مـن آثـارِ القريةِ.. والجبالُ المحيطةُ بها تشهدُ لتاريخِها، وكأنها بِعُلوِّها المتناهي فوق كلِّ الجبال الرَّاسيَةِ من حولها، تسطعُ كـلَّ يـومٍ من أنجم الليلِ حين يغفو القمرُ.. وتبدأ النـسائمُ تـتراقصُ بـين الـتلالِ والوديانِ، تداعبُ أوراقَ الشجرِ..

تغنِّي أُغنياتِها الشهيرَة..

تمـلأُ الـنفسَ في كـلِّ الفصولِ بريقًا متجددًا يومًا إثر يوم.. وليلةً إثرَ ليلة.

تلـكَ هي الطبيعةُ تتحدثُ عن نفسِها، كأنَّها فـرقةٌ موسـيقيّةٌ واحِدَةٌ، متناغمةٌ، متناسقةٌ، تشغلُ نفسها بنفسها، دون تبجُّحٍ أو غُلُوٍّ أو عَمْلَقَة..

لأنَّها هكذا..

في رملها.. وفضائها..

في أعلاها وأسفلها..

ترسـمُ الحـياةَ بكـلِّ صُنُوفِها.. بِكلِّ هدوئِها وجَبَرُوتِها..

القريةُ مُزدحمةٌ بناسِها.. تُحِبُّهمْ ويحبُّونهَا..

لا يعـرفونَ غـيرَها، ولا يخـرجونَ مـنها،

اعتادوا على ذلك وتأْقلَمُوا، فصاروا جزءًا متأصلًا منْ ترابِ الأرض، ونباتها.. وَثِمارها..

النَّاسُ فيها مشغولونَ بكثرةِ أعمالهم، فكلُّ يومٍ جديد، يحاولونَ أن يجعلوا من هذه القرية التي يسكنونَ فيها أجملَ مكانٍ في العالم.. رغم أنهم لا يعرفون من العالم غيرَ ما فِي داخلِ الأسوارِ العاليةِ التي تحيطُ بِهِمْ.

أَهْلُ القريةِ يتحدثونَ عن سُلالاتٍ كثيرةٍ منَ الأفاعِي، مِن كلِّ الأحجَامِ وَالأشكالِ والألوانِ، تتلوَّى في كلِّ مكان ترصد فرائسَها..

يَرسُمونَ بَعْضَها عَلى سورِ القريةِ ليبَيِّنوا خَطَرَها، بأحجامِها الضخمةِ، وأشكالِها الغريبةِ، وألوانِها الفريدة.. بَعضُ المشاهد مَحفُورَةٌ على

الجَانبِ الدَّاخِليِّ مِنَ السُّورِ أو الأشكالِ الموضوعَةِ فَوْقَه.

مجسَّماتٌ تؤكدُ ضرورة ألّا يتجاوزَ أحدٌ هذه الأسوارَ المنيعةَ، لكي لا يصيبَهُ ما أصَابَ غيرَهُ من الـذينَ قامُـوا بتخطِّـي هـذه الحدود، مهما تمتَّعَ من شجاعةٍ في النفسِ وقوةٍ في الجَسَد.

هذه الأفاعِي هي عدوُّهم الأوَّل..

كانـوا يَحـذَرُونَهَا أشـدَّ الحَـذَرِ وَيَخَافونَ مِنْهَا أشدَّ الخَوْفِ، لِذا كَانوا يَحْتاطونَ مِنها ومنْ سُمِّها.

يَـستخرجون الـسُّمَّ مِن بَعضِ الأفاعِي التِي يجدونَهَا ميتةً قربَ أسوارِ قريتهم..

يترقبونَ من فوق الجدار..

ينتظرون أيَّامًا وأسابيع طويلة حتى يسعفهم

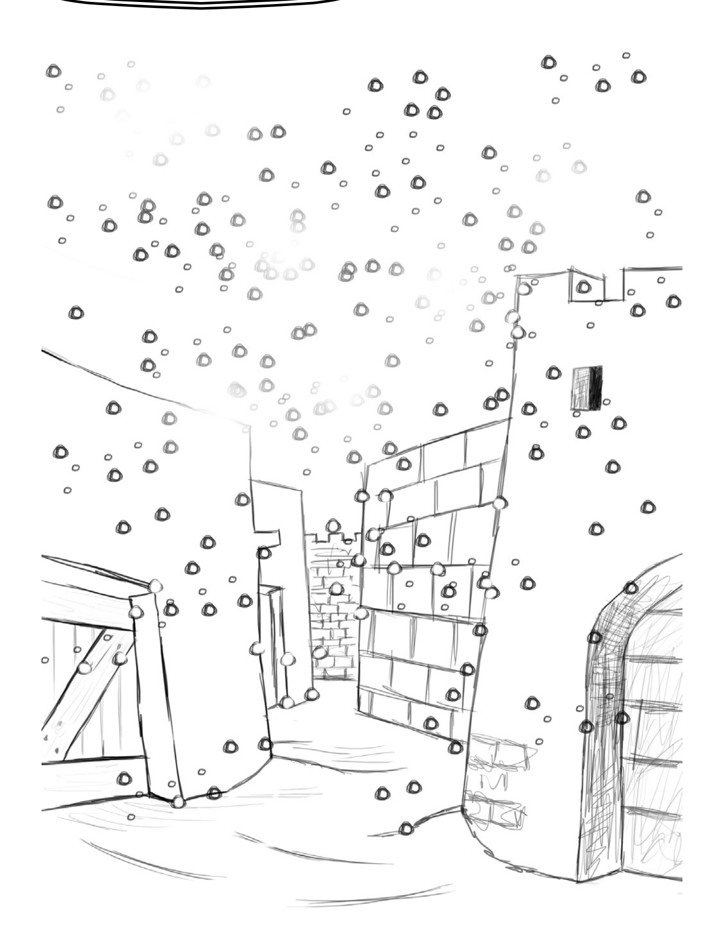
الحـظ بمـوتِ أفعـى في عِراكٍ أو فِي غيرِهِ قريبًا من الجـدار، فَيرسـلون عصًا طويلةً مصنوعةً من عدةِ أغـصانٍ رفـيعةٍ مـستقيمةٍ يربطون أطرافَ بعضِها ببعضٍ بحبالٍ متينةٍ..

يلـتقطون الأفْعَـى الميـتةَ بطـرفِ هذه العصا المحدَّبة، يرفعونها إلى أعلى الجدار ليستخرجوا منها الـسُّمَّ، ثـم يجعلـونَهُ طُعْمًا لأطفالهم الصِّغارِ، حتى تـتعوَّد دمـاؤهم عليه، فإذا تعرَّضوا لِلَدْغَةِ أفْعَى أو ثُعبَانٍ فِي يومٍ من الأيام فلا تَكُونُ اللَّدْغَةُ مُمِيتَةً..

غـيرَ أنَّ هُـناك قِصَـصًا كانـتِ الجَدَّاتُ تَرويها عـن كثـيرٍ مِمَّنْ تعرَّضُوا لِلَّدْغِ، وَلم يَصْمدوا أمام سُمِّ الأفاعِـي الفتـاكِ، ومـع ذلك فليسَ لديهم أيُّ خيارٍ آخر.

* * *

المشهدُ الثالثُ



لم تكـنِ المَركباتُ القديمةُ التي تجُرُّها الخيولُ تَـصِلُ إلى قـريَتِهم لوجُودِهَا فوق قمة جبلٍ شديدِ الانحدارِ، تحيط بها غابات تمتدُّ من سفحِ الجبلِ إلى جِوارِ سورِها العالي.

كـما أنَّـهُ لم يكـنْ عـندَ أهل القرية خيولٌ ولا يعـرفونَهَا، بـل كانـوا يسمعون قِصصًا عن مخلوق خـرافيٍّ سريـعِ العـدوِ قَـوِيٍّ البنيةِ يمكنه أنْ يحملَ الناسَ ويطيرَ بهم.

يـتحدثونَ عـن طائـرٍ عجـيبٍ حمـل جدَّهم الأوَّلَ إلى هذا المكانِ بعدَ أن غضبَ عليه مَلكٌ من ملوكِ الزمان، وأبعدَه عن بلادِه إلى قمةِ هذا الجبلِ

عقابًا لَـهُ.. حيث استقرَّ وعاشَ زمنًا طويلًا، ومضت الأزمانُ حتى نَسِيَ كثيرٌ من الناسِ المعاناة الكبيرةَ التي عاشَها جَدُّهُمْ بسببِ ظلمِ الملكِ الشِّرِّيرِ وحكايةِ الطائِر.. وصارت الأحداث مجرَّد قصةٍ من القِصَص.

وبعد أنْ دارَ الزَّمانُ دَورتَهُ، أقبلَ بَعضُ النَّاسِ إلى هذه القمَّةِ وَسكنوهَا، ثم توارثوا قصصًا أُخْرَى عنِ القصرِ الذي بقيت بعض آثارِهِ صامدَةً رغم السنينَ الطويلة..

عاشَ كثيرٌ من الناس في جوار القصرِ، وكان أكثر طعامهم نباتًا، من خضرواتٍ يزرعونَها، أو من ثمارٍ يَجْنُونَهَا من الأشجار التي كانت تملأ المكان..

أمَّـا شرابُهُـمْ فهـو إمَّا منْ ماءِ ثمارِ جَوْزِ الهندِ الطـيِّبِ الطَّعْـمِ، وإمَّـا منْ ماءِ نبعٍ باردٍ في الصيف مثلجٍ في الشتاء..

وَألَــذُّ مَــا كانــوا يأكلــونَ؛ الطــيورُ التــي يـصطادونَها عـندما تمرُّ الأسْرَابُ المهاجرَةُ في سماءِ قَـرْيَتِهِمْ، وربَّـما احتفظوا بما اصطادوه حيًّا ليأكلوا بيـضَهُ أو لِـيُرَبُّوهُ إذا كان صغيرًا حتى يكبرَ وينموَ شَحْمُهُ وَيزدادَ لَحْمُه؛ فيأكلونه بعد شَيِّهِ بنارٍ خفيفة يوقدونها بحجرٍ يكثر في أرضِهم، يصدرُ شرارات نارٍ قويةٍ عندما يضربُ بحجرٍ مثلِهِ.

أمَّـا مَا لَدَيْهِم من حيواناتٍ صَغيرةٍ منْ ماعِزٍ وخـرافٍ فقد كان عددها قليلًا، لا يأكلونَ لَحْمَها إلّا عـندما لا يجِـدونَ طعامًـا غيرَهُ يأكلونَهُ، خشيةَ

انقراضِـها، لأنهم كانوا يشربونَ حليبَها ويصنعونَ منه بعضَ الأطعمةِ اللذيذةِ..

أمَّا الدجاجُ فقد كان وافرَ العددِ..

يأكلـونَ لَحْمَـهُ وبيضَهُ، ويصْنعونَ من ريشِهِ أشكالًا من الثياب وأدواتِ الزينة.

وفي مواسِمِ الشتاء..

عـندَما تكـسو الـثلوجُ النَّاصـعَةُ البـياضِ المـرتفعاتِ والسهولَ والمنحدراتِ والوديانَ بثوبِهَا الأَبْـيَضِ، تـبدو الجـبالُ مـثل عروسٍ ليلةَ زِفافِهِا، فتمتلـئُ الأزقـةُ والـشوارعُ بالبـياضِ والـصَّقيعِ، ويـصبحُ التـنقلُ بـينَ بـيوتِ القـريةِ المتقاربةِ أمرًا عسيرًا..

عـندها يمكـثُ الناسُ أيامًا ولياليَ طويلةً لا

يخرجونَ من بيوتِهم إلَّا عند الحاجةِ القُصْوَى، ولا يَذهبون إلى ساحةِ القريةِ الكبيرةِ مثل عادتهم مساء كلِّ ليلةٍ في غير مواسم الصقيعِ، فتهدأ القريةُ كلها، وتسْكنُ كلُّ تفاصيلها، ويخيِّمُ عليها الصَّمتُ والظلامُ..

لا صوتَ فيها غير صوتِ الريح.. ولا حركةَ فيها غير حركةِ الثلوج المتساقطةِ من السماء أو المتهاويَةِ من فوقِ التلالِ والمرتفعات.

* * *

المشهدُ الرابعُ



عـلى هذه القمةِ الجبليةِ الجميلةِ البديعةِ، وفي تلـكَ القـريَةِ الـوَادِعَةِ الهَانـئةِ، نـشأ فتًـى يَافعٌ بينَ أقـرانِهِ الفِتيانِ، فخورًا بطلعتِهِ البهيّةِ وبنيتهِ القويَّة، فـلا يَسبقهُ منْ شَباب القرية أحدٌ في القوَّةِ والمهارَةِ وحسنِ الأدَب..

ومـنْ فرطِ حُبِّهِ للقريةِ ولشوارعِها وأزِقَّتها؛ نـادرًا مـا يفقـدُهُ أحـدٌ لـيومٍ كامـلٍ أو يومَيْنِ على الأكثر..

فالجميعُ يلتقونَ به من حينٍ لآخر..

وأهل القرية جميعًا يحبونَهُ لأَدبِهِ وحِرْصِهِ على مساعَدةِ الآخَرِينَ..

يلبِّـي نـداءَ المـرأةِ العجوزِ، فيقضي حاجاتِها ويحـضرُ لهـا طَلَـبَها، يقطـف ثـمارَ أشجارِ بستانِهَا ويكنسُ باحَةَ بَيْتِها..

يـبادرُ إلى الشَّيخِ الكبيرِ، وهو يسيرُ في طريقه حـاملًا بعـض الأغصان اليابسة ليشعلها في موقدِ دارِه، أو ليتدفأ بها في موسمِ الشتاءِ القارس..

يُـزِيلُ الأعـشابَ الضَّارَّةَ من طرقاتِ الناسِ ودروبهم..

يَحمـلُ مـصباحَ الـزيتِ في اللـيالي المظلمـةِ، عـندما يغـيبُ القمـرُ، ليـسلكَ العابـرونَ طرقهم بـسلام نحـو بيوتهم، وَهُمْ عائِدُونَ من عَمَلِهِمْ أو مِنْ زِيَاراتِهِم..

كانَ يَستشعرُ فرَحَ المُعَاوَنَةِ، والرِّضَى بإدخالِ

السُّرورِ والمسرَّاتِ إلى قلوبِ الآخرينَ.

فـَمَا أجملَ أن يكونَ الإنسانُ "خادمًا"، يعملُ من أجلِ راحَةِ من يعرفُ ومن لا يَعْرِفُ..

كـمْ هِـي سـخيَّة الـيدُ التـي تمـسحُ دمعـةَ المحزونينَ.. والفمُ الذي يواسي جراحَ المكلُومِين.

ومَـا أنـبلَ تلـكَ الأنامِلَ التِي تنزعُ الأشواكَ حَتَّـى تَدْمَـى، فَـلا تُدْمِي أقدامَ العابرينَ.. وتزرعُ الـوردَ لتـزيِّنَ دروبَ المحبِّـينَ، ومـا منْ جمالٍ مثل قولهم: "سَيِّدُ القومِ خَادِمهُمْ".

وَكانَ هذا الفتى اليافعُ يسمعُ وهو فِي حِرَاكِهِ الـدائمِ الـدائِبِ في عَوْنِ الناسِ؛ بَعْضَ كبارِ السِّنِّ وَهُـمْ يروون قصةً يقولونَ إنَّها سَبَبُ وجودِهِمْ في هـذا المكـانِ على قِمَّةِ هَذا الجبلِ.. قصَّة رجلٍ كانَ

يعـيشُ عـلى رَبْـوَةٍ خَضْرَاءَ عاليةٍ، حيث تقع بقايا القصر..

ذلكَ القصر الذي يتوهّج تَحْتَ الشَّمْس..

يكادُ المتأمِّلُ يُسْحَرُ بمَرْأى سَماءٍ تَحْضِنهُ بِحُنُوٍّ وسَـكِينَةٍ.. وفِي اللَّيَالي يلمس نُجُومًا مُرْتَجِفَةً، تبدو من شرفاته دانيةً مثلَ ثِمارِ شَجَر..

يكـادُ عابـرٌ في عَتمَةِ دُروبٍ طويلةٍ لا يَحْتَاجُ إِلى ضَوْءِ قِنْدِيلٍ أو شُعَاع سِرَاجٍ..

قـصصٌ كثـيرةٌ تـوارثَها الـنَّاسُ حـولَ هَـذا القـصرِ.. ومـنها قـصَّةُ حـاكمٍ ظـالمٍ وابنـتِهِ التـي رفضتِ الانصياعَ والطاعةَ والخضوعَ لظلمِ أبيها.

وهُنَاكَ حيثُ عاشتْ في قصرِها الشامِخ..

كـانَ يـنامُ القمـرُ وتغفـو العـصَافير بأمـانٍ وسـلام دونَ خَـوْفٍ مِنْ صَيَّادٍ غادرٍ بَغْتَةً أو طامعٍ جائرٍ..

كانـت الأرانِـبُ تسيرُ بخُشوعٍ آمنٍ في جوارِ الثعالبِ، وتَرْقُدُ الحِمْلانُ في سلامٍ قُرْبَ الضباعِ.

ومن هُناكَ..

مـن أعـلى سَـنامِ الـرَّبْوةِ كـان يطـل القـصرُ الحَجَريُّ القديمُ..

بـسقفه القـرْمِيد.. وجُدْرانهِ الصَّخْرِ وجبينهِ العالي وهامَته المُرْتَفِعَة..

وبمَـنارَته التـي تَخْـرُقُ الفـضاءَ، وتَرْمِـي بـشِبَاكِها حـيثُ تسكبُ أنوارًا بهيبةٍ وشموخٍ، بلا اسْتِئْذانٍ..

ومن هناكَ أيضًا..

كـانَ القـصْرُ يَنـشرُ بَهاءَه الباهرَ على الحَدائق والـتِّلال وَالـوِدْيانِ والمُروجِ.. مُعْلِنًا نَفْسَهُ حارِسًا أمينًا للوحةٍ فنيةٍ طبيعيَّةٍ سَاحِرَةٍ مُبْدِعَةٍ صَافِيَةٍ.

وفي الأيام الشتوية..

عـندما تَـتَكَدَّرُ الـسماء ويتغـيَّرُ لونُها؛ تغيبُ مـنارات القـصر الشامخةُ لِلعُلا بينَ غيومٍ مُتَكَدِّسَةٍ كَقُطْـنٍ حَالِـكٍ شَـدِيدِ السَّوادِ، تتَمَدَّدُ مِنْ فوْقَ إلى تَحْت، تَتَمَدَّدُ منْ أسفل إلى أعلى.. تبدو تِلالًا قُطْنِيَّة تَنْحَدرُ بقُوَّةٍ.

* * *

المشهدُ الخامس



وكان سَيِّدُ القصْرِ الأَوَّلُ رجلًا صالحًا، طيبَ القلـب، عـاليَ الهمَّـة، قـويَّ الإرادةِ، لا يَسْتَـسْلِمُ لجِـبَرَوتِ طبـيعةٍ.. كـما لم يستـسلم للظـروف القاسية..

كـان يَأْبَـى أَسْـتَارَ الـشتاءِ أنْ تَحجُـبَ أنوارًا مُرْسَـلَة جـذبًا لتائهـينَ ضـائعينَ فِي عـتمةِ لـيلٍ.. يطلبُهُمْ حثيثًا كما يطلبُ سراجُ نور فراشاتٍ هائمةً ترنو لدفءٍ وقبَسٍ مِن أمَلٍ.

عِــنْدَها يَـسْتَنْفِرُ خَـدَمُ القــصْرِ وَعَسَــسُهُ، يَـنْطَلِقُونَ بأمْـرِهِ، يَـزْرَعُونَ القـنَادِيل عَلى أطْرَافِ الجـبل.. فِي زَوَايَـا الطُّـرُقات وَالـدُّروب الوعرة،

إسْـعافًا لِعَابـري ليْلٍ كَالِحٍ مُتَجَهِّمٍ عَابِسٍ، وهديًا لتائهـينَ تَحْـتَ لَطْـمِ عَوَاصِـف.. ودَعْوَة لِمُشَرَّدِينَ بَاحِثِينَ عَنْ مَأْوًى وملجأٍ دافئٍ، يَلُوذُونَ بِهِ، يَقِيْهِمْ سِياطَ بَرْدٍ وَبَلَلَ شِتاءٍ وَقرْصَةَ جُوْعٍ..

وَمَنْ يَعْرفُ الجوعَ؛ يدركُ أنَّ قسوتهُ فِي البَرْدِ أشدُّ وأمرُّ..

ذلـك الـرجل هـو نفسُهُ الذي أتى به الطائرُ الخرافيُّ من زمانٍ بعيدٍ..

حملـه الطائر مع زوجته إلى قمَّةِ الجبلِ النائِي منفيًّا من بلادٍ بعيدة..

حملـه بأمـر مَلـكٍ من ملوكِ الزمانِ، وأبعده عن أهله وأصدقائه وأحبّائه..

الملـكُ الـشريرُ أرادَ الاسْـتيلاءَ عـلى قـصرهِ الجمـيلِ الـذي يمـتاز بحجارتـه الـنادرةِ، ومكانهِ الفـريدِ، عـلى ربـوة حافلـةٍ بأنـواعٍ مـن الـورودِ والـرياحينِ؛ ولا يُمكـنُ العـثورُ على ما يتصف به من جَمالٍ في أنحاء مملكته..

كـانَ الحقـدُ والحـسدُ يتحكمان بقلبِ الملكِ الـشرِّير؛ كـيف يكـون لرجل في مملكته مهما علتْ مكانـتهُ مثل هذا القصر الذي يتميز بهاءً عن قصر الملك؟

وزاد مـنْ نقمـتهِ علـيهِ أنَّ الرجلَ كان محبوبًا عـند الـناس، مقـرَّبًا مـنهم، يساعدُ فقيرَهُم، يلبِّي حاجاتِهم، ويعينُ مرضاهُمْ، ويواسِي آلامَهُمْ..

إنَّ الطيـبة الإنـسانية التـي تولد مع الإنسان يفـتقدها في كلِّ زمانٍ وفي كل أرضٍ بعضُ البشرِ،

فيختـلَّ عـندهُم ميـزانُ العدالَة، وتتسامى عندهم الـشرورُ والآثـامُ، وتـنخفضُ في دستورهِم مكانةُ الإنسانيةِ بكل ما تحمله من سِمَاتٍ.. ربما يشاركهم في كثيرٍ منها سائرُ مخلوقاتِ الأرضِ..

لمْ يـتوقف الملـكُ الـشرِّيرُ عندَ مجرَّدِ التهديدِ والوَعِـيدِ.. ولم يتخلَّ عن هدفِهِ المنشودِ.. بلِ ازدادَ وَلَعُـهُ بِمطلـبِهِ واشـتدَّ تَعَنُّـتُهُ مـع إصرارِ الـرجلِ الطـيِّبِ عـلى التمـسكِ بقـصرِهِ، بالـرغْمِ مِـن أنَّ عـروضَ الملـكِ فاقَـتِ الـثمنَ الحقيقـيَّ للقـصرِ والأرضِ التي تحيطُ به.

عـرضَ الملـكُ الـشِّرِّيرُ عـلى الرجل الطيِّبِ شراءَ القـصرِ، وأغراهُ بكثيرٍ منَ الياقوتِ والذهبِ والمرجانِ؛ فَرَفض..

خـيَّرَهُ بـينَ الـوجاهَةِ والغِنَـى والرِّياسَةِ، أو كلها معًا؛ فرفض..

لم يقـبل كـل مـا عرضه عليه بالترغيبِ تارةً وبالترهيب تارةً أخرى.

لم يكن قصرُه ولم تكنْ أرضُهُ مجالًا للمقايَضَةِ مقابلَ كلِّ ثرواتِ الأرضِ..

تلـك المـساحةُ الوسـيعةُ الممـتدةُ لعـشراتِ الأمتارِ على كتف الوادي، يخترقها نهر يفيضُ بالماءِ صـيفًا وشـتاءً.. ورثَهـا عـن أجـداده وبنى عليها قـصرَهَ الـشامِخ.. وفـاءً مـنه لمـن سبقه من أجيال اعتـنَوْا بالأرض وَعَمَّرُوها ورعَوْها، فما قصروا فِي رعايـتها وصـيانتِها وحمايَـتِها مـن كلِّ اعتداء، ولم يهملوها ولم يتخلَّوا عنها..

تلك المساحة على وسعها لم تكن هي الهدف بحدِّ ذاته بالنسبة للحاكم الظالم.. لأن الجشعَ هَمُّه، والسيطرةَ غايته.. أما الرجل فكانت القناعةُ حياتَهُ والكبرياءُ سلطانَهُ.. لا الوجاهةُ ولا السلطةُ ولا المالُ..

وظلَّ الرجل يعانِي ظلمَ الحاكمِ وتضييقَهُ عليهِ وعلى عمّالهِ زمنًا طويلًا أملًا منه بأَنْ يتوقف الحاكم عن غيِّه، ويقتنع بأنه لن يترك أرضه ولن يبيعها لَهُ بأيِّ سعرٍ لأنَّها بالنسبة إليهِ لا قيمةَ ماليةً لها.. إلى أن قرر الحاكم تنفيذ مأربه..

وكانت ليلةٌ من ليالي الشتاءِ الباردة.. شديدةُ الظلام.. عاصفةُ الريح..

اقتحمَ الجنودُ قصرَ الرجلِ وقَبَضُوا عليه وكبَّلوه بالحديد.. قادوه إلى قاضي الملك مكبلَ

الـيدينِ والقدمـينِ.. أبلغـه القاضي أنهُ حكم عليه بالنفي لأنه رفض تحقيقَ أمرِ الملكِ..

قـال لـهُ إنَّـهُ يعطيهِ فرصةً أخيرةً للتنازُلِ عن قصرِهِ..

لكنَّ الرجلَ رفضَ ذلكَ بكبرياء..

وقالَ للقاضي:

"إذا أراد الملـكُ قـصرِي فلـيأخُذْهُ غـصبًا عني.. لكنه لن يحصل على موافقتي مهما فعل بي".

وتنفـيذًا لحكـمِ القاضي الجائرِ في قرارٍ اتخذه دون محاكمةٍ ولا قضيةٍ ولا تهمةٍ..

وبـناءً عـلى أوامِـرِ الملـكِ الظـالمِ، قـامَ طائرٌ خـرافيٌّ عجيبٌ ضخمٌ، يسكنُ عشًّا هائلَ الحجمِ،

على شجرةٍ كثيفةِ الأغصانِ فِي حديقةِ قصرِ الملكِ، قامَ بحملِ الرجلِ على ظهرِهِ ومعهُ زَوْجَتُهُ وأولادُهُ الصغارُ، وطارَ بِهِمْ إلى مكانٍ ناءٍ..

أمـرَ الملـكُ بعـضَ عمّالـهِ مـنَ الجِنِّ أنْ يبنوا للـرجلِ بيـتًا بسيطًا وصغيرًا على قمةِ الجبلِ العالي حيث نقله الطائر العجيب..

وقـال القـاضي للـرجلِ قـبل أن يختفـيَ من المكانِ:

"علـيكَ أنْ تـسكنَ في بيـتِكَ الجديـدِ حتـى تمـوتَ.. لأنهُ مكانٌ بعيدٌ ولن تستطيعَ الخروج منه والعودةَ إليهِ من جديدٍ"..

وأخبرَهُ أيضًا:

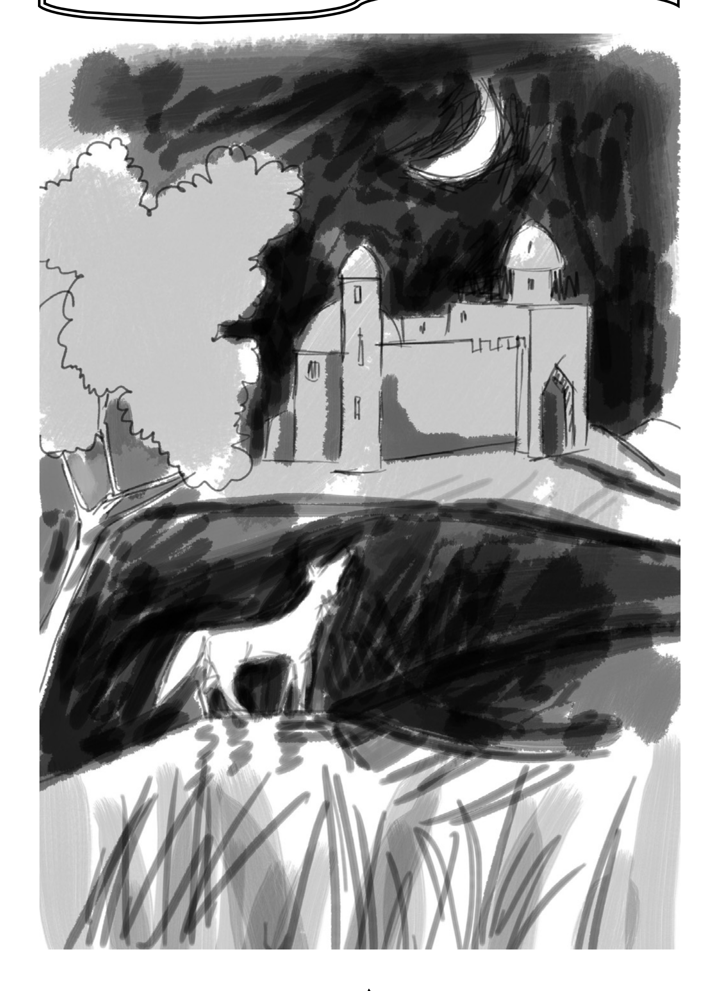
"بيـتُك الجديـدُ لـن يكـون أبدًا مثلَ قَصْرِكَ

الحـالي، بل سيكون صغيرًا، وعليك أن تقتنعَ بهذا الحكـمِ وأَلَّا تُفَكِّـرَ بالعـودةِ، وإلّا سـوفَ يُقْـضَى عليكَ".

فَـأذْعَنَ الـرَّجُلُ الطـيِّبُ لهذا الظُّلْمِ، وفضَّلَ النفـيَ الجائِـرَ على العيشِ بجوارِ حاكِمٍ ظالمٍ.. كما أنه لم يكن يملك خيارًا آخَر..

❋ ❋ ❋

المشهدُ السادسُ



بعـدَ أنْ وصـلَ الطائـرُ الخـرافِيُّ العجـيبُ، وبـسرعةٍ كلمحِ البصرِ إلى مكانٍ لا يعرفُهُ أحدٌ منَ البَـشَرِ.. شرعَ عـمال الملـكِ الـشرِّيرِ ببـناءِ البـيت الجديد..

وخـلال أيامٍ قليلةٍ من العملِ المتواصِلِ ليلًا ونهـارًا أصـبح البـيت جاهـزًا.. لكنه في الحقيقة لم يكـن بيـتًا عاديًّـا.. وعندما شاهده الرجل أصيب بالدهـشةِ والسعادةِ.. وكانت المفاجأة أنَّ العمال لم يلتـزموا بأوامـرِ ملكِهم الشِّرير، وقاموا ببناءِ قصرٍ جمـيلٍ رائـعٍ، أجمـل مـن قصرِهِ الذي استولى عليه الملـك.. غُرَفُهُ وقاعاته كثيرة وواسعة، وأثاثُهُ يشبِهُ أثاثَ قصرِهِ القديمِ..

كانـوا يعـرفون صـاحب القصر ويحترمُونَهُ، ويعـرفون أنَّ الملـك "ظَلَمَـهُ" عـندما استولى على قصرِهِ بالقوَّةِ ونفاهُ إلى هذا المكان النائي..

وقـفَ الـرجلُ عـلى شرفـةٍ مـن شرفـاتِ القصرِ.. تأمَّل البساتينَ المُمْتَدَّةَ..

كانتِ البساتينُ تَنتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي البَصَرُ..

المنظـرُ كان رائعًا جميلًا يملأُ القلبَ والنفسَ بهجةً وَحُبُورًا.. على عكس ما كان يأمل الملك..

تأمَّـلَ الواقـعَ بِغُـصَّةٍ.. كانَ يأملُ أنْ تتملَّكَهُ قُـوَّةٌ مَـا تتمتع بقوةٍ جاذبةٍ. تجرُّهُ إلى حيث يجبُ أنْ يكـونَ.. لَعَـلَّ ريحًا عاتيةً تأتِي من بعيد، تنزعه من مكانـه، وتحملـه إلى حيث كان.. تلقيه في الأرض التي يحبُّ.

لكـــنْ.. هـــيهات هـــيهات أنْ تـــأتيَ ريـــح يتمـنَّاها.. وأن يتغـيرَ واقـعٌ لا يـريدُ هُوَ بِنَفْسِهِ أنْ يُغَيِّرَهُ وَيُبَدِّلَهُ.

فهـل تتغـيرُ الأحوالُ من غيرِ إرادة ويتحققُ انتصارٌ من غيرِ قتال؟

وكـمْ مـنْ متأمِّلٍ ضاعتْ منهُ آمالٌ وتناهتْ عَـنْهُ أَحْـلامٌ.. يظنُّ مخطئًا أنَّ الآمالَ ستأتيهِ عَفْوًا، وأنَّ الأحلامَ ستتحقَّقُ دون أن يجهد فكراً أو يبذلَ عَمَلًا.

هـو يعلـمُ أنَّهُ: ما نالَ غايتَهُ من عوَّل الآمالَ عـلى ريـحٍ صرصرٍ عاتـيةٍ.. أو مـن طلـب الماء في صحراء قاحلة.. أو من صخرَةٍ صَمَّاءَ جَامِدَةٍ.

إنَّ الرِّيحَ التي تمرُّ تمضِي في طريقها بكبرياء..

لا تـسأل عـن محـبٍّ أو مـبغضٍ، هي تحمل العبير وضـدَّه.. وتـسيرُ بلا نهاية.. بلا حدودٍ أو هدفٍ، تتنقلُ من بلادٍ إلى بلادٍ دون كللٍ أو مللٍ.. تمرُّ على أسـطح بـيوت الأغنـياءِ كما تمرُّ على أسطح بيوت الفقراء..

سِيَّانِ عندَها ما بينَ زهرِ الربيعِ أو شَوْكِهِ..

هـيَ تمـضِي، وتـدور حـول الكُرَةِ الأرضيَّةِ، تقطـعُ المـسافاتِ دونَ انقطاعٍ.. ولا تعبأُ بكلِّ من تصادفُهُ فِي طريقِها..

وإلى سـفحِ الجـبلِ وصـلَ بعضُ أهلِ الباديَةِ يحملونَ خيامَهُمُ المُتَنَقِّلَةَ..

شـاهدوا القـصرَ المـستجدَّ على رأس القمَّةِ، فـسارعوا إلى صـعودِ المرتفعِ رغم صعوبةِ التسلُّقِ ووعورَةِ المَنْحَدَر..

حَمَلُـوا معهم بعض الماشيةِ والحيواناتِ الداجنة.

وعـندما بلغـوا المكـان وجـدوا أرضًا طيبةً، وماءً عذبًا.

راحـوا يرجـونَ الرجلَ الطيبَ أن يقبلَ بأن يعملـوا في الأرضِ مقابـلَ أن يسمح لهم بالسكن الـدائم في هـذا المكانِ الجميلِ، ظنًّا منهمْ أنَّ القمةَ والبساتينَ التي تحيط بالقصر هي ملكه..

كانـت الأرض تلـك الأيـام حرةً منطلقةً لا يملكها أَحَدٌ.. وهو أول إنسان يطأ القمةَ ويسكن فيها..

بـدأ العُـمَّال الجُـدُدُ يَعْمَلُونَ ليلًا ونهارًا دُونَ مَلَلٍ..

يَــزْرَعُونَ أنــواعاً مِــنْ أشْــهَى فاكهــةٍ وخُضْرَوَاتٍ..

أَرْضُ الـرَّبْوَةِ خَـصْبَة، لَا تَبْخَلُ بشَيْءٍ مِمَّا فِي أَحْشَائِها، ولَا تَحْتَاجُ سَمادًا وَلَا جُهْدًا كَبيرًا.

المَـاءُ يَـسِيلُ مـن حـولها مِـنْ كـُـلِّ صَـوْبٍ. العشبُ الضارُّ لَا يَنْبَتُ بِهَا..

ترَابُها نَظيفٌ.. فاكِهتُهَا لذيذةٌ.. كُلُّ ما عَلَيْهَا يُعْجِـزُ وَاصِـفًا عَـنْ وَصْفِهِ، وَسَاحِرًا عَنْ سِحْرِهِ، وَفَنَّانًا عَنْ فَنِّهِ، وَشَاعرًا عَنْ شِعرِه..

فِي الـربوةِ العالية على قمة الجبل حَرَكَة دَائِبَة جَـادّةٌ مُـنْهَمِكَة، أعْـمَالٌ مُـسْتَمرَّةٌ لا تَتوقَّف، مِثلُ خَلِيَّةِ نَحْلٍ أو ثُكْنَةِ جَيْشٍ.

المالـكُ الجديـدُ هَـادئٌ رَزيـنٌ، حَلـيمٌ وَقورٌ رَصينٌ.. لَطِيفٌ فِي تَعَامُلِهِ، سَعِيدٌ مُبْتَسمٌ بَشُوشٌ.. العُـمَّال يُحبُّونَهُ.. الأَزْهَار والأشْجَارُ والفرَاشاتُ.. حَتَّـى حَيَوَانَاتُ الزَّرَائِبِ عِنْدَمَا تَشُمُّ رَائِحَتَهُ تُطْلِقُ

أصْـوَاتًا تَـدُلُّ عَـلى الرِّضَى والسرور.. وكُلُّ ما فِي القـصْرِ كـان يُحِـبُّ الـسيِّدَ الكَـرِيمَ. هُـوَ لَا يُفَرِّقُ بَيْـنَهُمْ.. يُـسَاويهم بنَفْـسِهِ، فِي كـلِّ مشْربٍ ومَأْكَلٍ وَمَلْبَسٍ، طَعَامُهمْ طعامُهُ، ثِيَابُهُمْ ثِيَابُهُ، لو شَاهَدْتَهُ بـرفقتِهِمْ مـا فـرَّقْتَ بَيْنَهُم وبَيْنَهُ.. لَا يَبْخَلُ عَليهمْ بعطاءٍ.. لَا يُهِينُهمْ.. لَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطيقُون..

وعَـلى هَـذِهِ الحـالِ عَـاشَ العـمال واستقرُّوا بعدما كانوا من البدوِ الرُّحَّلِ ينتقلونَ من مكان إلى مكـان بحـثًا عـن الماء والطعام.. وانقضتِ الأيام بِـوئامٍ وَسَـلام دُونَ أنْ تُكَـدِّرَ صَفْوَ حَيَاتِهمْ شَائِبَةٌ ولا عِلَّة.

ومَـرَّت الـسِّنونَ وهم هَانِئون سُعداء، لَيْسَ لديهم مَا يُقْلِقُ مِنْ مُزْعِجَاتٍ..

* * *

المشهدُ السابعُ



تَوَالتِ الليالي آمنةً مُسْتقِرَّةً.. وما أجمل الحياة عندما يسودها الأمن والحب والعطاء.. بعيدًا عن الشرِّ والظلم والإساءَة للآخرين.

تلـك أشـياءُ كانـت تمـلأ أرجـاء القـصر وبساتينه..

كَـبُرَ سَـيِّدُ القصْرِ.. وبَلَغَ أولادُهُ سِنَّ الفُتُوَّةِ وَالشبَاب.. وسَارَ الأبناءُ عَلى مِنْوَالِ أبيهمْ..

الخـيرُ عـندما يُزرعُ بيدٍ طيبةٍ وفي أرضٍ طيبةٍ يُنبتُ طيبًا وخيرًا وفيرًا.

عَمِلـُـوا بأيـديهمْ، لَمْ يُمَيِّـزُوا أنْفُــسَهُمْ عَــنْ غيْرِهِمْ مِنْ عُمَّال القَصْر وَزَارِعِي حَدَائِقِهِ.. لَمْ يَكُنْ زَائِـرٌ يُفـرِّقُ بَيْـنَهُمْ وَبَـيْنَ أصْغَرِ عَاملٍ فِي القصْرِ،

وعَاشَ الجَميعُ أيَّامَهُمْ بهُدُوءٍ يَزْرَعُونَ ويَحْصُدُونَ..

كَانَتْ أعْدَادُ العمال تَزْدَادُ عامًا بعد عام.. إمَّا بأوْلادٍ جُدُدٍ أو بعُمَّالٍ جُدُدٍ.. وسيد القصْرِ كان يَبْني لعُمَّالِهِ بيوتًا حولَ قصرِهِ، تَبْدُو للرَّائِي قصورًا مُصَغَّرةً عَنِ القصْر الكَبير.. لَمْ يَفعَلْ ذلِكَ إبْعَادًا لهُمْ عَنْ قصْرِهِ.. بَلْ لأنَّ قصْرَهُ ضاقَ بسَاكِنيهِ، كَمَا أنَّهُ أرَادَ لهُمْ أنْ يتزوجوا ويَسْتَقِلُّوا ببُيوتٍ خَاصَّةٍ وَيَعِيشُوا حَيَاةً طَبيعيةً.. يريدُ أن يملأ حياتَهم بالسعادة، وأن يملأ بسعادتِهم مساحةَ قلبه الكبير.. الذي ما فتِئَ يحِنُّ إلى بلادِهِ وقصرِهِ القديمِ.. فلا شَيْءَ يغني عن الوطن.. حتى لو اجتمعت كنوزُ الأرض لتكون له بدلًا..

ورغمَ أنَّ الرَّجلَ الطَّيِّبَ صارَ يعرفهم جميعًا.. فإنهم لم يكن لديهم أي خبر عن زوجته..

هـم يعـرفون أنهـا موجودة في القصر.. وفي جناح خـاص بهـا.. لكـنها لم تكـن تَظْهَرُ أبَدًا، وَحتّى لا تلتقي بأيٍّ من نساء العمال أو بناتهن..

ومـع الأيـام لم يعـد هـؤلاء الـبدو رحـلًا، وتحـوّلت القمـةُ الجبلـيةُ المقفـرةُ إلى قـرية صغيرة جميلة تضجُّ بالحياة..

وكـان أهـلُ القـريةِ الجديـدةِ يتـساءلونَ فيما بيـنهم عـن سرِّ زوجـةِ الـرجلِ الطـيب، ولماذا لا تظهر على الناس؟

فطلـب بَعْـضُ النِّسَاء إذنًـا لِـزِيَارَتِها مرّاتٍ كثـيرةً، لكـن طَلَـبَهُنَّ كـان يُـردُّ دَائِـمًا بلُطْفٍ جمٍّ وأدب بالغٍ. وكُنَّ يَتَعَجَّبْنَ مِنْ ذلك، فَيَتَسَاءَلنَ عَنْ سَيِّدَةِ القصْرِ الَّتِي لا تَخْرُجُ مِنْ جَنَاحِهَا وَلَا يَعْرِفُها أَحَـدٌ، ومـع مُـضِيِّ الأَيَّـام خَبَا وخَفَّ كُلُّ حديثٍ

عَنْهَا، وَكَادَ النَّاسُ يَنْسَونَ وجُودَها وَلَمْ يَعُدْ الكلامُ عَنْهَا رَائِجًا وسَائِدًا..

إلى أن حـدث أمر صبغَ الواقعَ الجميلَ بلونٍ جديدٍ مليءٍ بالحزنِ.

ففـي لـيلةٍ صَـيْفِيَّةٍ من ليالي الصيف الحارَّة، وفي وقتٍ مُتَأَخِّرٍ..

وقـت تـتجمدُ فـيه أصْـواتُ الـبَرِّيَّةِ وَتقف النَّـسَائِمُ سَـاكِنَةً.. وتـتوقف الطـيُور عـن غـنائها وَالحَشَرَاتُ عن حركتِها الدائبَة.. شَقَّ صَمْتًا بديعًا رائعًا مِثلَ صَاعِقةٍ مُدَوِّيَةٍ..

انفجَرَتْ مِنْ ذاكَ قلب الجناحِ المَنْسِيِّ المُحَرَّم على ساكنِي القصْرِ وحدائِقِهِ..

صَرْخَـةٌ وَاحِدةٌ كانت كَافِيَة لِتُوقِظَ الجميع.. وأشَاعَتْ رُعْبًا وَخَوْفًا وَهَلعًا..

صَرْخَةٌ يَتِيمَةٌ جَعَلَتهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهمْ فِي ثِيَابِ نَوْمهم يركُضونَ نَحْوَ القصر هَلِعِينَ خَائِفِينَ فزِعينَ..

الصوتُ انبعثَ مِنَ الجَناحِ المُحَرَّم..

تحلَّقـوا حـول القـصر يترقـبون نَـبَأً جَلـلًا عَظِيمًا..

يَـا تُـرَى مَـا هَـذا الخَطْـبُ والمَكْـرُوهُ الكَبيرُ وَالمَوْقِـفُ الخَطِـيرُ الذي دَفْعَ سَيِّدَ القصْرِ لِلصُّرَاخ بهَذا الشَّكلِ المُريع المُخِيفِ؟!

تجمهر النَّاسُ حول القصْرِ... ولَمْ يَجْرُؤْ وَاحدٌ مِنْهُمْ علَى دُخُولِهِ..

كَانُـوا يَسْمَعُونَ صَوْتَ صياح سَيِّدِهِمْ، لكنْ يَـسْتَحِيلُ عَلَـيْهِمْ دُخُـول الجَـنَاحِ المُحَـرَّم حـيث مصدر الصوت..

ظَلُّـوا وَاجمـين بـصمتٍ يَتَرَقّـبُونَ وكأنَّ على رؤوسِهِمْ طيرٌ، وأعينهم مَشْدُودةٌ بلهفة تجاه نوَافِذِ القَصْرِ.

انْتَظَـروا حَتَّـى بَـدَأتْ أشِعَّةُ الشَّمْس تَتَكَوَّمُ بَعيداً ثُمَّ تَتَسَلَّلُ مِنْ وَرَاءِ أكَمَةٍ بَعيدةٍ..

بـدأ الـشعاع يَنْبَـسِطُ غَامِـرًا تـلالًا وَوُدِيانًـا وَسُــــهُولًا.. لكِنَّهُمْ ظَلُّوا مُــــسَمَّرينَ ثابتينَ فِي أمَاكِـنِهِمْ، كَـأنَّ الحَـيَاةَ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ صَرْخَةٍ شَقَّتْ عَنَانَ السَّماءِ..

صَرْخَـة مَـا بـرحت تَتَرَدَّدُ فِي آذانٍ مُضْطَرِبَةٍ تَرَكَتْ أثرًا فِي وُجُوهٍ وَاجِمَةٍ عَابِسَةٍ مِنْ شدَّةِ الهَمِّ.

* * *

المشهدُ الثامنُ



عِـنْدَ ارْتِفَـاعِ قُـرْص الـشَّمْسِ، شَعَرَ النَّاسُ بحَرَكَةٍ مُرِيبَةٍ.. تَرقَّبُوا.. أَرْهَفُوا أَسْمَاعَهُمْ..

تـسَلَّلَتْ خَادِمَـة صَـغِيْرَةُ الـسنِّ.. سَـلَكَتْ أَبْوَابًا خَلْفِيَّةً لِلقصْرِ، نَقلتْ إِلَيْهِمْ جملةً قصيرةً:

"سَيِّدَةُ القصْرِ مَاتَتْ.. سَيِّدَةُ القَصْرِ مَاتَتْ".

تَعَالَتْ أَصْوَاتُ البُكَاء.. الدُّمُوعُ تَسَاقطتْ.. بَكَوا كَأَطْفَالٍ صِغَارٍ..

تَعَالـتِ الأَصْواتُ بالبُكاءِ مَعَ أَنَّ أَحَدًا منهم لَمْ يَرَ وَجهَ "المَرْحومَةِ" فِي حَيَاتِهِ..

كَانَتْ لُغْزًا مُحَيِّرًا، مِثلَمَا هُوَ مَوْتُهَا الآنَ.. ومَعَ ذلِـكَ تَأَثـرُوا وفاءً للرجلِ الطيِّبِ وَأَبْنَائِهِ.. رَفَعُوا

الأكُفَّ بالدعاء.. سَألوا اللهَ لهَا الرَّحْمَةَ.. لم يغادروا أماكنهم رغمَ اشتدادِ حرارَةِ الشمس..

انْتَظَـرُوا تَـشْييعَ الجـثة.. تـرقَّبُوا خُـرُوجَها لِيَدْفُنُوها في مقبرة قريبة.. ويُقِيمُوا لها وَاجِبَ عَزَاءٍ كَبـيرٍ يَلِـيقُ بِهَـا وَبزَوْجِهَا.. مَضَت ساعات طويلة ولمْ تَخْـرُجِ الجـثة.. انْتَظَـرُوا الـنَّهارَ كُلَّـهُ.. تعِـبوا وجَاعوا.. لكِنَّهُمْ ظَلُّوا وَاقِفِينَ منْتَظرينَ مُتَرَقِّبينَ.. ثـم أتَـى المَـساءُ ثقِـيلًا.. فعـادُوا إلَى بُيُوتِهِمْ قسْرًا مُرْغَمِين.

وفِي صَـبَاحٍ بَاكِرٍ تَالٍ.. خَرَجَ الأبْنَاءُ كَعادَتِهِمْ كَـأنَّ شَـيْئًا لَمْ يَكُـنْ.. تَوَجَّهُـوا للعَمَلِ مَع العمـال دُونَ أنْ يَـتكَلَّمُوا كلِمَـة وَاحِـدَة.. كَـمَا أنَّ أحَدًا لَمْ يَسْألْ سُؤالًا وَاحِدًا..

انْـــصَرَفَ عُمَّـــالُ البَـــسَاتِينِ وَالحَدَائِـــقِ والـزَّرَائِبِ.. كُـلٌّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ.. تَبَادَلُوا النَّظَرَاتِ، تَرَقَّبُوا خُرُوجَ سَيِّدِهِمْ، لكِنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ طوَالَ اليَوْم..

ومـضى يَوْمٌ.. ويَوْمَان.. وثلاثة.. ثم مضت أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ.. والحَالُ عَلى مَا هِي عَليْهِ..

الرجلُ الطَّيِّبُ غَائِبٌ عَنْ مَزَارعِهِ وعُمَّـالِه..

وبَعْـدَ بـضعةِ أسابيعَ، وَفِي يَوْمٍ شَديدِ الحَرِّ.. وَدُونَ تَوقُّـعٍ، ظهـرَ الـرجلُ رَاكِـبًا فرَسًـا.. يَحْمِلُ بيَمِينِهِ سَوْطًا رآهُ عُمَّـالُهُ لأوَّلِ مَرَّةٍ..

لَمْ يَكَدْ هؤلاءِ يَرَوْنَ سَيِّدَهُمْ حَتَّى توقَّفُوا عَن العَمَـلِ وركضوا نَحْوَهُ بسَعادَةٍ عَفويَّةٍ، وبدلًا من أن يقـابلَهم بـشوق مماثـل؛ انْهـال عَلـيْهم بسَوْطِهِ يوسعُهُم ضَرْبًا، وَشَتَمَهُمْ سَاخِطًا وأمرهم بالعَوْدَةِ إلى عَمَلِهِمْ..

تفاجأ هؤلاءِ من موقف سيدهم غير المفهوم ولا المبرَّر..

تَغَـيَّرَتْ أحْـوَالُهُ وانقلبتْ رَأسًا عَلى عَقِبٍ.. بـدا وَجْهُـهُ قبـيحًا دَمِـيمًا.. تبَدَّلَ مِنْ إنْسَانٍ هَادِئ قَلْـبُهُ طَيِّبٌ وطَبْعُهُ وَدُودٌ إلى شخص شَرِسٍ عَنيفٍ قاسٍ سَيِّئ..

أولادُهُ هـم أيـضاً كان ينَالـهُمْ من الضربِ والشتمِ ما أصابَ غيرَهم..

وازْدَادَتْ تَصَرُّفاتُهُ سوءًا يومًا بَعْدَ يَوْمٍ وَكأنَّ روحًا شِرِّيرَة تَلَبَّسَتْهُ.

تَعَجَّـبَ الجَميعُ مِـمَّـا يحدُثُ، ولمْ يجرؤ أحدٌ عَلى صَدِّهِ ومَنْعِهِ، حَتَّى أوْلادُهُ طَرَدَهُمْ مِنَ القصْرِ، فسَكَنُوا بُيوتَ العُمال..

لمْ يَعْتَرِضْ أحدٌ ولم يواجِهه أحدٌ..

تَحَمَّلوا تَصَرُّفاتِهِ تقديرًا منهمْ للصَّدْمَةِ الهَائِلةِ الَّتِـي ألـمَّـتْ بِـهِ بِـوَفاةِ زَوْجـهِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ سـعادَةٍ وفـرحٍ تلـيدٍ قديمٍ.. فقد كانَ مَوْتُها شرارةَ نَارٍ أوْقدَتْ جـمرَ قلبِهِ وَأحْرَقتْ كُلَّ شَيءٍ جَمِيلٍ فِي نَفْسِهِ.

كـان أولاده يعـرفون مقـدار حـب أبـيهم لأمهـم.. صـاروا يعـتذرون من العمال ويحاولون التخفـيفَ عـنهم، وكـشفوا لهم أنَّ أمَّهم هيَ التي كانـت تـسجن نفـسَها في غـرفتها ولا تقـبل لقاء أحد..

أخـبروهم بقـصة الملـك الشرِّيرِ، وأن أمَّهُمْ بعـدما سـكنت هـذا المكـان أصيبتْ بحزنٍ شديدٍ

وكآبـةٍ عظـيمةٍ، خاصـةً لأنهـا فقدت أبَاها وأمَّها وأفـراد أسْرَتِهـا، وسـكنت في هـذا المكان مرغمةً وحـيدةً لفـترةٍ طـويلةٍ.. فأصـبحت تخاف من كل شيءٍ، حتى من الهواء فلا تفتح نافذة غرفتها..

وبعــدَ أنْ تَجَمَّــعَ الــناسُ في هــذهِ القمَّــةِ وسـكنوها ظلَّـتْ سـيدةُ القـصرِ ترفضُ رؤية أيٍّ كان..

كانت حياتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، حتى ماتـت فجـأة، وخـسر أبـوهم بموتها حبَّه الوحيد وسـبب مـا كان يجعله متمسكًا بالحياة، وشعر أنَّهُ أضـاعَ أجمـل ذكـرياتِ حياتِه، وفقد ما كان يربطه بمـاضيه السعيد.

* * *

المشهدُ التاسعُ



وَمَـرَّتْ أَيَّـامٌ طـويلةٌ.. صـارت تَـصرَفاتُ الـرَّجُلِ تَـزْدَادُ حـدَّةً يَـوْمًا بَعْـدَ يَـوْمٍ.. وتطايرَتِ الأَخْـبَارُ مِنْ مَكَانٍ إلى مَكَانٍ.. فتَحَدَّثَ النّاسُ عَنْ قـصة الـرجل فِي قُـرًى وَبـلادٍ بعـيدة.. تَعَاطَـفَ بعـضُهم مَعَـهُ وَاسْـتَغْرَبَ آخـرون.. كـما اسـتاءَ الـبعضُ مـن اسـتبدالِهِ القـسوةَ والظلـمَ بالـرِّفْقِ والطيبةِ والرَّحْمَةِ..

حَـاوَلَ أَبْنَاؤهُ جاهدين إنقاذ أبيهمْ مِنْ كَرْبِهِ، لكِنَّهُ كَانَ صَلْبًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ.

لَمْ يَتَخَلَّ الأَبْنَاءُ عَنْهُ ومعهم بعضُ المُخْلِصينَ وَالأَوْفِـيَاء.. صَـبَرُوا عَـلى ظُلْـم سَـيِّدِهِم الحادِثِ

المُسْتَجِدِّ وَتَحَمَّلوا اسْتِبْدَادَهُ وحتى جنونَهُ.. أمّا سَائِرُ العُمَّالِ فرَحَلوا هَاربينَ مِنْ "جبروت" سَيِّدِهِمُ الَّذي يُحِبُّونَهُ، وَرَاح معظمهم يَبْحَثُ عَنْ مَصْدَرِ رِزْقٍ جَدِيدٍ لَهُمْ وَلِأولَادِهِمْ..

صَبَرُوا زَمَنًا طَويلًا، وتَحَمَّلوا الأذى وَالسخْطَ.. وَلَمَا يَئِسوا مِنْ صَلَاح أمْرِ سَيِّدِهِمْ حَمَلُوا أمْتِعَتَهُمْ وَرَحَلُوا مُضْطَرِّينَ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أنْ تَهْدَأ نَفْسُهُ ويَطِيبَ خَاطِرُهُ وَيَعُودَ إلى عَهدِهِ بَعْدَ زَوَالِ أحْزَانٍ شَحَنَتْ قلبَهُ غَضَبًا وَكَمَدًا وحُزنًا شديدًا.

وسارَت الأيَّام سَيْرَ سُلَحْفَاةٍ عَجُوزٍ.. مَضَتْ ثقِيلةً ثقِيلةً.. البَسَاتِينُ الغَنّاءُ العَامِرَةُ والمُروج الخَضْرَاءُ تحوَّلَتْ إلى هَشِيمٍ يَابس النَّبَاتِ

والـشَّجَرِ، جَفَّت الضُّرُوعُ، وحَلَّ عُبوسٌ.. وَتَجَهَّمَ المَكَـانُ بعـد بَـسْطٍ وَانْـشِرَاحٍ.. الهَـوَاءُ بات كَئيبًا، والنسيمُ حزينًا.. وبَدَتِ الربوة أرْضًا مَهْجُورةً مِنْ زَمَـنٍ.. وكـأن المَـاءَ نـضبَ وانقطـعَ، والهَوَاءَ نَتَنَ وفسَدَ، والتُّرَابَ الطَّريَّ النديّ تصحَّر وتلبَّد..

لَمْ يَجْسُرْ أحَـدٌ ـ ممـن فـضَّل الـبقاء ورفـض الـرحيل ـ عـلى مُخَاطَـبَةِ الـرجل الطـيب، الـذي أضحى كجلمودِ صخرٍ أو أشدَّ قسوةً..

حَتَّـى أولادُهُ انْقطَـعَ تواصـله معهم؛ كانوا عِـنْدَمَا يَـرَوْنَهُ هادئًا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ عاد كَمَا عَهدُوهُ.. لكـنه لا يلـبث حتـى يَنْفجـرَ بُـرْكَانًا غَاضبًا يَشْتَدُّ ضَراوة ووَحْشِيَّةً وقسْوَةَ وَجَوْرًا وظُلْمًا..

أصبحَ القصرُ هاجِسًا..

لَمْ يَعُـدْ هُنَاكَ مَنْ يَلْوذ بِهِ ساعَة ضِيقٍ.. وبعدَ أن كـانَ مـصدرَ الأفـراحِ والمـسرَّاتِ أصـبحَ مقرَّ الأحـزانِ والآلامِ.. وكَانَـتْ صَـيْحَاتُ الـرَّجُلِ الحزين تَخْرُقُ سَكِيْنَةَ المكانِ وهيْبَتَهُ، فيَتَرَدَّدُ صَدَاهَا لِيُجَاوِزَ تِلالًا وَوُدْيَانًا مُجَاورة.

تَـنَاقلَ الـناسُ الخَـبَرَ.. حَتَّى وَصَلَ إلى بلادٍ بَعِيدةٍ.. إلى صديق الطفولةِ والصِّبَا..

صـديقُ عَهْـدٍ قـديمٍ كَـانَ يَعِـيشُ فِي قـصر الـرجل الطيب يَوْمَ كَانَ طِفلًا.. عَاشَ طُفُولَتَهُ مع صَدِيقهِ الَّذِي كَانَ خَادِمًا وَنَدِيمًا أنيسًا.

عَـرَفَ الـرَّجُلُ سَـبَبَ غَضَبِ صَدِيقِهِ، كَانَ يكـرهُ الموتَ، يُنكر مَوْتَ مَنْ يُحِبّ.. تذكر أَنَّه فقدَ أمَّـهُ صـغيرًا كـما فقـدَ أبـاهُ وهـو في سـنِّ اليفاعةِ

والشبابِ.. خافَ على زَوْجِهِ في محبَسِهَا فِي جَنَاحِها من أن تُصابَ بسُوْءٍ..

لكِـنْ كَـيفَ يَفـرُّ إنْـسَانٌ مِنَ القدَر؟ وساعةُ الموتِ لا رَادَّ لها.

وهذا الصديقُ كانَ أكْبَرَ مِنْهُ بِسَنَةٍ أوْ سَنَتَيْنِ.. كَـانَ ابنًا لِمُزَارِعٍ يَعْمَلُ عِنْدَ أبيهِ.. كَانَتْ لهُـمَا أحْلامٌ كَبِـيرةٌ.. وعـندما بَلْغَـا سِنَّ الفُتُوَّةِ وَالشَّبَابِ غادَرَ الـصديقُ الطمـوحُ قصرَ صَديقِهِ ومَزَارِعَهُ إلى بلادٍ بعيدَة..

عمـلَ نهـارًا ولـيلًا حَتَّـى بَلـغَ مَكَانَة عَالِيَة، وَأصْبَحَ غَنِيًّا مِثلَ صَدِيقِهِ.. وانقطعت الصِّلة بَيْنَهُمَا لبُعْدِ المَسَافةِ وَمَشَاغِلِ الحَيَاةِ.. لكن عِنْدَمَا وَصَلتْ الأخْـبَار إلـيْهِ تذَكَّـرَ أيَّامًـا خَالِـيَةً.. أدْرَكَ سِرَّ مَـا

أَصَــابَ صــديقه القديم. فقرَّرَ الصديقُ السَّفَرَ إلى صَدِيقِهِ..

قــرَّرَ تَــرْكَ تِجارَتِــهِ وَزرَاعَتِهِ وَأمْوَالِهِ وَالسَّفَرَ بِرفقةِ زَوْجِهِ وَأوْلَادِهِ وَعُمَّالٍ لهُ..

أَحَسَّ بأنَّ عَلَيْهِ دينًا يجب تسديدُه.

كَانَــتْ صــداقَةُ طفُــولةٍ بَيْــنَهُمَا مِــنْ أرْوَعِ مَا يَحْمِلانِهِ مِنْ ذِكْرَى.. بَلْ كَانَتْ أجْمَلَ أَيَّامِ الحياة.

رَأى أنَّ وَاجِــبَهُ الــيَوْمَ يَفْــرِضُ عَلَــيْهِ مُحَاوَلَةَ إنقاذِ صَديقِهِ مِنْ ظُرُوفِهِ الصَّعْبَة.

جَهَّزَ قافِلة كَبيرة..

أحْضَرَ عُمَّالًا وَمُزَارِعِينَ وَخَدَمًا وانطلق..

وعِــنْدَمَا بَلَــغَ أطْــرَافَ القمــة الجبلــية حَذَّرَهُ

الـناسُ مِنَ الاقتِرَابِ لأنَّ "صَاحِبَ القصْرِ غَرِيبُ الأطْـوَارِ" كَـمَا قالـوا.. لكـنَّ الـرَّجُلَ تابعَ طرِيقهُ بثـباتٍ ولَمْ يَنْـصِتْ لأحَـدٍ.. حتى وَصَلتِ القافلةُ قـريبًا مـن المكان في ساعة تجاوزت مُنْتَصَفِ اللّيْلِ بقليلٍ..

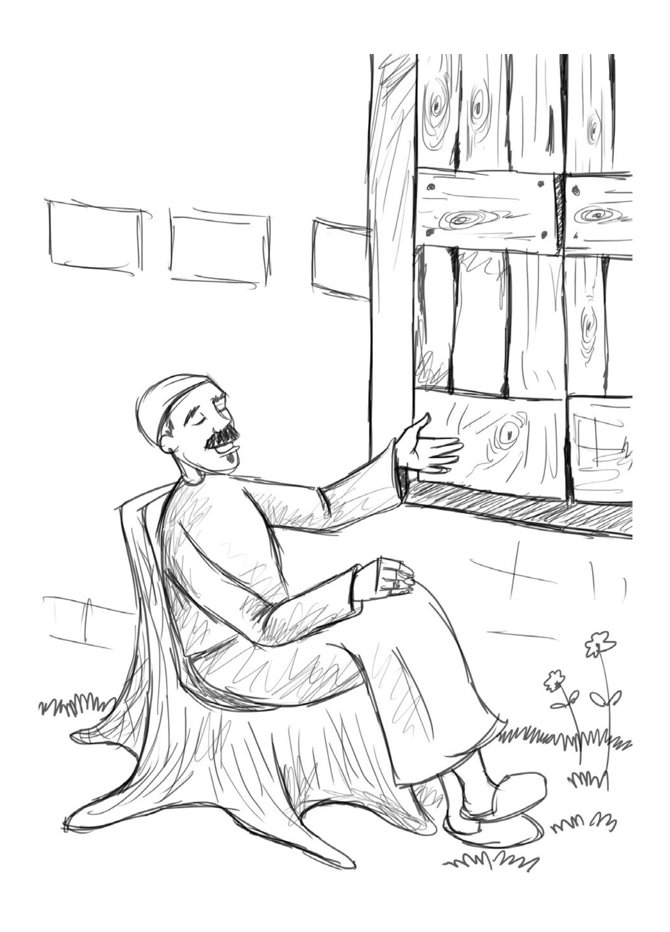
أمَـرَ الرَّجُلُ عُمَّالَهُ ألَّا يَقْتَرِبُوا مِنَ القصْرِ وَأنْ يَسْكُنُوا البُيُوت المَهْجُورة البعيدة عن القصر..

وبَعْدَ انقضاء اللَّيلِ..

وبعـدَ أنِ اسـتراحَ المـسافرونَ سَاعاتٍ قليلةً مـن عـناءِ الطـريقِ، اسْـتَعَادَ الـرِّجَالُ نَـشَاطَهُمْ، فأمرهم سيدهم بالخُرُوجِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ..

* * *

المشهدُ العاشرُ



تَوَجَّهُوا مباشرةً نَحْوَ البَسَاتِين التي أضحتْ خـرابًا مـنذ أن هجـرها العـمالُ، فـرَاحُوا يَحْفِرونَ وَيُقلِّـبُونَ الـترابَ الجـافَّ المتـصلبَ مثل الحجارَةِ الـصَّمَّاءِ، ثـم اسـتخرجوا المـاءَ مـن البئـرِ وسَـقَوا الأرضَ كـي تـسْتَعِيدَ بـريقها وانتعاشَها اسْتِعْدَادًا لِزراعَتِها مِنْ جديد..

شـعرَ أولادُ الـرَّجل وَمَـن تبقـى مِـنْ عُـمَّالٍ أوْفِيَاءَ بحركةٍ مريبةٍ عندَ أطرافِ القريةِ المهجورة.. فاتَّجَهُوا نَحْوَهُمْ، وفوجئوا بكلِّ هؤلاءِ الرجالِ وما معهـم مـن معـداتِ فلاحـةٍ وزراعـةٍ.. استقبلهمْ صـديقُ أبيهمْ بكلِّ الحبِّ.. قَصَّ عليهمْ قصتَهُ عنْ

أبِيهِمْ.. فَرِحُوا وفرحَ معهمُ العمالُ وبدأوا يَعملونَ جميعاً لِتَعُودَ الأرْضُ كَمَا كَانَتْ..

أمَّا الرجلُ الطَّيِّبُ الذي لم يَعُدْ يَخْرُجُ مِنْ قصْرِهِ بعد أن أنْهَكَهُ الحُزْنُ وَالألَمُ وأصَابَهُ ضَعْفٌ وَهُزَالٌ شديدان.. فقد كَانَ يَخْتَلِسُ النَّظَرَ مِنْ حينٍ لآخرَ سَعِيدًا فِي نَفْسِهِ لِعَوْدَةِ الحَيَاةِ إلى بَسَاتِينِهِ.. لكنه لم يعرف لماذا جاء هؤلاء العمالُ والزراعُ، ولماذا جهدوا لكي تدبَّ الحياةُ في أرضِهِ من جَدِيد..

انتعشتْ نفسُهُ من جديدٍ.. وارتسمتِ الابتسامَةُ على مُحَيَّاهُ؟!

كانَ الصديقُ الآتِي من بعيد يَعْرِفُ مَا تَعْنِيهِ الأرْضُ لِصَدِيقِهِ.. عاشا معًا سنوات الطفولة

والفـتوَّة والشبابِ بين المزارع والبساتين، يزرعون ويحصدون.. ويغنون أغاني الأرضِ والحصاد..

مـضت أيَّـام قلـيلة وعـادت الحـياة تنـبضُ بالأرض.. وتحوَّلت من اليباسِ الرماديِّ القاتِمِ إلى الأخـضرِ الـنابتِ بهـدوءٍ.. وتغـيَّرَ الجفـافُ إلى الانتعاشِ..

استبـشرَ الـناسُ خَـيْرًا عندما شاهدوا نافذة الرَّجُلِ الطَّيِّبِ تفتحُ على الهواءِ لأَوَّل مرَّة منذ زمن بعيد.. صفقوا فرحين وأطلقوا الصيحاتِ مهلِّلِينَ مُـرَحِّبينَ.. لكنَّ النافذة لم تفتح إلَّا قليلًا ولم يظهر منها خيالُ الرَّجُل..

وبعـدَ أن اطمأنَّ الصديقُ على أرضِ صَدِيقِهِ وبدأت الروحُ تدبُّ فيها والاخضرارُ يزحفُ إليها

مـن جديدٍ.. ورأى بنفسه كيف أن صديقَهُ الطيبَ فـتحَ قلـيلًا مـنْ نافذتِـه.. اعـتقد أَنَّ الفرصـةَ قـد حانَـتْ، فقـرَّرَ الاقترابَ ولأولِ مرة مِن القصرِ.. الـتفتَ جمـيع مـن معه نحوه مترقبينَ ماذا يريد أنْ يفعلَ..

كـان أبـناء صاحب القصر أشد الناس تلهفًا وتـرقبًا.. هـم في شـوق لعـودة أبـيهم إلى عهـده القديم.

اقـتربَ الـرجلُ مـن القصر حتى بلغ البابَ الـرئيسَ.. اتجهَ مباشرةً نحو كرسِيٍّ خشبِيٍّ مصنوعٍ مـن جـذعِ شـجرةٍ.. جَلَـسَ بهـدوء وسكينة على الكـرسي في مكانـه القـريب جـدًّا من نافِذةِ غرفة صديقه..

وبعد بضع دقائقَ.. راحَ يُنْشِدُ أغْنيَةً قديمة..

توقـفَ العـمالُ عنِ الحركَةِ.. اقتربوا وكأنهم يسيرونَ على رؤوس أصابعهم.. وراحوا ينصتونَ إلى إنـشاد الـرجل بـصوته العـذب.. كانت أغنية جميلة يغنّيها المزارعونَ في حقولهم، ولطالما أنشدها مَـعَ صـديقهِ في سنِّ الطفولة وفِي رَيْعَان الشَّبَابِ.. وراح الجميع يردد خلفه:

الأرْضُ الَّتِي نُحِبُّهَا.. قِطْعَة منَّا

بنا تَحْيا.. بها نحيا..

هَيّا بنَا نَزْرَعُها.. هيَّا بنا.. هيَّا..

إن مَضَتْ أعْمارُنَا.. وَلمْ نُعَمِّرْها..

حَيَاتُنَا سُدًى.. حَيَاتُنَا سُدًى..

كُلُّ يَوْمٍ تَحْيا أرْضُنَا بنَا..

أرْضُنَا الَّتِي نَحْيَا بهَا..

هِيَ مِثلُنَا.. بها نحيا..

وتحْيا هي من أجْلنَا..

نفديها بالأرواح

هيا بنا.. هيا بنا

نزرع القمح.. نقطف التفاح

ننشر المرح.. نحصد الأفراح

ما أجمل الفلاح.. ما أطيب الفلاح

* * *

المشهدُ الحادي عشر



تـروي القصص المتوارثة أنَّ صَاحِب القصْرِ ذُهِـلَ عـندما سَـمعَ ذلـك النشيدَ بصَوْتِ صَاحِبِهِ القـديمِ.. فعـادت ذاكرته بسرعةِ البرقِ إلى الماضِي البعيدِ، متذكرًا رفيق الطفولة واليَفاعَة..

ومـــن ينـــسى أصـــدقاء الطفـــولة! تلـــك الصداقات التي تنشأ دون مصلحة أو منفعة..

صـــداقاتٌ جمـيلة يحـافظ علـيها الأوفـياءُ، ويحـرص علـيها النـبلاء، وتكبر مع الإنسان يومًا بعـد يـوم، لا يقطعهـا إلّا جاحِد، ولا ينكرها إلّا لئيم..

صـداقاتُ الطفـولةِ تبقـى أجمـلَ مـا تختـزنُهُ

القلـوبُ فِي أعماقهـا، تكـون مـثل جوهرةٍ متلألئةٍ مـتغلغلةٍ في حـنايا الأنفسٍ، تغفو مع الأيام لكنها تستيقظ كماردٍ جبارٍ عندما يراجع الإنسان ذاكرتَهُ، تـتوهّج بحـرارة عـندما تبـزغ من جديد مع رائعة النهارِ بعد سباتٍ طويل..

تذكـرَ ذلـكَ الصديقَ الذي عَاشَ مَعَهُ سِنينَ طويلةً، وكان سلوته الوحيدة بَعْدَمَا فقدَ أَبَوَيْهِ..

هـذا النـشيد أعاده أيضًا إلى شعور نزع قلبه من مكانه..

تذكـر ذلك الشُّعُور الرَّهِيب يَوْمَ فقدَ وَالِدَتَهُ ثـم وَالِـدَهُ.. الـشُّعُورُ نَفْسُهُ هو الذي استعادَهُ يَوْمَ وَفـاةِ زَوْجِـهِ الَّتِي يُحِبُّ.. لكنه وقتَها لم يكن عنده صديقٌ مثلُه ليخفف عنه الألم..

أعَـادَ الـصَّوتُ والنـشيد لهُ ذِكْرَيَاتٍ كَثِيرةً، أيْقـظَ فِي نَفْـسِهِ أحْلَامَ مَاضٍ ناءٍ قاصٍ بَعِيد.. ومَا أصْـعَبَ محـنةً عِنْدَمَا تَتَكَرَّرُ مرتين.. تلك مرارة لا يعـرفها إلّا مـن ذاقهـا.. فكيف بمن ذاقَها مرتين، وهـا هـي الآن تـتوهّج مـن جديـد، وتـبعث من مرقدها، وتنبت كأسياخٍ في قلب صاحِبِها..

وكـانَ الـتوقُّعُ أنْ يهدأ خاطِرُ الرجلِ الطَّيِّبِ المكلـومِ بـسماعِ النـشيدِ بعدَ أن طابتْ نفسُهُ برؤية أرْضِهِ وقدِ انتعشتْ بِزَرْعِهَا.. وأن يطلَّ من نافذته محيـيًا صديقه القديم.. لكن الرجل لم يفتح نافذتَهُ عـلى مِـصْرَاعَيْها، ولم يطـلَّ بِرَأسِـهِ.. وبقـيَ أسيرَ قَـصرِهِ.. فـضاعف الـصديق الجهـدَ، وأمر رجالَهُ بالعملِ ليلًا ونهارًا..

زرع الرجال الأشداء كثيرًا من الشجر حتى انتـشرَ الـشجرُ حـول القـرية المـرتفعة.. وازداد الـشجر مـع الأيـام.. حتى أصبحت غابات كثيفة متـشابكة الأغـصان.. وانقطعـت عـند هذا الحَدِّ أخـبارُ الـصديقِ.. وغادرَ كثيرٌ منَ العمّالِ، أمَّا من بقـيَ من الرجالِ على الربوة في محيطِ القصر برفقة أبـناء الـرجل الطـيب فقـد قرروا البقاء رغم كلِّ الـصِّعاب.. وانقـضت الأيـام حتى توارتِ القريةُ وراءَ سـتارٍ مـنَ الأشجارِ الملتفَّةِ حولَ بعضها، ولم يعدْ يعرفُ بِها أحَد.

ومـعَ مـضيِّ الأيـامِ أصـبحتْ ذاكـرةُ الناسِ مـرتبطةً بالقـريةِ التـي يعيـشونَ فيها.. إلَّا أن هذه القـصة رسـخت في الذاكـرة.. وصارت أسطورة القرية.

وكـان الفَتَى مثل كثير من فتيانِ القريةِ يحبُّ سـماع هذه القصَّةِ من حينٍ إلى آخَر، وكلَّما سمعها كان يتأثر بِهَا وكأَنَّهُ يسمعُها لأوَّلِ مَرَّة..

وهـذا الفتَـى الوسـيمُ الذي كانَ يُعْرَفُ بين أهـل القـرية بـــ "اليتـيم" فقدَ والديه وهو صغيرٌ وعمـره لا يـتجاوز الأشـهرَ، وكـان تأثـره بقصةِ مـوتِ والـدَي صـاحبِ القـصر بـسبب شـعوره باليُتْمِ، وإحساسه بفقدانِ حنانِ الأمِّ والأبِ..

لكن "يتيمًا" لم يكنْ مشردًا أو وَحِيدًا..

الناسُ فِي قريتهِ يحبونَ بَعْضَهُم بَعْضًا.. كما أَنَّ جدَّتَهُ لأمِّهِ كانت على قيدِ الحياةِ وربَّتَهُ حتى أصبحَ عمـرُهُ عَشْرَ سِنين، ثم أصَابَهَا مرضٌ شَدِيدٌ جَعلَهَا طـريحةَ الفِـرَاشِ نحو سنةٍ كاملةٍ.. فَخَدَمَها طوالَ

هـذه المـدةِ بكـلِّ تَفانٍ ومحبَّةٍ، لم يكن يفارقها لحظةً واحـدةً حتـى ماتَـتْ، ثـم قضى أيامًا يجلسُ قربَ قَبْرِها..

حـبسَ نفسَهُ في بيت جَدَّتِهِ مدةً طويلةً يَبْكِي عَلَيْهَا.. حتى أقنعَهُ أحد كبارِ السِّنِّ بأنَّ جدَّتَهُ رَبَّتْهُ لـيكونَ ذا فائـدةٍ للـناسِ لا أن يقـضيَ حـياته بينَ القـبورِ، وأنْ لا يضيعَ شبابَهُ فلا يَسْتفيدُ الناسُ من عِلْمِـهِ الـذي تعلَّمه مِنْهَا، بعدَ أنْ أورثَتْهُ مِن العلمِ والتجرِبَةِ الكثيرَ..

كانـتِ امـرأةً حكيمةً، وأهلُ القرية يدركون عِلْمَها وخبرَتَها في كثيرٍ منَ الأمورِ، وكان حفيدُها يقـضي مَعَهـا كُـلَّ الـوَقْتِ، ولا يـذهب حتـى إلى مدرسـة القـريةِ الوحـيدةِ التـي كـان يـتعلَّمُ فـيها الـصغارُ بعـضَ العلومِ البسيطةِ، فقد تكفلتْ هِيَ

بتعلـيمِهِ الكـتابةَ والحـسابَ والـزراعَةَ وأعـمالَ المنـزلِ.. وقلـيلًا مـن الطبِّ الشَّعْبِيِّ الذي تعلَّمته واكتسبَتْهُ بِالخبرَةِ.

كانـتْ تحكـي له قصصًا كثيرة.. أخبرته أنها حدثت في قريتهم على مرِّ الزمان..

وكـان يظـن أنَّ جدَّتَـهُ تـروي لـه قصـصًا خياليـة، وظـلَّ يظـن ذلـك حتى ماتتْ جدتُهُ، ثم سـمعَ مـثل تلـك القصص من كِبار القرية خلال تقديمهِ المساعدة لهم..

قـرَّرَ أنْ يكـون "خادمًـا" لأهـل القـرية، وخاصـةً لكـبارِ الـسِّنِّ الـذين يحـتاجون لمساعدة ولـيس عـندهم من يساعدُهم، إكراماً لجدَّتِهِ التي رَبَّـتْهُ ولـيدًا بعدَ موتِ والديْهِ وهو في سنٍّ صغيرةٍ جدًّا..

وفي حقيقةِ الأمرِ؛ فإنَّ الفَتَى اليتيمَ لم يكنْ في الواقـع يتيمًا، لأنَّ قريته تعتبر نفسها عائلة واحدة، الـصِّغَارُ يقولـون للكبـير يـا عمي، والكبير يقول للصغير يا بُنَيَّ..

ولم يكـن هـذا التعبـيرُ مجـرَّدَ مجاملةٍ شفهيَّةٍ، فجمـيع أهـل القـرية يعلمون أنَّهم من جدٍّ أو مِنْ أجـدادٍ تزوَّجَ بعضُهم من بعضٍ، حتى كبرت هذه القـرية واتـسعت مساحتها، وشكل جميع سكانها عائلة واحدة، تربط بينهم صلاتُ القربى..

حتـى إنَّ أشـكالَـهُم تكـادُ تكـونُ واحدةً.. الـوجهُ والأنـفُ والعيـنانِ وطـولُ القامَـةِ ولـونُ البـشرَةِ التـي سَمَّرَتْهَا الشَّمْسُ، والجبينُ والمنكبان العريضانِ، والشعرُ البنيُّ الناعِمُ الجميلُ..

وهـم رغـم مـا يتميـزونَ بهِ من تشابُهٍ كبيرٍ؛ فـإنَّهم لا يخطِـئونَ في أسـمائهم، ويعرفون بعضَهم بعضًا.

إن الألفـةَ والمحـبةَ والوئامَ أشياءُ لا تُشْتَرَى بالمـالِ ولَا بالـذَّهَبِ، وحـين تَـسُود تلـك المعـاني الـساميةُ بـين الأقـاربِ والمعـارفِ والأصدقاءِ في المكان الواحِدِ؛ ينتشر السَّلامُ وتعمُّ المشاعرُ الدافئةُ الصادقةُ، ويسودُ التفاهُمُ، ويزدادُ التَماهِي والتفاني وإنكارُ الذاتِ بينهم..

ومـضتِ الأيـامُ والليـالي عـلى هـذه الحال، والفتَـى اليتـيمُ يقـضِي وقْـتَهُ متـنقلًا منْ شارعٍ إلى شـارعٍ، ومـنْ بستانٍ إلى بستانٍ، ومن دارٍ إلى دارٍ، يـساعدُ ذا الحاجـةِ الملهـوفَ، ينظف بيت الأرملةِ العجوزِ..

يغـسلُ ثوبَ العاجِزِ الوحيدِ.. يُحَضِّرَ طعامًا وشَرَابًـا لمسكينٍ.. يملأ جرارَ الماءِ ويكنسُ بَاحَاتِ المنازِلِ..

* * *

المشهدُ الثاني عشرَ



القـريةُ لمْ تكـنْ تعـرفُ شيئًا اسْمُهُ درهمٌ أو دينارٌ، ولم تكنْ لديها تجارةٌ كَمَا هو مفهومُ التجارَة، بـلْ كانـوا يـتهادونَ المنـتجاتِ والمـزروعاتِ والـصناعاتِ البـسيطةِ فـيما بيـنهم بكـلِّ بَـسَاطةٍ، ودونَ تحديـدِ القـيمةِ.. وَلَـرُبمَـا اسـتبدلَ رجـلٌ يملـكُ دجاجًـا سـلَّةَ بيضٍ بنعجةٍ كبيرةٍ، أو بِضْعَ تفاحاتٍ بدجَاجَةٍ..

لَمْ يكـنْ مفهـومُ التجارَةِ والرِّبحِ بَيْنَهُمْ سَائِدًا لأنَّ الأهَمَّ عندَهُمْ هُو مَدَى الاستفادَةِ من الشيءِ، فقـد يكون الشيءُ متوافرًا مع شخصٍ مَا بكمياتٍ كبـيرةٍ لكنه لا يحتاجُ إلَيها كُلَّها، بينما قدرٌ قليلٌ مِنْ

شيءٍ مـا يملكهُ أحَدُهُمْ قَدْ يكونُ أَحَدٌ آخر محتاجًا إليه بشدة.. فيهديه إليه..

وكـان "يتـيمٌ" يذكـر أحـيانًا قـصة القـصرِ القـديمِ.. كـما يذكر قصةَ الطائرِ الخُرَافِيِّ العجيبِ، ومـا كانـت ترويه له جَدَّتُهُ من قصصٍ عجيبةٍ عن ممالـكَ قديمـةٍ، مـثل قـصة الأمير اليافعِ المتواضعِ المحـبِّ، وقـصة ابـنة الملـك الظـالم التـي أحـبها الشعبُ..

لم يكن يكتفي بسماعِ ما يرويه بعض الشيوخ والعجائـز، بـل كـان يطلـبُ مـنهمْ بإلحـاحٍ ذكـرَ التفاصـيل؛ وتكـرارَ القـصصِ، ويسمعها مكرَّرة مـن كـبارِ القـريةِ، يـريدُ أنْ يعـرفَ أكثرَ مما سمعَهُ مـرارًا، لكـن القـصص كانـت بمجملهـا قصيرة جدًّا..

هي نفسُها تتكررُ دون إضافاتٍ جديدةٍ..

لم ينسجِ الناسُ حولَها الأساطيرَ ولا بَنَوْا من خيالهم ألوانًا من التفاصيل التي يضيفها البعض على قصص التاريخِ، حتى تصبحَ أسطورةً من الأساطيرِ.. أو قصة فوقَ الواقعِ وأبعدَ منَ الخيالِ..

أمَّا قصَّةُ الطائرِ الخُرَافِيِّ العجيبِ، فيظنُّ الناسُ أنَّها حكاية أسطوريَّة، وليست سوى خرافةٍ من نسجِ الخيالِ، وهم يروونها على سبيل التسليةِ والترفيهِ ويتوارثونَهَا جِيلًا بعدَ جيلٍ، ولا يصدقها أحَدٌ، سمعها من جَدتهِ من قبلُ، تروي حكاية رَجلٍ كانَ سَيِّدًا في قومِهِ، شغلهُ الشاغلُ تربيةُ الطيورِ الكبيرَةِ، كان يسافرُ من بلادٍ إلى بلادٍ، بحثًا

عن الطيور التي يهواها ويأتِي بها إلى بلاده.. متنقلًا علـى قدمـيه تـارَةً، وعلى الحمارِ تارَةً أخْرَى، وعلى الجمال تارَةً ثالثةً...

أمَّا المَراكبُ الشراعِيَّةُ الصغيرةُ منها والكبيرةُ فكـان يـركبُها إذا صـادفَ بحرًا أو نهرًا.. أي كان يـركب مـا توفـر لـه من مركب، غير عابِئ ببرٍّ أو بماءٍ.. في الصحراءِ يمشي.. وفي الغابات والبراري يمشي..

إلى الـوديانِ ينـزلُ وعـلَى الجـبالِ يتسلَّقُ وفي السهول يَمْضِي، لا يعيقه في سيره إنسٌ ولا جانٌّ.

قَادتْـهُ الـرحلاتُ إِلى قمَّة الجبلِ، حيث كانَ القـصر شـامخًا بكـبرياء.. لكنَّهُ كانَ غيرَ مأهولٍ في ذلـك الـزمانِ، وكـانَ الناسُ يعتقدونَ بأنَّ القَصْرَ

يسكنُهُ وَحْشٌ كَبِيرٌ، لِذَا كانُوا يبتعدونَ عن القصرِ ولا يقتربونَ منهُ، وكانوا في الليلِ يسمعونَ أصواتًا غـريبةً تنـبعثُ مـن داخـلِ القـصرِ ممـا كـان يزيدُ خوفَهُمْ وَرُعْبَهُمْ..

كانوا يشاهدونَ في اللَّيالي المقمِرَةِ شيئًا ضخمًا يـشبه طائـر (العـنقاء) الشهيرَ في الأساطِيرِ، يخرجُ من القصرِ ويحومُ فوق الغابَةِ يملأ الوديانَ والتلالَ زَعِـيقًا كأَنَّـهُ يَبْكِي ثم يعودُ بعد أن يفرِّغَ ما في قلبِهِ من صراخٍ ويختفي في ظلام القَصْرِ..

وعندمَا وَصَلَ الرَّجُلَ إلى هذا المكانِ..

وعـندمَا سـمعَ بقـصةِ هـذا الطائـر الخرافيِّ الـضَّخْمِ.. لم يقـدرْ عـلى مـنعِ نَفْـسِهِ مِـنْ محاوَلَـةِ الدخولِ إلى القصرِ لاكتشافِ حقيقةِ هذا الطائر..

كـانَ يَمُنِّـي الـنفسَ بأَنَّهُ يقدرُ على أسْرِ هذا الطائرِ الغـريبِ، كـما فعلَ معَ كثيرٍ منَ الطيورِ فِي رحلاتِهِ الكثـيرَةِ حـولَ العـالَـمِ، لِيَـضَمَّهُ إلى مجْمُـوعَاتِهِ المتعدّدةِ من طيورٍ حَيَّةٍ أو طيورٍ مُحَنَّطَةٍ..

وبعدَ أنِ اقتربَ صيادُ الطيورِ المَاهِرُ منْ سُورِ الْقَـصْرِ.. وَكـانَ الـناسُ مستغربينَ من جُرْأتِهِ لأَنَّهُ هالـكٌ بِـلا شَـكٍّ باعـتقادِهِمْ.. فـتحَ الرجلُ بابَ الـسُّورِ الحديـدِيِّ بِـصُعُوبَةٍ.. فانطلـقَ في الأرجَاءِ صـوتُ صَرِيـرٍ قَـوِيٍّ بعـدَ زَمَـنٍ طويلٍ من ابتعادِ الـناسِ عَنْهُ.. دخلَ الرجلُ حديقةَ القصرِ واختفَى عـنِ الأنظـارِ، وارتفعـتِ الأصـواتُ التـي كانت تَـتَرَدَّدُ مِـنْ داخـلِ القصرِ فِي هَذِهِ اللحظةِ، وَبَدَتْ كأنَّها تتعارَكُ مَعَ بَعْضِهَا..

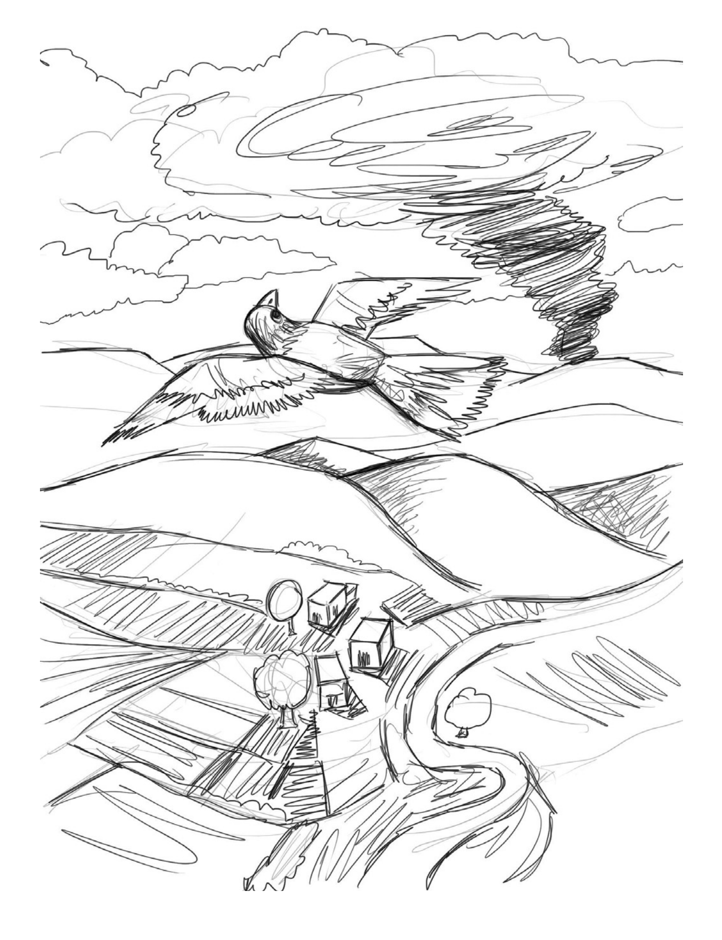
مَـرَّتْ ثوانٍ معدوداتٌ.. ثُمَّ سمعَ الناسُ من

بعيدٍ صيحةً هائلةً قَذَفَتْ بالصيَّادِ لعشراتِ الأمتارِ خـارجَ القـصرِ، وَسَـقَطَ فـوقَ كَـوْمَةٍ مِـنَ القشِّ فَأصِـيبَ بِرُضُـوضٍ بَـسِيطَةٍ، ولـولَا كومَةُ القَشِّ لَتَكَـسَّرَتْ عِظامُـــهُ فـيمَا لَـوْ سَـقَطَ عَـلَى إحْـدَى الصخورِ المتناثِرَةِ فِي كلِّ مكانٍ..

لكـنَّ مـا حَـدَثَ لم يُـثْنِ الـصَّيَّادَ المغامرَ عنْ تكرارِ المُحَاوَلَةِ..

* * *

المشهدُ الثالثَ عشرَ



استعادَ عافِيَتَهُ فَتَوَجَّهَ نحوَ القصرِ مَرَّةً أُخْرَى دونَ أن تَـمْـنَعَهُ تجاربُـهُ الـسابقةُ، حمـلَ مَعَـهُ هذِهِ الـمـرَّة شبكةً كبيرةً، وَكِيسًا ضَخْمًا على أنْ لا يَعودَ إلّا وقـدِ انتصرَ على ذلكَ الطائِرِ، ومضى فِي طريقِهِ وكأَنَّهُ ذاهِبٌ إلى حَرْبٍ ضَرَوسٍ..

عِـندَما اقـتربَ لَمْ يـدخلْ مـنْ بـابِ القـصرِ الرئيس الذي دخلَ منهُ المرَّةَ السَّابِقَة..

تَـوَجَّهَ إلى الناحيةِ الخلفيَّةِ منَ القَصْرِ، وألقى بحـبلٍ طـويلٍ في رأسِـهِ حديـدةٌ عَلِقَـتْ فِي حافَّـةِ إحْـدَى الغُـرَفِ فِي الـدَّوْرِ الأوَّلِ، تَـسَلَّقَ الـرَّجُلُ الحَـبْلَ بِمَهَـارَةٍ بالغـةٍ ثـم دخـلَ الغرفةَ وَاخْتَفَى.

وكـان أهـلُ القريةِ يتابعونَ ما يحدثُ بعدَما تركوا بـيوتَــهم وحقـولَـهم وأشـغـالَـهُمْ لِيُشَاهِدُوا ما سَيَحْدُثُ.

لم يـسمعِ الـناسُ أصـواتًا مـرعبةً مـثل المرَّةِ الماضـيَةِ.. ولم يـسمعوا صـيحةً هائلـةً.. بـل كـان القصر هادئًا على غيرِ عادَتِه..

مـضتْ دقائِقُ طويلةٌ وكأنَّها ساعاتٌ.. دون أن يـنطلقَ صـوتٌ واحـدٌ.. ولحظاتُ الانتظارِ تمرُّ بهـدوءٍ مثلَ السُّلَحْفَاةِ، وتشتدُّ بُطْئًا عندما يترقبُ الإنـسانُ أمْرًا هامًّا ينتظرُه بِشَغَفٍ.. وفجأةً عادتِ الأصـواتُ الْـمُرْعِبَةُ تنبعثُ من داخِلِ القصرِ مثل سَـابِقِ عَهْـدِها.. ظـنَّ الـناسُ أنَّ الطائرَ قَضَى على الـصَّيَّادِ، فحزنوا عليه كثيرًا، وأثْنَوْا على شَجَاعَتِهِ، لكـنَّهُمْ فِي المقابـلِ لم يكونُوا موافِقِينَ على ما فَعَلَهُ،

وذكروا أَنَّهُمْ نصحوهُ بعدَمِ الاقترابِ منَ القَصْرِ..

وَفِي الصَّبَاحِ التّالي.. وكانَ صباحًا مُشْمِسًا جميلًا.. وفيما كان الناسُ يقصدونَ حُقولَهُمْ وأعمالَهُمْ، وَهُم يَتَرَحَّمُونَ عَلى الرَّجُلِ الصَّيَّادِ معتقدينَ بوفاتِهِ.. فوجئوا بظهورِ الصيَّادِ نفسِه، وكان يرتدي ثيابًا قديمةً جدًّا لكنَّها أنيقةٌ وثمينةٌ.. أصابتهمُ الدهشةُ، لكن الصياد هدَّأ مِنْ رَوْعِهِمْ.. أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لم يَمُتْ ولمْ يُصَبْ بأيّ أذى.. غيرَ أنهُ اكتشفَ شيئًا عجيبًا، وهو أنَّ ذلك الطائرَ الذي كانوا يخافونَ منه طائرٌ رائعٌ، لطيفٌ جدًّا، لكنَّهُ هو أيضًا يخافُ مِنَ الناسِ، يعتقد أنهم سوفَ يُؤْذُونَهُ، لذا فإنه يسكن القصر منذ زمان بعيدٍ ويخشى الاقتراب من الناسِ خوفًا على نفسه من الهلاك بعد أن رآهُمْ يصطادونَ الكثيرَ منَ الطيورِ لِيأكُلُوها..

وقالَ الصياد:

"إنَّ الطائـرَ لـيسَ بـالحجمِ الكبـيرِ كـما تعـتقدونَ، هـو طائـرٌ عاديٌّ، يشبهُ البَطَّةَ السَّمِينَةَ، ويـصيحُ باسـتمرارٍ، لكـنَّ صَـوْتَهُ لَيْسَ مُخيفًا، بل المخـيفُ هُـوَ الـصَّدَى الـذي ينـبعثُ مـن القصرِ الكبيرِ الذي يجعلُ الصوتَ بهذِهِ الضَّخَامَة".

وَأَضَافَ:

"وَلا يعنِي ذلكَ أنَّه ليسَ قويًّا بما فيه الكفاية ليقـضيَ على مجموعة أشخاص دفعةً واحدةً، لكنهُ مـع كـل تلـك القـوة التِـي يملكُهَا، هو من أجمل الطـيور وأكثرهِمْ لطفًا ودلالًا.. والجميلُ من كلِّ ذلـكَ أنَّـه يحـبُّ قريتكمْ مِثْلُكُمْ تمامًا، وكان عندما يخـرج محلِّقًـا يحـضر لكم الكثيرَ من البذورِ لأنواع

كثـيرةٍ من الأشجارِ والنباتاتِ والزهورِ ثم يرميها علـى الـتلالِ والـوديانِ مـن حولِكُمْ، مِمَّا وَفَّرَ لكُم الكثيرَ من الأعنابِ والثمارِ المختلفة"..

وقال:

"لَقَـدْ أَخـبرنِي بلُغَتِهِ، وَأنَا أفهمُ لغةَ الطُّيورِ؛ أنه يُحِبُّكُمْ.. لكنه يخافُ أن تقتلوهُ كما تفعلونَ عادةً بالطـيورِ لـتأكلُوها.. وهـوَ يـريدُ مـنكمْ عَهْدًا أن تحافِظـوا عـلى الطـيورِ، وسوفَ يساعدُكُمْ بزراعَةِ أرْضِـكُمْ، وينثرُ لكم البذورَ الطيبة في دقائقَ وهيَ تأخـذُ مـنكمْ سـاعاتٍ لِكُـلِّ حقـلٍ.. كما أن لديه مجموعةً من الأصدقاء الطيور تعيشُ داخلَ القصرِ لـديها خـبرةٌ طـويلةٌ بالـزراعَةِ، سـوف تجعـلُ من بـساتينِكم عامـرةً بالخيراتِ على مدارِ العامِ، لا فِي المواسِمِ فَقَطْ"..

فـرحَ الـناسَ فـرحًا عظـيماً بـما قالَهُ الصَّيَّادُ، وتعاهَـدَوا مـنذُ ذلـكَ الحـينِ مـعَ الطائِـرِ الخُرَافِيِّ العجـيبِ عَـلَى احـترام عـالمِ الطُّـيورِ، وعـدم اصطيادِها.. فهي الطبيعةُ الجميلةُ التي تتعاونَ معَ بعضِها، من مخلوقات خلقها الله تعالى لتستفيد من بعـضها بعضًا، فلا يسيءُ الواحد منها للآخر، ولا يعـتدي لأن الله لا يحب المعتدين، فيتعامل مع كلِّ شيء من حوله بقدرٍ وبحسابٍ وبوعيٍ وإيمانٍ..

ومنذُ ذلكَ الوقتِ أصبحَ الناسُ أصدقاءَ مَعَ الطائـرِ العَجـيبِ، كـما أنَّ الـصيادَ لم يَـأْسرِ الطـيرَ الجمـيلَ رغمَ حِرْصِهِ على ذلكَ، بَلْ تَرَكَهُ لأهـميتِهِ بالنـسبةِ لـسكانِ القـريَةِ، وكانَ يعينُهُمْ على زراعة الأرضِ ورعايــتِها.. كــما كــان يُحَــذِّرُهُمْ مــن العواصِفِ قبلَ وصولِها بعد أن يشاهِدَها من بعيدٍ وهو يحلِّقُ في الفضاءِ..

وَظَلَّ هـذا الطائـرُ يـنعمُ بالحـياةِ بينَ أناسٍ يُحِبُّهم ويحبُّونَهُ زمنًا طويلًا.. حتى حَانَ أَجَلُهُ.. ودُفِـنَ في ناحيةٍ من نواحِي القصرِ ضاعَتْ مَعالِمُهَا مَـعَ مـضيِّ العقـودِ والقـرونِ.. ولم يـبق من أثر له سوى هذه القصة الغريبة..

وكان الناسُ يردِّدونَ:

"ومنْ يَدْرِي.. ربما هذه الأشجارُ التي نأكلُ ثمارَها اليومَ هي شجرةٌ زَرَعَها الطائرُ العَجِيبُ"..

لكنَّ الشابَّ "يتيماً" لم يكنْ يصدِّقُ تفاصيلَ حكايةِ الطائرِ الخُرَافِيِّ العجيبِ.. يعتقدُ أنها أسطورَةٌ مثلُ كلِّ الأساطيرِ التي يَتَوَهَّمُ البعضُ حقيقتَهَا، مع أنهمْ رُبَّمَا لا يؤمنونَ بتفاصيلِها لأنها فوقَ الخيالِ.. بينمَا يعتقدُ البعض الآخرُ أنَّ الخيال

هــو الأبقــى والأجملُ منَ الواقعِ، بلْ إنَّهُ هو الذي يـسبقُ الواقِـعَ، ثـم يجعلُـهُ حقيقةً في المستقبلِ، فيما يفـضِّلُ الـبعضُ العـيشَ فِي الخَـيَالِ على العيشِ فِي الواقِعِ..

كم جميلٌ هو الخيالُ عندمَا نَحْيَاهُ في الواقِعِ.. وكم مِنْ أشياءَ جَمِيلَةٍ كانتْ في البدايَةِ خَيَالًا..

إنَّ الارتباطَ بينَ الواقِعِ والخيالِ مثل اللُّحْمَةِ فِي خـيوطِ النَّـسْجِ العَرْضيَّةِ التي يُلحَمُ بِهَا السَّدَى في الثوبِ الجميلِ.. وفي اجتماعهما يحدث ما يتمناهُ الإنـسانُ مـن إبـداعٍ وانطـلاقٍ نحـوَ الجمـالِ.. فَتَـتَحَقَّقُ الـنَّجاحَاتُ التِي لَمْ تكنْ لِتَتَأَتَّى يومًا لَوْلَا الخيال.. والأحلَام.

* * *

الـمشهدُ الرابـعَ عشرَ



مِــنَ القــصص الغــريبَةِ الّتِــي رَوَتْهَــا الْجَــدَّةُ لِحَفِيدِهَا "يتيم" أيضًا أنه عاشَ في زمانٍ بعيدٍ، وفي القصرِ نفسِهِ، أميرٌ يافِعٌ مَعَ جَدِّهِ الملكِ..

كــانَ الملــكَ يَحْجُبُ حَفِيدَهُ الْوَحِيدَ عَنْ عَامَّةِ الناسِ، يخافُ عليهِ من كُلِّ شيءٍ..

تــوفِّيَ والــداهُ وهــو طفــلٌ صَغِيرٌ، ونشأَ يتيمًا وحــيدًا مــثلَهُ، ولمْ يكــنْ لجِــدِّهِ الملكِ ابْنٌ أو حفيدٌ غــيرُه، فقــد كــان لــه وَلَدٌ واحدٌ وهو والدُ حفيدِهِ الوحــيدِ، وقــد تُــوُفِّيَ ابْــنُهُ مَعَ زَوْجِهِ وَهُمَا يقومانِ بــرحلةٍ جَبَلِيَّةٍ، حينَ وقعتْ مَرْكَبَتُهُمَــا التِي كانتْ تَجُــرُّهَا خُــيُولٌ مِــنْ فــوقِ أعالِي الجبالِ وَتُوفِّيَا عَلَى الْفَوْرِ..

اهـتمَّ بِهِ جَدُّهُ وَرَعَاهُ منذ الصِّغَرِ، وعامَلَهُ بِمَا يَلِـيقُ بوريثِ عَرَشٍ، وراحَ يُعِدُّهُ ويؤَهِّلُهُ لاستلامِ المُلكِ من بَعْدِهِ، ويحضرُ لَهُ مُدَرِّسِينَ كبارًا يعلمونَهُ كـلَّ مـا يجـبُ أن يتعلَّمَهُ الملكُ منْ علومٍ ولُغاتٍ، وأحـضرَ لَـهُ فرسـانًا أشـداءَ يدربـونَهُ على الحَرْبِ والنِّزْالِ..

وكانَـتْ جَـدَّةُ "يتـيمٍ" تحكِي له هذه القِصَّةَ حتى تُخَفِّفَ عنه مَا كانَ يشعُرُ بِهِ مِنْ يُتْمٍ..

وكانَ "يتيمٌ" يحبُّ هذه القصَّةَ لِـمَـا فِيهَا مِنْ جُرْأَةٍ وبطولةٍ وإقدامٍ..

وكانت الجَدَّة تتابعُ قَصَّتَهَا بالقولِ:

"إنَّ الملكَ كان يخافُ على حَفِيدِهِ الصَّغيرِ من أنْ يتعرَّضَ لِسُوءٍ، فأَمَرَهُ بألَّا يخرجَ من القصرِ دونَ

إِذْنِهِ وألَّا يتحركَ دونَ حراسةٍ مُشَدَّدَةٍ".

لَمْ يكـنْ للأميرِ الشابِّ أصدقاء، فكانَ يَقْضِي يَوْمَهُ فِي القَصْرِ، والحرسُ لا يتركونَهُ لحظةً واحدةً، وَحَتَّـى مُدَرِّسـوهِ وَمُدَرِّبوه لا يتحدثونَ معهُ كلمةً واحـدةً خـارجَ حـدودِ مـا هم مكلَّفُونَ بِهِ.. لكنَّ الأمـيرَ الـصغيرَ سَـئِمَ منْ هَذِهِ الحياةِ.. فقد أصبحَ شـابًّا يافِعًـا، يحبُّ الحُرِّيَّةَ ويريدُ الخروجَ إلى الناسِ والتعرُّفَ إلى كثيرٍ منَ الأصدقاءِ..

طلـبَ مِـنْ جَـدِّهِ الملـكِ مِـرَارًا الـسَّماحَ لَـهُ بالخروجِ والتَّنَزُّهِ في أَمْكَنَةٍ قريبةٍ منَ القَصْرِ يرتادُها الـرَّعِيَّةُ، فلـمْ يوافِقِ الملكُ، ولمْ يقبلْ بالأمْرِ.. لكنَّ حَفِـيدَهُ كانَ مُصِرًّا، وصارَ يَرْجُوهُ، فَرَقَّ قلبُ جَدِّهِ ونهـاهُ عـن ذلـك لأنَّ أبـناءَ الملوكِ يجبُ أن تكونَ نُفُوسُـهُمْ مليـئةً بالعِـزَّةِ والكـبرياءِ.. وَوَافَـقَ على

خُـرُوجِهِ بِـصُحْبَةِ الحـرسِ شَرْطَ العَوْدَةِ مُسرِعًا.. وطلبَ من كبيرِ الحَرَسِ أن يَعْتَنِيَ بحفيدِه ويحرُسَه كَمَلِكٍ..

وَهَكَذا خَرَجَ الأميرُ الصغيرُ لأولِ مَرَّةٍ بعيدًا عـنِ القـصرِ، وكـانَ بـرفقتِهِ مِنَ الحَرَسِ الأَشِدَّاءِ، يحيطونَ بهِ بِهَيْبَةٍ وإجْلالٍ..

ســارَ الأمـيرُ الشابُّ علَى قَدَمَيْهِ حَتَّى وصلَ إلى ســاحَةٍ قـريبةٍ من القصرِ مليئةٍ بالْبَاعَةِ والمحالِّ والتُّجَّارِ والزَّبَائِنِ..

عـندمَا رأَى الـناسُ الأمـيرَ وَحَرَسَه ابتعدُوا عـنْ طـريقِهِمْ وفَـضَّلَ كثـيرٌ مِـنْهُمْ تَـرْكَ المكانِ.. فـوجدَ الأمـيرُ نَفْـسَهُ وحـيدًا مـعَ الحرسِ وبعضِ الـباعَةِ والـتُّجارِ الـذين كانـوا يجلـسونَ داخــلَ محَلّاتِهِمْ.

حـزنَ الأميرُ الشابُّ، فَهُو لا يستطيعُ التَّكَلُّمَ حَتَّـى مـعَ الـناسِ الذين ظَلّوا في المكانِ مضطرينَ حِرْصًا عَلَى بَضائِعِهمْ وأمْوَالِهِمْ..

شَـعَرَ أنَّهُـمْ يخشونَ الـتحدُّثَ إلـيهِ، كما أنَّ الحرَس يبعدونَ الناسَ عَنْ طريقِهِ، وَحَتَّى الْحَرَسُ أَنْفُـسُهُمْ ممـنوعونَ مِـن الكـلامِ مَعَـهُ لغـيرِ سَبَبٍ ضَرُورِيٍّ.. فَقَرَّرَ العودةَ إلى القصرِ فَوْرًا..

رَوَى الأمـيرُ لِجَـدِّهِ الملـكِ ما حَدَثَ، وَسَأَلَهُ عنْ سَبَبِ ابتعادِ الناسِ عَنْهُ..

فقالَ لَهُ الملكُ بهدوءٍ وَثِقَةٍ:

"لا سـبيلَ لغـيرِ ذلـك يـا بُنَـيَّ، فأنـتَ مـن سَـيَرِثُنِي ويقـودُ الـبلادَ مِـنْ بعـدِي، هُمْ يهابونَكَ لأنَّكَ السَّيِّدُ المطاعُ، وَأنا أَخْشَى عليكَ أنْ يُصِيبَكَ سُوءٌ".

لكـنَّ الأمـيرَ الصغيرَ لَمْ يَسُرَّهُ هَذا الجوابُ.. فَهُوَ يريدُ الاقترابَ منَ الناسِ أكْثَر...

بَعْـدَ أيَّـام، طلـبَ الأميرُ منْ جَدِّهِ مِنْ جَديدٍ السَّماحَ لَهُ بالخروجِ للتنزُّهِ مرَّةً أُخْرَى.. بعدَ أنْ قَرَّرَ القيامَ بِخِدْعَةٍ تقربُهُ مِنَ النَّاسِ..

قَـرَّرَ أنْ يَلْبسَ ثيابًا بَسِيطة لَا تُوحِي أبدًا بأنَّهُ أمـيرٌ مِـنْ أمْـرَاءِ ذلكَ الزمانِ، بَلْ هِي ثِيابٌ تجعلُهُ يبدُو وكأنَّهُ منْ فُقَرَاءِ الرَّعِيَّةِ..

لَكِنْ مِنْ أينَ يَحْصُلُ عَلَى مثلِ هَذِهِ الثِّيَابِ؟

❊ ❊ ❊

المشهدُ الخامسَ عشرَ



فَكَّرَ بالأمْرِ ولَمَعَتْ فِي رأسِهِ فكرَةٌ..

الأمْرُ بَسِيطٌ..

يمكـنُ الحـصولُ على هذِهِ الثيابِ منْ داخلِ القَصْرِ نَفْسِهِ، وَهِيَ لصَبِيٍّ يافعٍ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، يعملُ مُزَارِعًا فِي الْحَدِيقَةِ..

عـندمَا حـضرَ الـصَّبِيُّ في مَوْعِدِهِ الثابتِ كلَّ يَـوْمٍ؛ تحـدَّثَ إليهِ الأميرُ خِلْسَةً دونَ أنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، وأَغْرَاهُ بِبَعْضِ النقودِ مقابلَ أنْ يعيرَهُ ثيابَهُ الرَّثَّةَ.

أعطـاهُ الـصَّبِيُّ ثِيَابَهُ هَذِهِ التِي يأتِي بِهَا يَوْمِيًّا، وَارْتَدَى ثيابَ الْعَمَلِ الَّتِي تُوجَدُ فِي حديقةِ القَصْرِ

علـى أنْ يعـيدَ إلـيهِ ثيابَهُ قبلَ انتهاءِ عَمَلِهِ لِيَعُودُ إلى بَيْتِهِ..

أَخَـذَ الأمـيرُ ثـيابَ الـصبيِّ إلى غُرْفَتِهِ، وبدأَ يعدُّ لِلْمَرْحَلَةِ الثانيةِ من الخطَّةِ.

ارتـدَى الأميرُ الصغيرُ ثيابَ المزارِعِ البسيطةَ وَوَضَـعَ فَـوْقَهَا عَـبَاءَتَهُ الملكـيَّةَ الفاخِـرَةَ، وَغَطَّى رَأْسَـهُ بِعِمَامَـتِهِ الـمُزَرْكَـشَةِ الْمُرَصَّـعَةِ بالأحْجَـارِ الكَـرِيمَةِ، ثـمَّ خَـرَجَ بِـصُحْبَةِ الْحَـرَسِ مِـثْلَ المُرَّةِ المَاضِيَةِ..

سارَ الأميرُ بهدوءٍ يتأملُ وَاجهاتِ الْمَحَالِّ..

تَـصَرَّفَ الـناسَ مـثلَ المُـرَّةِ المَاضِيَةِ دونَ أنْ يبديَ الأميرُ أيَّ اسْتِغْرَابٍ..

وَقَـفَ أمـامَ وَاجِهَـةِ مَحَـلٍّ للملابـسِ وَأَمَـرَ

الحـرسَ بانـتظارِهِ لأنَّـهُ يـريدُ أنْ يـشتريَ من هذا المحلِّ بعضَ الأشياءِ.. فَأَسْرَعَ الحَرَسُ وَسَبقُوهُ إلى داخِلِ المحلِّ للتأكُّدِ مِنْ عَدَمِ وجودِ أيِّ خَطَرٍ..

وَعِـنْدَمَا دخلَ كانَ صاحِبُ الْـمَحلِّ مُرْتَبِكًا وَخَائِفاً..

طلبَ الأميرُ مِن الحرسِ الخروجَ حتى ينتهيَ مـنَ الـشراءِ، لكـنَّهُمْ لَمْ يُوَافِقُوا على الأمْرِ إلَّا بعدَ إصْرَارٍ مِنْهُ..

راحَ يـدورُ فِـي المحـلِّ متفحِّـصًا البـضائعَ المعروضَـةَ، وانتهـزَ فرصـةَ وقوفِهِ فِي زاويةٍ لا يَرَاهُ مـنهَا صـاحبُ المَحَـلِّ وأسرعَ بخلـعِ الْعَـبَاءَةِ وَالعمَامَـةِ، فظهـرَ بشكلٍ مختلفٍ تمامًا، وعندما رآهُ

صاحبُ المحل فُوجئ بِهِ وطلب منه بصوتٍ هامسٍ الخروجَ فَوْرًا.

سأله عن السبب فقال بصوت يرتجف:

"إن الأمير الصغير حفيدُ الملكِ موجودٌ فِي الْمَحَلِّ"..

فقالَ لَهُ:

"وَمَاذا فِي ذلكَ؟".

قالَ: "سَيَقْتُلُونَني أَنَا وَأَنْتَ، أَلَا تَفْهَمُ؟ أَلَسْتَ مِنْ هَذِهِ البلادِ.. هَيَّا اخْرُجْ مِنْ هُنَا فَوْرًا"..

كانَ الأميرُ يفكّرُ بأنْ يخرجَ مِنَ المحلِّ بثِيابِ العامِلِ ليَتَخَلَّصَ مِنَ الحرسِ ويحتكَّ بالنّاسِ مُباشَرَةً.

لَكِـنَّهُ بعـدَ أن سـمعَ هـذا الكلامَ عدلَ عن خُطَّـتِهِ وأسرَعَ بلـبسِ العـباءَةِ ووضَـعَ العِمَامَـةَ، فَأُصِـيبَ الـرجلُ بدهـشةٍ وانعقـدَ لـسانُهُ وأصابَهُ رعـبٌ شـديدٌ، لكنَّ الأميرَ هَدَّأَ مِنْ رَوْعِهِ وطلبَ منهُ عدمَ الخوفِ، لأنَّ الأمْرَ لا يستدعِي ذلِكَ..

طلـبَ الأمـيرُ مِنَ الرَّجُلِ أنْ يشرحَ لَهُ سببَ هـروبِ الناسِ وَخَوْفِهِمْ مِنْهُ.. لكنَّ الرجلَ رفضَ أنْ يتكلمَ، فَقَدْ كانَ خَائِفًا.

الأمـيرُ الشابُّ حَدَّثَهُ بتواضُعٍ واحترامٍ حتى اطمـأنَّ إلـيهِ الـرَّجُلُ، وَأَدْرَكَ بفِطْنَـتِهِ وَخـبْرَتِهِ وَبِحُكْمِ تَقَدُّمِهِ بالسِّنِّ أنَّ الأميرَ شابٌّ طيِّبٌ لطيفٌ ولـيسَ مِـثْلَ جَـدِّه قـاسِي القلـبِ.. كما يظنُّ سائرُ الناسِ..

لكنهُ لَمْ يُحَدِّثْهُ عَنْ قَسْوَةِ جَدِّهِ، وقالَ لَهُ:

"الناسُ يخشونَ الحاكمَ لشدَّتِهِ وحَزْمِهِ، لكنَّهُ لَمْ يكنْ كذلكَ قبلَ أنْ يموتَ ابْنُهُ، فَمُنْذُ ذلكَ الحينِ أصبحَ لا يسمحُ لِلرَّعِيَّةِ بالاقترابِ مِنْهُ، وصارَ مُنْعَزِلًا عنِ الناسِ وَحَرَسُهُ يعاملونَ الناسَ بِقَسْوَةٍ شديدةٍ"..

لكنَّ الأميرَ الشابَّ لم يقتنعْ بِهَذا الكلامِ، وَلَمْ يُرِدْ إطالَةَ الحديثِ كَيْلَا يثيرَ ريبةَ الْحَرَسِ، فاشترَى بعضَ الثيابِ وأعْطَى لِلرَّجُلِ صُرَّةً مليئةً بالنقودِ، وقالَ لَهُ قبلَ أنْ يغادرَ:

"سَأعودُ إليكَ مَرَّةً ثانيةً.. وأرجُو عِنْدَهَا أنْ تُحدِّثَنِي دونَ خوفٍ"..

* * *

المشهدُ السادسَ عشرَ



بعدَ أيَّامٍ.. قَرَّرَ الأميرُ الخروجَ وَحْدَهُ..

لكنْ كَيْفَ السبيلُ إلى ذلكَ والحرسُ يحيطونَ بِهِ طوالَ الوَقْتِ؟

فَاهْتَدَى الأميرُ الصغيرُ إلى خِدْعَةٍ جديدةٍ..

انتظرَ حَتَّى أنْهَى عاملُ الحديقةِ الصَّبِيُّ اليافِعُ عَمَلَهُ، ونادَاهُ بإشارةٍ من يدِهِ، فاقتربَ الصبيُّ وهو يرتجفُ منَ الخوفِ.. قال لَهُ الأمِيرُ إنَّهُ يريدَ مِنْهُ أَمْرًا إنْ فَعَلَهُ سَيُكافِئُهُ عليهِ مكافأةً كبيرةً..

كانَتْ خطةُ الأميرِ أنْ يرتديَ الصَّبِيُّ العامِلُ ثيابَ الأميرِ وأن يَرْتَدِيَ الأميرُ ثيابَ العامِلِ،

ويـدخلُ العامـلُ غـرفَةَ الأمـيرِ بيـنما يخرجُ الأميرُ لابسًا ثياب الصَّبِيِّ، فلا يشَكُّ فِيهِ أحَدٌ..

خـافَ الـصَّبِيُّ.. مَـاذا لَـوِ اكتـشفَ أحَدُهُمْ ذلكَ؟

فَطَمْأَنَهُ بأَنَّهُ لا أَحَدَ يدخلُ غُرْفَتَهُ..

وطلـبَ مـنهُ أنْ يَبْقَـى فِـيهَا حتـى يعـودَ فِي الـصباحِ موعد دخولِهِ القصرَ.. فيستعيدُ كُلٌّ منهمَا شَخْصِيَّتَهُ..

وَنَجَحَـتِ الخطـةُ بِبَـسَاطَةٍ دونَ أنْ يلحـظَ الْحَـرَسُ ذلـك، فَقَـدْ كانَ الصبيانِ يافعينِ في سِنٍّ واحـدَةٍ وبنـيةٍ واحـدةٍ.. وَمَـنْ يعـتقدُ أنَّ الأمـيرَ سيتنكَّرُ فِي زِيِّ صَبِيٍّ فَلّاحٍ؟

تَـوَجَّهَ الأمـيرُ فـورَ خروجِهِ إلى ذلكَ الْمَحَلِّ

الـذِي التقَى فيهِ الرَّجُلَ مِنْ قبلُ.. وَمَا أن رآهُ حَتَّى كادَ يُغْمَى عَلَيْهِ مِنَ الخَوْفِ..

وَبَعْـدَ أنْ هـدأ الـرَّجُلُ قلـيلًا، شـعرَ بِمَدَى اهـتمامِ الـصبيِّ بِـهِ وحِرْصِهِ على سَلامَتِهِ وصِحَّتِهِ، ولم يكنْ في محَلِّهِ وَقْتَهُ أحَدٌ مِنَ الزَّبَائِنِ..

طلـبَ الأمـيرُ مِـنَ الـرَّجُلِ بعـدَ أنِ استعادَ عافِيَـتَهُ أنْ يُخْـبِرَهُ عَنْ سِرِّ خَوْفِ النَّاسِ مِنْهُ.. لكنَّ الرَّجُلَ رَفَضَ بإصْرَارٍ..

أدْرَكَ الـشابُّ أنَّ هـناكَ حاجزًا كبيرًا يفصلُ بـينَ الـشعبِ وَالْمَلِـكِ.. وَأنَّ علـيهِ أنْ يَكْتَـشِفَ السَّبَبَ...

قالَ لِلرَّجُلِ:

"سَـتُخْبِرُنِي حقـيقةَ الأمْرِ، وإلَّا سوفَ أخبرُ جَدِّي الملكَ أنَّكَ أَسَأْتَ مُعَامَلَتِي"..

فَصَارَ الرجلُ يرجوهُ ألَّا يفعلَ ذلكَ..

فَقَالَ:

"لَـنْ أُخْبِرَهُ إذا أخْبَرْتَنِي مَا هُو سَبَبُ خَوْفِ الناسِ مِنْ مَوْلايَ الملكِ؟".

عندَها قالَ الرجلُ:

"بـشرطِ أَلَّا تَغْـضَبَ مهـمَا قلـتُ وَسَـوف تُصَدِّقُنِي وَلَوْ كانَ كَلامِي غَرِيبًا بالنسبةِ لكَ؟"..

قال الأميرُ الصَّغِيرُ:

"أعِدُكَ بِذَلِكَ"..

فقالَ الرَّجُلُ غَاضِبًا يريدُ أنْ يخرجَ مِنْ دَاخِلِهِ أَلَـمًـا سكنَ قَلْبَهُ فترةً طويلةً منَ الزَّمَنِ:

"إنْ الملـكَ رَجُـلٌ ظالِمٌ.. يأخذُ أموالَ الناسِ بالـباطِلِ دونَ حَـقٍّ، وَمَـنْ يمتـنعْ عَنْ دفع نِصْفِ أرْبَاحِــهِ مــنَ الــتجارَةِ لِحَـرَسِ الملــكِ يُـضْرَبْ وَيُـسْجَنْ.. والحـرسُ يقومـونَ بإهانَتِـنا وضربِنا، ولذلكَ فنحنُ نَدْفَعُ عَلَى الفَوْرِ"..

ذُهِلَ الأميرُ الشابُّ مِنْ ذَلِكَ..

فَجَدُّهُ طَيِّبُ القلبِ ولا يمكنُ أنْ يفعلَ ذلكَ أبـدًا، وَطَلَـبَ مِـنَ الـرَّجُلِ دَلِيلًا عَلَى كلامِهِ وإلَّا سَوْفَ يعاقبُهُ بِنَفْسِهِ..

فَقالَ لَهُ:

"أَلَمْ تَقُـلْ لِي مـنذُ قليلٍ إنَّكَ لَنْ تَغْضَبَ مهمَا قلـتُ، وإنَّـكَ سَتُـصَدِّقُنِي، وقـد عَاهَدْتَنِـي عَـلَى ذلكَ؟".

اعْتَذَرَ الأمِيرُ الصغيرُ مِنَ الرَّجُلِ، وقالَ لَهُ:

"وَمَعَ ذلكَ أريدُ دليلًا على ما تَقُولُ".

فقالَ الرَّجُلُ:

"انتظرْ قليلًا يا سَيِّدِي.. اليومَ موعدُ دفعِ النقودِ.. وفي هذا الوقتِ عادةً يأتِي جنودُ الملكِ، وهم الآنَ يتنقَلونَ بَيْنَ التُّجَّارِ".

انتظرَ الأميرُ بعضَ الوقتِ.. ثم سمع حركةً وجَلَبَةً على مدخل المحلِّ، فأسرع للاختباءِ خلفَ بعض البضائعِ، عِنْدَها دخلتْ مجموعةٌ مِنْ جنودِ الملكِ وطلبُوا المالَ المعتادَ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ بدفعهِ فَوْرًا دونَ أنْ يَتَكلَّمَ..

استشاطَ الأميرُ غضبًا ولمْ يَسْتَطِعْ تمالكَ نَفْسِهِ، فخرجَ من مَخْبَئِهِ زاجِرًا الجنودَ الذينَ

فُوجئوا بالشابِّ دونَ أن يَعْلَمُوا مَنْ هُوَ.

صَارَ الأميرُ يصيحُ بِهِمْ:

"أرجعـوا الـنقودَ لِصَاحِبِهَا وإلَّا عَاقَبْتُكُمْ.. فَأَنا الأميرُ أيُّها اللُّصُوصُ".

وَكـانَ يظـنُّ أَنَّهُـمْ سَـيَهَابُونَهُ لأنَّهُمْ يفعلونَ ذلـكَ بغـيرِ عِلْمِ جَدِّهِ الملكِ.. لكنَّ الجنودَ انقضَّوا عَـلَى الأمـيرِ بعـدَ أنْ نَظَرُوا إلى هَيْئَتِهِ وثيابِهِ الرَّثَّةِ، وقَبَـضُوا علـيهِ ظـنًّا مِنْهُمْ أَنهُ مُجَرَّدُ شابٍّ مُتَهَوِّرٍ.. وعـندمَا شـاهدَ صاحِبُ الْـمَحَلِّ ما حَدَثَ.. وَقَعَ عَلَى الأرْضِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ فاقدًا وَعْيَهُ... وَأَخَذَ الْحَرَسُ الأميرَ مَعَهُمْ وَأَلْقُوْهُ فِي السِّجْنِ..

❊ ❊ ❊

المشهدُ السابعَ عشرَ



وَفِي هَـذِهِ الأثـناءِ.. أرادَ الملـكُ التَّحَدُّثَ إلى حَفِيدِهِ لأمْرٍ طارئ.. وَنَادِرًا ما يحدثُ ذلكَ..

فـذهبَ إلَـيْهِ فِي غُـرْفَتِه وَلَمْ يَكُـنْ يَذْهَبُ إلَى غُـرْفَتِهِ كثـيرًا، فَعَثَـرَ عَلَى المُزَارِعِ الصَّغيرِ فِي الغرفةِ مكانَـهُ، ودونَ تحقـيقٍ طـويلٍ أقـرَّ المـزارعُ بِفِعْلَتِهِ واعـترفَ لِلْمَلِـكِ بكـلِّ مَـا حَـدَثَ.. فأمَرَ الملكُ حُرَّاسَـهُ بِـسَجْنِ الْفَتَـى وبالـبَحْثِ عـنِ الأمـيرِ.. فأخـبرُوهُ بـأنَّ هـناكَ شابًّا يَدَّعِي أَنَّهُ الأميرُ، قَبَضَ علـيهِ بعـضُ الجـنودِ في الـسُّوقِ وَهُـوَ الآنَ فِي الـسِّجْنِ.. وَقَـدْ ظَـنُّوا أَنَّـهُ مجْنُونٌ أوْ مُـدَّعٍ مخادِعٍ ينتحلُ صفةَ الأمِيرِ، وَجَدُوهُ فِي السوقِ يرتدِي ثيابًا

رَثَّـةً بَالـيةً.. ولا يُوحِـي منظـرُهُ أبَدًا بِأَنَّهُ أميرٌ وَلَا حَتَّى خادِمُ أمِير..

فَأَمَرَ الملكُ بِإحْضَارِهِ إِلَيْهِ فَوْرًا.

وعـندمَا مَـثَلَ الأمـيرُ بـينَ يَـدَيْ جَدِّهِ الملكِ اسـتغربَ الملكُ أَشَدَّ الاستغرابِ مِنْ منظرِ الأميرِ عِـندمَا رَآهُ أمَامَـهُ عَـلَى هَيْئَتِهِ الرَّثَّةِ.. فطلبَ مِنْهُ أنْ يَذْهَبَ إِلَى غُرْفَتِهِ، وَأَنْ يُنَظِّفَ نَفْسَهُ وَيَرْتَدِيَ ثيابَ الأمراءِ ثمَّ يعودَ لِيشرحَ لَهُ مَا حَدَثَ.. لكنَّ الأميرَ أَصَرَّ عـلى أنْ يخـبرَ الملـكَ عَـن الأمرِ قبلَ أيِّ شَيْءٍ آخَـر، ويـشرَحَ لَهُ سَبَبَ هَذِهِ الحالِ.. وقالَ الأمِيرُ للملكِ إنَّهُ صُدِمَ ممَّا رآهُ بِنَفْسِهِ، وَأخْبَرَهُ أنَّهُ لا يقبلُ بأنْ يكونَ وَلِيًّا لِعَهْدِهِ ومَلِكًا مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنَّهُ سيتركَ القصرَ لِيَعِيشَ كَعَامَّةِ النَّاسِ..

الملـكُ أصيبَ بِحيرَةٍ بَالِغَةٍ، وأدركَ أنَّ الأمْرَ خَطيرٌ جِدًّا.. فَأَمَرَهُ بأنْ يخبرَهُ بِمَا رَآهُ فَوْرًا..

وَبَعْـدَ أنْ أَخْبَرَهُ بِمَا رَآهُ وَسَمِعَهُ بنفسِهِ؛ أقسمَ الملـكُ أنَّـهُ لا يَعْلَـمُ عَـنْ هَـذا الأمْـرِ شـيئًا، وَأنَّـه سَيُعَاقِبُ الفاعِلِينَ..

فَاسْـتَدْعَى الملـكُ بعـضَ حَرَسِـهِ المقـربينَ وَسَـأَلَهُمْ عَـنِ الأمْـرِ، وَعَلِـمَ أنَّ الأمْـرَ صَـحِيحٌ، فَـسَأَلَهُمْ لِمَـاذا لَمْ يخـبرُوهُ بـذلكَ، فقالُـوا لَهُ إنَّهُمْ فِي العـادَةِ مِنْ غَيرِ الـمَسْمُوحِ لَهُمُ الحديثُ مَعَ الملكِ، كَـمَا أنَّهُـمْ كانـوا يَخْـشَوْنَ الكـلامَ ظَنًّا مِنْهُمْ أنَّهُ هُوَ الَّـذِي يأمُـرُ الجـنودَ بذلكَ، لأنَّ وَزِيرَهُ الأوَّلَ كانَ يعرفُ الأمْرَ وَيَحْجُبُهُمْ عَنِ المَلِكِ..

غَـضِب الملكُ غَضَبًا شديدًا بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي

مَمْلَكَـتِهِ مِـنْ ظُلْـمٍ باسْـمِهِ، فاسْتَدْعَى وزيرَهُ وقائدَ الجُـنُودِ فَـوْرًا، كَـمَا دَعَا كبيرَ القُضَاةِ، وَأَمَرَ بإجراءِ تحقـيقٍ ومحاكمةٍ علنيةٍ عادلةٍ لمعاقبةِ المذنبينَ.. بَدْءًا بوزِيرِه الأوَّلِ وقائدِ الجنودِ..

وَمُـنْذُ ذلـكَ الـيوم قَـرَّرَ الملـكُ عَزْلَ الوزيرِ وَمُعَاقَبَـتَهُ، وأمَـرَ بـأنْ تُزَالَ كُلُّ الحواجِزِ بَيْنَهُ وبينَ الـشَّعْبِ، وأمـرَ بِفَـتْحِ أبوابِ القَصْرِ أمَامَ الرَّعِيَّةِ، يدخلـونَ إلَـيْهِ ويـتحدثونَ مَعَـهُ كُلَّمَـا أرَادُوا، كَمَا سـمحَ للأميرِ الشابِّ بأنْ يخرجَ وَيَلْتَقِيَ بالناسِ فِي أيِّ وقتٍ وَأيِّ مَكانٍ.

ثُـمَّ أَعـادَ الملـكُ المـالَ إلَى أَصْـحَابِهَا بَعْدَ أَنْ عَاقَـبَ الوزيـرَ وقائدَ الجنودِ الذينَ كانوا يأخذونَ مَالَ التُّجارِ عنوةً بِغيرِ حَقٍّ، وَأمَرَ بِحَبْسِهِمَا والحَجْزِ عَلَى كُلِّ أَمْوَالِهِمَا..

ومـنذُ ذلـكَ الـوقتِ أصـبحَ الأمـيرُ صديقًا لـصاحِبِ محَلِّ الثيابِ.. كـما أصـبحَ محبوبًا لَدَى الناسِ جميعًا.

وفِي يـومٍ، وفـيمَا كـانَ الأمـيرُ يجـولُ في الـسُّوقِ، شـاهَدَ فتاةً مؤدَّبَةً جدًّا، مَا أَنْ رَآهَا حَتَّى أُعْجِبَ بأخْلَاقِها وَأَدَبِهَا فسألَ عَنْ والدِها، فعرفَ أَنَّهُ صَاحِبُ المحلِّ نَفْسُهُ..

ذهـبَ الأمـيرُ إلَـيْهِ فِي محَلِّـهِ وطلـبَ منهُ أنْ يـزوِّجَهُ ابنتَهُ، فوافقَ الرجلُ بِشَرْطِ أَنْ يوافِقَ الملكُ عَلَى هذا الزَّوَاجِ لأَنَّهُ مِنْ عامَّةِ الناسِ.

وَبَعْدَ أنْ عرضَ الأميرُ عَلَى الملكِ الأمْرَ وَافَقَ عَـلَى الفـورِ، رَغْـمَ أنَّهُ مِنْ عَادَةِ الملوكِ أَلَّا يُزَوِّجُوا أولادَهُـمْ إلَّا بِبـنَاتِ مُلـوكٍ وَأمَـرَاءَ أوْ مِـنْ بناتِ أسْرَةٍ مَالِكَـةٍ.. فـنقضَ الملكُ هذِهِ القاعِدَةَ القديمةَ

وأعلـنَ موافقـتَهُ عـلى زواجِ حَفِيدِهِ بابْنَةِ صَاحِبِ المحلِّ..

وكـانَ الملـكُ يـريدُ أن يقـيمَ عُرْسًـا مَلَكِـيًّا عَظِـيمًا، غـير أنَّ الأمـيرَ الـصغيرَ طلـبَ أن يكونَ عُرْسًـا شَـعْبِيًّا يَجْرِي في إحْدَى السَّاحَاتِ الكبيرةِ، وأنْ يَحْضُرَهُ الملكُ بِنَفْسِهِ لِتَلَقِّي التَّهانِي منَ الشعبِ مـباشَرَةً، فوافـقَ الملـكُ عَـلى ذلـكَ بكـلِّ سَـعَادَةٍ وَرِضًى.. وكانَ يومًا بديعًا لم تشهد الممالكُ القديمة عرْسًا مثلَهُ.

وَكانَـتْ هَـذِهِ القِصَّةُ مِنْ أكثرِ القصصِ التي تـسرُّ الفَتَـى اليتـيمَ عِـنْدَمَا يَـسْمَعُها.. أَوْ عـندِمَا يَتَذَكَّـرُها حين يكونُ جالسًا بمفرَدِهِ يتأمَّلُ الطبيعةَ ويفكرُ فِي الحَيَاةِ..

* * *

المشهدُ الثامنَ عشرَ



اعـتادَ الفَتَـى "يتـيم" في اللَّيالِــي المقمِـرَةِ الجلـوسَ فِي قلـبِ شـجرةٍ باسِـقَةٍ قـربَ الـسُّورِ العالي.. يقضِي وَقْتَهُ فِي التفكيرِ..

الـشَّجَرَةُ تـرتفعُ فوقَ جِدارِ السُّورِ، وعندَما يَرْتَقِـي الفَتَـى أغْـصَانَهَا العالـيةَ يظهرُ لَهُ المنحدَرُ، فينـصتُ مُتَرَصِّـدًا صـوتًا غـريبًا يسمعه من فضاء الحـرية المترامِـي أمامَـهُ مـثل بحـر أخـضر ممـتد، وعـندما كـانَ يـشاهد طيرًا يحلِّقُ من بعيدٍ أوْ أرنبًا بَرِّيًّا يَعْدُو بَحْثًا عَنْ شيءٍ يأكُلُهُ، يَتَحَسَّرُ عَلَى سِجْنِهِ متمنـيًا الحـريَّةَ التـي يـنعمُ بِهَا ذلكَ الطيرُ أَوْ ذلكَ الأرْنَبُ..

وَلَمْ يكـنْ "يتـيم" يكـشفُ أفكارَهُ لأحَدٍ مِنَ النـاسِ، يَعْتَبِرُهـا أمورًا لا يمكنُ البَوْحُ بِهَا، كما أَنَّهُ لَمْ يكـنْ عِـنْدَهُ صـديقٌ مُـمَـيَّـزٌ مُقَـرَّبٌ منهُ، فَهُوَ لَمْ يَـذْهَبْ لِلْمَدْرَسَةِ، وتعلَّمَ القراءَةَ والكتابةَ فِي بيتِ جَدَّتِـهِ، وَلَمْ يكـنْ يَلْهُـو مَعَ الفتيانِ أمثالِهِ، بَلْ كانَ وَقْـتُهُ مُـوَزَّعًا بـين مـساعَدَةِ المحتاجينَ والجلوسِ متأمِّلًا فَوْقَ الشَّجَرَةِ..

وَمَضَتِ الأيامُ والليالي على هذِه الحالِ سنينَ عَدِيـدَةً.. حتـى أصـبحَ اليتـيمُ شابًّا يافعًا.. وكانَ كـبارُ الـسِّنِّ عِـنْدَمَا يقـومُ بمـساعدتِهِمْ بأمْـرٍ مَـا يـسألونَهُ عَنْ موعِدِ زَوَاجِهِ، لكنَّهُ كانَ دائمًا يَتَهَرَّبَ مِـنْ هـذا السؤالِ بِحُجَّةِ أَنَّهُ ما زالَ صَغِيرًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِدِ العروسَ المناسبَةَ لَهُ بَعْدُ..

هَـلِ العـروسُ هِـي الحكايـةُ الّتِـي تنـسجُ المستقبلَ..

كُلُّ الناسِ فِي القريةِ يبحثونَ عَنِ المستقبلِ فِي أبنائِهِمْ..

الـشُّيوخُ يَـزْرَعُونَ الْـوَرْدَ عَـلَى صَـفَحَاتِ المَاضِي..

الفتيانُ يملأونَ الشعابَ ضَجِيجًا وَحَيَاةً..

الـيَفَاعَةُ لَيْـسَتْ هُوِيَّةً.. بَلْ حَيَاةً لِلأَمَامِ.. لا يَسْكُنُ عِنْدَهُمُ المَاضِي بيتًا غير بيتٍ خَرِب..

عُيُونُهُمْ تَرْنُو برفقٍ لكلِّ حَيَاة جَدِيدَة..

وَرُغْـمَ مـتانَةِ الأَسْـوَارِ التـي كانَـتْ تُحِـيطُ بِقَـرْيَتِهِمْ.. فـإِنَّ قَـرْيَتَهُمْ تَتَّـسِعَ مَـعَ كُـلِّ مَوْلُـودٍ جَديدٍ..

وَمَع تَقدُّمِ "يتيمٍ" فِي عُمْرِهِ واشتدادِ قُوَّتِهِ، لَمْ يعـدُ الجلـوسُ فـترةً طـويلةً فوقَ الشَّجَرَةِ وَحْدَهَا يُرْضِيهِ وَيَكْفِي نُزُوعَهُ نَحْوَ الحُـرِّيَّةِ والانطلاقِ..

كـانَ يُـدَوِّنُ مُـشَاهَدَاتِهِ الجديـدةَ كُـلَّ يَـوْمٍ، وصـارَ وقتُ جلوسِهِ فوقَ الشَّجَرَةِ يزدادُ، وَلَمْ يَعُدْ يكتفِـي باللـيالي المُقْمِرَةِ، وصارَ يجلسُ فترَةً طويلةً مِنَ النهارِ، دون أن يتوقفَ عَنْ مساعَدَةِ الآخرينَ، وإذا وجـدَ هـناكَ مـنْ يُسَاعِدُهُمْ غَيْرُهُ انصرفَ إلى شَجَرَتِهِ المعتادَةِ..

وَمَـعَ مُـضِيِّ الأيامِ أَصْبَحَتْ لَدَيْهِ معلوماتٌ غزيـرَةٌ لَمْ يَقْرَأْهَا فِي كتابٍ وَلَمْ يُعَلِّمْهُ إيَّاهَا أَحدٌ، بَلْ عَرَفَهَا بِالْـمُشَاهَدَةِ وَالْـمُرَاقَبَةِ والتَّفَكُّرِ..

بَاتَــتْ مَعْــرِفَتُهُ واســعةً بأنــواعِ الطــيورِ وأشْـكَالِها، يعـرفُ مَوَاعِـيدَ وَصول كُلِّ طيرٍ مِنْهَا، فــي الـصَّيْفِ وَفِي الشتاءِ، فِي الرَّبيعِ وفِي الخريفِ، كـما تعرَّفَ إلَى أنواعِ الأشْجَارِ، وعددِها في المنطقةِ التــي تـشرفُ عَلَـيْهَا الـشَّجَرَةُ، وَرَسَــمَ خــريطةً لِلأَشْـجَارِ، وقـدَّرَ أعْمَارَهَـا، ومنحَ بعضَ الأشجارِ الَّتــي لا يُـوجَدُ مِـنْهَا فِي قَـرْيَتِهِ وَلا يَعْرِفُ اسْمَهَا، اسْمًا جميلًا يتوافَقُ مَعَ شَكْلِها..

فَهَذِهِ شجرةُ الغصونِ المُـلْتَفَّةِ..

وتلكَ الشجرةُ عروسٌ بِتَاجِهَا الأَخْضَرِ..

وَالشَّجَرَةُ الرَّشيقَةُ بقامَتِها الفارِعَةِ..

هُنَاكَ الشَّجَرَةُ السَّمِينَةُ الممتلئةُ السَّاقِ..

كَـمَا أطْلَقَ اسْمَ الشَّجَرَةِ المجنونَةِ عَلَى شَجَرَةٍ

عاليةٍ رفيعةِ الأغصانِ لا تَتَوَقَّفُ عَنِ الحركةِ سواءً مَـعَ وجـودِ الـريحِ أَمْ دُونهَـا.. وَهَـذا ما كانَ يثيرُ اسـتغرابَهُ فَسَمَّـاهَا بِالَمَجْنُونَةِ. لَكِنَّهُ اكتشفَ لاحقًا أنَّهـا تـأْوِي مجمـوعةً مـن الطيورِ الصغيرةِ الحَجْمِ بحَجْـمِ حَـبَّةِ الجَـوْزِ، تظـلُّ عَـلَى الـدوامِ تُحَـرِّكَ أَجْنِحَـتَهَا وتنتقلَ مِنْ غصنٍ إلى آخرَ دونَ تَوَقُّفٍ.. وقليلًا مَا تَهْدأ أوْ تَنَامُ.

وَكانَ "يتيم" يكتبُ كُلَّ هَذا فِي أَوْرَاقٍ كثيرةٍ متفـرِّقَةٍ، وعـندَما يـشعرُ بالـتَّعَبِ يعودُ إلى بَيْتِهِ فِي وقتٍ مُتَأَخِّرٍ منْ لَيْلٍ أوْ مِنْ نَهَارٍ، ثم ينقلُ تفاصيلَ ملاحظاتهِ الهامَّةِ إلى سِفْرٍ كبيرٍ، يخطُّ الحَرْفَ بشكلٍ جمـيلٍ، يرسـمُ مـا يحـتاجُ إلَى رَسْمٍ، ويضعَ مُخَطَّطًا لشكلٍ منَ الأشكالِ..

وَبَعْـدَ أنْ يَنْتَهِـيَ مـن ذلكَ يُغْلِقُ الكتابَ ثم يحملُـهُ ويُخفـيهِ في صـندوقٍ خـشبيٍّ قديمٍ، كانَتْ جَدَّتُهُ تُخَبِّئُ فِيهِ حَاجَاتِهَا الهامَّةِ..

تلكَ هِي خَطَواتُ الباحِثِ عَنْ أَمْرٍ لَا يَدْرِي كُنْهَهُ..

يَـسْعَى إِلَى ضَـوْءٍ فِي ظلمـةٍ تَشْتَدُّ إبهامًا يومًا بعدَ يومٍ..

يغـرقُ في بحـرٍ من الأفكارِ المَلْسَاءِ..منها ما هو مقعَّرٌ ومنْهَا ما هُوَ مُحَدَّبٌ..

يغـرفُ مِـنْ بَحْـرٍ مجْهُولٍ، بَحْرِ هَذا الْـمَدَى الـسَّاحِرِ.. بَحْرٍ مِنْ جَمَالٍ أخضرَ تارَةً.. ومنْ جمالٍ أبيضَ تارَةً أخْرَى..

فِي كُلِّ فُصُولِ العامِ تُزْهِرُ فِي قَلْبِهِ الْـحَكَايَا..

عيناهُ لا تـملَّانِ الانتظارَ.. ولا يعرف كيفَ يغـضُّ الطـرفَ عَـنْ حقـيقةٍ لا تُرَى بِالْعَيْنِ.. ولا تُسْمَعُ بالأذُنِ.. وَلَا تُدْرَكُ بِغَيْرِ القلبِ..

* * *

المشهدُ التاسعَ عشرَ



ظـلَّ الفَتَـى "يتـيم" عـلى هـذه الحـالِ زمنًا طَـويلًا.. عيـناهُ تجـولانِ بِـلَا انقطـاعٍ فِي الأُفُـقِ البعـيدِ.. لكـنَّ العُـبُورَ مستحيلٌ، فَـمَـا وراءَ هَذا المَـدِّ الأَخْـضَرِ مِـنْ أمَـلٍ.. كـيفَ يجـتازُ غابـاتٍ مَـسْكُونَةً بالوحوشِ.. فيستقرَّ البالُ ويهدأ الخاطِرُ وَيَهْـنأ الفكـرُ بـصَرْفِ الجَـرْي وَرَاءَ كُـلِّ هَـذِهِ الأَحْلَامِ.. أَوْ رُبَّـمَـا "الأَوْهَامِ".

تَـرَكَ الفَتَى ظِلَّهُ عَلَى الشَّجَرَةِ.. وعادَ يجوبُ القريَةَ بحثًا عَمَّنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ..

ومـضتْ أيّـامٌ وأيَّـامٌ وَالْفَتَـى مُنْـصَرِفٌ عَنْ نفسِهِ.. لا يشغلُها بغيرِ الأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ التِي تعيشُ

فِي هـذا المكـانِ، بأَنْفَاسِـها الْـعَطِـرَةِ.. وبفـضائها الــمليءِ بالأمَـلِ، وشَمْـسِهَا التـي تـشعلُ قلوبَ الحالمينَ أكثـرَ مـنَ القمـرِ، فالقمـرُ عِـنْدَهُمْ دليلُ سباتٍ.. والشمسُ دليلُ حَيَاةٍ.. وبقاءٍ.

مِـنْ كثـرةِ ما كانَ الفَتَى يحملُ متاعَ الآخرينَ لمسافاتٍ طـويلةٍ.. اشـتدَّ عُودُه، وبرزتْ عَضلاتُهُ فِي كـلِّ زَاوِيَـةٍ من زوايَا جِسْمِهِ الرَّشِيقِ.. فأرْخَت هـذه التـضاريسُ المـستجدَّةُ عـلى طُـولِهِ الفَـارِعِ واتِّـسَاعِ صَدْرِهِ المنتفخِ وشموخِ رأسِهِ المتكىءِ على منكبـينِ عريـضينِ بهامَـةٍ يكلِّلُهَـا كـبرياءُ الشبابِ وعـنفوانُ النـبلاءِ.. غلالـة مـن هيبةٍ باتَ يعرفُها الجميعُ..

لكـنَّهُ لم يكـنْ يعـبأ بِنَفْـسِهِ، ولا يطمحُ لكيْ

يَتَـسَيَّدَ مكانةً ما، أو يتبوَّأ مقامًا يحلُم به مَنْ فِي مثلِ سِنِّهِ..

لـيسَ المنـصبُ هو الذي يصنعُ صاحِبَهُ، بَلْ ربما العكسُ هو الصحيحُ.

وَمـا الظـنُّ بغـيرِ ذلـكَ سِـوَى جهلٍ بالحقِّ، وعجـزٍ عـن اكتـناهِ المعـرفَةِ التـي يغرفُ منْ نَبْعِها الباحـثونَ عـنِ الحَـقِّ في دُجْـَةِ اللـيلِ الحَالِكِ، أمَّا أولـئك المغامـرونَ الـضائعونَ في غاباتِ التيهِ فلا يدركـونَ بِـسُهُولَةِ مَا الَّذِي يَلْفَح وُجُوهَهُمْ.. أهِيَ نـارُ المـوقدِ؟ أمْ لهـبُ الـصَّيْفِ؟.. أمْ صـفعاتُ الحياةِ.. أم فَحِيحُ جَهَنَّم؟!

ولعـلَّ الخَطـأَ فِي الحكمِ على الأمورِ لا يَتَأَتَّى إِلَّا مِنْ خطأ التَّصَوُّرِ القائمِ نَفْسِهِ، فالوهْمُ لا يَرْقَى

بـصاحبِهِ، بَـلْ يقودُهُ إلى احتقارِ الناسِ لَهُ، أو على الأقـلِّ الـسُّخريَة مـنهُ ومـنْ أحلامِـهِ المـسكونَةِ بِالْخَـيَالِ.. والـنفسُ التي تَرْقَى بِمَعَالِيهَا لا تَسْكُنُ قصورَ الوَهْمِ ولا تَرْتَقِي مَنَابِرَ الْجَهْلِ.

وَمَـضَتِ الأيـامُ وبقـيَتِ الأحـلامُ العاجِزَةُ تقـيمُ في نفـسِ الفَتَـى المشغولِ عَنْ نَفْسِهِ، لكنَّهُ في نهاياتِ الليالي، عندمَا يحلُّ السكونُ وينفردُ بنفسِهِ، تقفـزُ الأحـلامُ أمَامَـهُ مِـنْ جَديـدٍ، وتعـودُ رغـبةُ الانطـلاقِ شـديدةً في أعمـاقِ نفـسِهِ، تـريدُ الانقـضاضَ عـلى الأسْـوَارِ تَقْضُمُها، لِتَتَحَرَّرَ مِن هَذا السِّجْنِ الكبيرِ.

حَتَّى جاءَ ذلكَ اليومُ..

حينـما اقـتربَ مـنهُ جارُ الطفولةِ وهوَ يجلسُ

فِي مكانِـهِ الـمُفَـضَّلِ.. وتحدَّثا طويلًا عنِ الأحلامِ والمستقبلِ..

وَكَـشَفَ "يتيمٌ" لجارِ الطفولةِ ما فِي قلبهِ منْ أحـلامٍ.. وكانَ هذا الشابُّ اليافِعُ يُشَارِكُهُ فِي كثيرٍ مـن الأحـيانِ مساعدةَ الآخرينَ.. فوافقهُ الصديقُ وأسرَّ لَهُ بِأَحْلَامٍ تشبِهُ مَا يَـحْلُمُ بِه..

لكـنْ لـيسَ كـلُّ مـا يَتَمَنَّـى الـمـرءُ يُدْرِكُهُ، والتَّمَنِّي يَعْتَرِيهِ فَشَلٌ لا يُصِيبُهُ تَمَنٍّ.. فالتماسُ ضوءٍ فِي عـتمةِ لـيلٍ لا يقـدّرُ صُـعوبَتَهُ غَـيْرُ مكابـدِ ليلٍ طـويلٍ فِي صـحراءَ مقفرةٍ، وَلولَا بضعُ نجيمـاتٍ حَيْرَى، فِي غيبَةِ قَمَرٍ، لاستحالَ الفضاءُ قَبْرًا، رُغْمَ مَـدَاهُ.. فـالأحْلامَ تـأْتِي وتـذهبُ.. وغالـبًا مـا

يـضمحلُّ أكثـرُها ويـزولُ مـع مـرور الأيام، لأن الأحـلامَ عـادةً مـا تـولدُ مِـنْ وَهْـمٍ، وتنهارُ على أعتابِ وَاقع..

قالَ "يتيم" لجارِه الشَّابِّ:

"أحلامي أمَامِي واسعةٌ وسعَ السماءِ.. كبيرةٌ مـثلُ البَحْـرِ.. شاسِـعَةٌ مثلُ فضاءٍ.. فكيفَ لواقعٍ مهـما كـانَ أنْ يـَحُـدَّ منْ أحلامِي؟! أن تمنع طائرًا مـن التحلـيق في سـماء لَا حـدودَ لها.. الحياةُ كلُّها مجمـوعة أحـلامٍ، وَهِـيَ عـندما تـتحقَّقُ في بعضِ جَوَانِـبِهَا، نـصرُّ عـلى أنَّـهَـا حلـمٌ، ونظـلُّ نحلـمُ ونحلـمُ ونحلـمُ، حتـى نظـنَّ الواقـعَ جـزءًا مـن الأحلام"..

وتأملَ قليلًا ثم تابعَ كلامَهُ قائلًا:

"عـشتُ دهـرًا أرسـمُ صـورًا مـن خيالات ملـوَّنةٍ لا تـنقطعُ.. تفاصـيلُ صنعتُها بيديَّ هاتينِ وأصـبحتْ خلـيلةَ ذاتِي.. أجَسِّدُ ما ليسَ من واقعٍ واقعًـا.. أعيـشُهُ وهمًـا.. عـادة يومـية.. عـشتها وحـدي.. لم أُخْـبِرْ بها أحدًا، لا لأنانيةٍ أو استئثارٍ، بلْ لأنها سِرِّي.. وهي.. بلْ بالأصحِّ حلمي الذي لا أوَدُّ أنْ يـشارِكَنِي فـيهِ أحـدٌ.. مهـما كـان قـريبًا مِنِّـي.. ولا أذكـرُ أنِّي حاولـتُ أنْ أعـيشَ مـثلَ غَيْرِي.. لَكِنْ...".

وسادتْ فترةُ صمتٍ مضتْ كَدَهْرٍ..

ثـم تنهَّدَ من أعماقِ نفسهِ وانزلقتِ الكلماتُ من فَمِهِ كحبَّاتِ عِنَبٍ بارِدَة:

"مـا أجمـلَ الأحـلامَ عندما تبقى فِي مخيلاتِنا وتعـودُ إلـيها.. مـع أنَّـنا نـتوهم أنّ الأحـلام لـو تحققت أو تحقق بعضٌ منها فإنّ حياتنا سوف تتغير وتتبدل وتتحسن..".

* * *

المشهدُ العشرونَ



استعادَ جارُ "يتيم" قصةً سمعَها قديمًا وهو صغير، لكنَّه لم يكنْ يتذكر تفاصيلها إلَّا هذه اللحظة، في لحظة قوة ورغبة بالانعتاقِ والحريَّةِ وعدم الاستسلامِ للواقِعِ مهمَا كان الواقع صعبًا وأليمًا.. لم يكن "يتيم" قد سمع هذه القصة من قبل..

تذكر جار "يتيم" قصة أميرة صغيرة مرت كما يقولونَ في هذا القصرِ القديمِ، وكانت سعيدةً في قصرِها الذي تزينُهُ الأشجارُ والأزهارُ، وتملأه الأطيارُ بأعذبِ الألحانِ..

الأمـيرةُ كانـتْ مثل كل أميراتِ الزمانِ ثَرِيَّةً جدًّا، وسريرُها مصنوع من مَرْمَرٍ وياقوتٍ..

كـلُّ ما لديها ثمينٌ.. وكل ما تملكه من أجود ما يمكن أن يكون..

كانـت تعيش في هذا القصرِ برفقةِ مُرَبِّيَتِها.. ويحرسُـها حـراس أشـداءُ أقـوياءُ.. لكنَّها لم تكن راضـيةً عـن حَـيَاتِها رغم كل هذا الرخاء والنعيم والثـرَاءِ.. تـشعرُ أنَّ القـصرَ سـجنٌ.. قـيودٌ.. حواجـزُ.. أشـياء تحجبها عن الناس.. عنْ أقرانِها البناتِ.. والقصر بعيدٌ.. فوقَ ربوةٍ عاليةٍ نائيةٍ.. لا يمكـن الوصـول إلـيه إلّا بـإذنٍ شخصيٍّ من أبيها الحاكم.

قَضَتِ الأميرةُ في هذا القصر معظم حياتها..

بعـيدةً عــن الجميعِ، وحتى عَنْ أمِّها التي لا تراها إلّا في مناسـباتٍ متباعدَةٍ. أبوها الحاكم كان يخافُ على ابنتهِ من الشعبِ.. بسبب ظلمِهِ وبطشِه.

هُوَ يعلمُ أنَّهُمْ يكرهُونَهُ، لذلكَ فَهُوَ يخشَى أنْ يَنْـتَقِمُوا مـنهُ بقـتلِ ابنـتهِ، كـما يخـشَى أن تنكشفَ صــورتُهُ الحقيقـيةُ أمَامَهـا، فهي تظنُّهُ حاكمًا عادلاً نـزيهًا.. يحـبُّ شـعبَهُ، وشعبُهُ يحبُّه.. وهي تظنُّ أنَّهُ طَـيِّبُ القلـبِ، لم تظـنَّ يـومًا أن وجه أبيها الهادئ الوقـور لـيس سـوى قـناعٍ رقيقٍ لوجهٍ آخرَ يعرفه الناسُ كلُّهم.. ويخفى عليهَا وَحْدَها.

وكـان أبُوها لا يريد أن تعرفَ ابنتهُ أسْرَارَهُ، أن تَـرَى مـا يفعلُــهُ بالـشعبِ مـن ظُلْمٍ وجورٍ.. أبعـدَها عن مقرِّ حكمِهِ وأسكنَهَا في جناحٍ معزولٍ مـن أجـنحةِ القـصرِ، ووفَّر لها كلَّ ما تحتاجُه، من

تسالٍ وألعابٍ.. وطعامٍ وشرابٍ، معتقدًا أنه لا ينقصُها شيء ولا تحتاج إلى أحَدٍ..

وكان الحاكمُ الظالمُ مرهوبًا عندَ عامَّةِ الشعبِ، لا يجرؤ شخصٌ على مخالفة أوامره الظالمة وأحكامه الجائرة.. يأمرُ فيطاعُ.. يظلمُ فيُهابُ.. ومن يعصهِ يُكوَ بالحديدِ والنارِ.. وكان الشعب يخافُ مِنْهُ ويخشَى ظُلْمَهُ..

قسم من الشعب:

ينتفعونَ مِنْهُ.. يعيشونَ على فتاتِهِ وظلمِهِ للناسِ، لا يفكرونَ إلَّا بما يجنونَ من مكاسِب، يمدحونَهُ ويعظمونهُ..

هم أكثر الشعبِ بغضًا له وكراهية، خزائنهم ملأى بعطاياه.. وأيديهم ملطخة بالدم.

وقسم ثانٍ:

يأتمرونَ بأمْرِهِ.. يعملونَ في الجيشِ والسلطةِ والإدارةِ.. ينفذُ جَرائمَهُ بِوَاسِطَتِهِمْ، لا يستطيعونَ الـرَّفْضَ، يخافونَ على أنفسِهم وأُسَرِهِمْ منْ بطشِهِ وظُلْمِهِ..

يحاولــونَ أحــيانًا تخفــيفَ الأحكــامِ عــنِ الـناس.. وإذا اكتشفَ الحاكم واحدًا منهم سجنَهُ وعذَّبَهُ دونَ رَحْمَة..

وقسم ثالث:

محايـدونَ تمامًـا.. يعيشونَ بعزلة.. يرفضونَ بـصمتٍ وجودَ الحاكمِ وأفعالِهِ، يفضلونَ الأعمالَ البـسيطةَ البعـيدةَ عـن سلطانِهِ.. يعملونَ بِالحرَف والتِّجَارَة..

يغـضُّونَ الطـرف عما يجري حولهم، يدعون رَبَّهم لِيُخَلِّصَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيه..

لكـنهمْ لا يفعلـونَ أيَّ شيءٍ سـوى الـدعاءِ لِيَـزيحُوا عَـنْ كـاهلهمْ هـذا الظلمَ.. حتى إنهم لا يـتكلمون فـيما بيـنهمْ بأدْنَـى أمـرٍ يـتعلق بالحاكمِ وحاشِيَتِه.

أما القسم الرابع والأخير:

فقد كانَ متمردًا بقوَّة.. رافضًا بِعُنْفٍ.. لكلِّ مـا يقـومَ بِـهِ الحـاكمُ منْ أفعالٍ منكرةٍ.. شرّيرَةٍ.. بعـضهمْ دخـلَ الـسجنَ، وبعـضهم عُـذِّبَ حَتَّى مَاتَ.. ومنهم من هاجر إلى بلاد بعيدة.

ومــنهم مــن لجــأ إلى الــوديانِ والــسهولِ والجبالِ؛ ثم شكلوا مجموعات سرِّيَّةٍ تقاوِمُ الحاكمَ

وشرورَهُ، تلجأ إلى مهاجَمَةِ جنودِهِ وقوافلِهِ، تستولي على ما في هذه القوافلِ من سلاح ومعدّات وتموين غذائي متنوع.

وهذا القسمُ الأخيرُ كان أشدَّ الأقسامِ إزعاجًا للحاكِم، يثير غضبَهُ وحنقَهُ، فيصدرَ أوامِرَهُ الصارمةَ باستخدامِ كلِّ أسَاليبِ البطشِ والقوَّةِ للقضاءِ عليهمْ.. ومع ذلك كانت أعدادهم تزدادُ ولا تنقصُ.. وإمكاناتهم تقوَى ولا تَضْعُفُ..

* * *

المشهدُ الواحدُ والعشرونَ



الأمـيرة الصغيرةُ الجميلةُ لم تكن تعرفُ عنْ ذلـكَ شـيئًا، حياتها تَـمْضِي بشكلٍ هادِئٍ رتيبٍ، تقـرأ الكـتبَ الكثـيرةَ المتـنوِّعَة، تمـارسُ هـواياتِها المُسَلِّيَة..

ترسم لوحاتٍ طبيعيةً جميلةً.. تلعبَ بألعابها الفريدة التي صنعها لها عمال أبيها..

تـشدو مـع البلابلِ والحسَاسِين.. تعيشُ مع الطبـيعةِ الجميلةِ في حديقةِ جَنَاحِها؛ تزرع الورودَ والـرياحينَ.. تـسقي الأشـجارَ وتقطـفُ الثمارَ.. تُطْعِـمَ الـدَّجَاجَ والصِّيـصان.. تلعـبُ.. تلهُـو..

تفرَح.. الحياة بالنسبة لها عالم آخر، غيرُ ذلك العالم الذي يعيش فيه الشعب..

عـالمٌ مـستقلٌّ.. لا جـراحَ فـيهِ ولا آلامَ.. لا جُوعَ فِيهِ ولا مَرضَ.

أمـا مـربِّيَتُها فقـد كانت تعرفُ كلَّ شيءٍ... تـتألَّمُ لمـا يحـدثُ للـشعبِ، لكـنها تتجـنَّبُ قـسوةَ الحـاكمِ وظلمِـهِ، تعلـمُ أنـه مـيِّتُ القلب، يعاملُ الـناسَ دون رحمـةٍ... حتـى إنه يظلمُ زوجتَهُ وهو الـذي لا يـسمحُ لها بالجلوسِ مع ابنتِها إلَّا نادراً، وكـان يحتقرُ الناسَ ويتلذَّذُ بتعذيبهم، ويظنُّ أنه لو خفَّفَ من قسوتِهِ عليهم لانتهى ملكُهُ واضمحلَّ.

المـربيةُ الحكـيمةُ تعلـمُ أنَّ الحاكم قَرَّب إليه المجـرمينَ واللـصوصَ، وأعطاهم مكانةً عاليةً في

المجـتمع، فـبدلًا مـن أن يرمِيَهُمْ في السجونِ التي صـنعتْ أصْـلًا لأمـثالِهِمْ، سَـلَّمَهُمْ أكـبَرَ المراكزِ، وَجَعَلَهُـمْ في مناصبَ ليسوا أهلًا لَهَا، فعاشَ أفرادُ الشعبِ في دوَّامَةٍ لا يستطيعونَ الخلاصَ مِنْهَا..

الـمُـرَبِّيَةُ تعـرفُ هـذا وأكثـر، لكـنها تحـبُّ الأمـيرةَ الـصغيرةَ، فقـد ولـدتْ عـلى يَدَيْهَا.. ولا تـستطِيعُ الـتخلِّي عنها، لم توافِقْ يومًا على ما يفعلُهُ أبوها الحاكم لكنَّها ضَعِيفَة..

لا تجـرُؤُ حَتَّـى عـلى النظـرِ في عينـيهِ كما أنَّها سـعيدة بـرفقة الأمـيرةِ الـصغيرة، وهي تخشى أن تكتـشفَ الأميرة الطيبةُ في أحدِ الأيام ظلمَ أبيها.. فهـي رقـيقةُ الـشعورِ بـريئةُ الـنفسِ تـرفضُ ظلمَ الآخرينَ، حتى الحيواناتِ الصغيرةَ تخافُ عَلَيْهَا..

فلــو علمــتْ أنَّ أباهــا يقــوم بكــل ذلــك الــسوءِ لأُصِيبَتْ بِحَسْرَةٍ شَدِيدَة.. وربَّما سقطتْ من هَوْلِ الصَّدْمَةِ.

وبالــرغمِ من كلِّ مباهجِ الحياةِ التي تحيطُ بها لم تكــن الأمــيرةُ الصغيرةُ سعيدةً بحياتِها، فكلُّ ما يحــيطُ بهــا مــن فَخَامَــةٍ وثراءٍ لا يَعْنِي لَــهَا الكثيرَ، فهــي تــشعر أنَّهَــا لا تعيشُ عيشةً طبيعيَّةً، تريد أنْ تجتمعَ معَ أسْرَتِها الصغيرةِ فِي مكانٍ واحدٍ..

وكانــتْ كلَّــما سأَلتْ أبَاها عندما يزورُها معَ أمِّهــا، عن ندرة زياراتهما إليها، وعن سببِ عُزْلَتِهَا وَوَحْــدَتِها وَلِــمَــاذَا لا تخرُجُ وَتَتَنَزَّهُ في مملكةِ أبيها، وتــرجوهُ أن يأخَــذَهَا مَعَــهُ ويخرجَها منْ عُزْلَتِها.. تــسمعُ جــوابًا لطيفًا منه، يختلف تمامًا عن أسلوبه مع الآخرينَ..

كان يقول لها:

"هـذا المكـانُ فـيه كـلُّ مـا تـرغبينَ فـيه، أنا أخـشى علـيكِ.. فقد تتعرضين للأخطار.. كما أن الهـواء في الخارج ليس نظيفًا مثل هواء حديقتكِ.. والــشوارِعَ مليــئةٌ بــالعُمَّالِ والجــنودِ والمــصانِعِ والضجيجِ.. فلماذا تزعجين نفسك بكلِّ هذا؟".

الأمـيرةُ الصغيرةُ قلبُها طيِّبٌ.. تصدّقُ أبَاها وتقتـنعُ بـسرْعَةٍ، لكـن عندما يغادرُ أبوها المكانَ، تعـود هــي إلى وَحْـدَتِها، ويـصبح القصرُ الضخمُ الـرائعُ سِــجْنًا رغـمَ مـا فـيه مـن وســائل التسليةِ والترفيهِ..

وكانتْ تجلسُ في كلِّ ليلةٍ تحتَ ضَوْءِ القمرِ.. تتأمَّلَ السكونَ.. تفكّرُ بِحَيَاتِها..

"هــل ســأظَلُّ في هــذهِ الــوَحْدَةِ طــوالَ حَيَاتِي؟".

كانت تحلُمُ بفارسٍ يأتِي من بعيدٍ يَحْمِلُهَا على حـصانِهِ الأبيضِ، يَخْطِفَها منْ هذا القصرِ، لتعيشَ بـينَ الـناسِ؛ حـياةً طبيعـيةً، ولـو في كوخٍ، تعيش ببـساطةٍ.. نَعَـمْ بِبَسَاطَةٍ.. ولو أكلتْ خبزًا جافًّا.. وقرصَها البردُ والجوعُ..

وكانتْ تقولَ لِـمُرَبِّيتِهَا هذا الكلامَ فتقولُ فِي نفسها:

"مـسكينة أنـتِ أيـتها الأميرةُ الصغيرةُ، كم أنــتِ طَيِّــبةُ القلــبِ، مــا أدراكِ بقرصــاتِ الجــوعِ والــبردِ.. ومــا ذقــت يــومًا طعــم الألمِ والتــشرُّدِ والظلمِ"..

أما الأميرة فكانت تردد:

"كـرهتُ القـصرَ.. كـرهتُ الحـياةَ.. آه لـو تـتحقَّقُ أمنيتِـي وأعـيشُ في كوخٍ بسيطٍ.. في أسْرَةِ فـلاحٍ فقيرٍ.. بدلًا من كلِّ هذا الثراءِ، وهذه الحياةِ الفاخِـرَةِ المريرةِ.. أشعر أنَّني في سجنٍ لا خلاصَ منه".

❋ ❋ ❋

المشهدُ الثاني والعشرون



وبعـدَ أنْ كـبرتِ الأمـيرةُ الـصغيرةُ قلـيلًا، صَارَتْ تبحثُ في أنحاءِ القصرِ عن مَخْرَجٍ..

وفي أحـدِ الأيـامِ اكْتَشَفَتْ نفقًا سِرِّيًّا يقودُها إلى غابةٍ قريبةٍ منَ القصرِ.. فصارتْ ترجُو مربيتَها أنْ تـسمحَ لهـا بالخـروجِ مَـعَ فَرَسِهَا الرَّمادِيَّةِ التي تركبُها فِي حديقتها الصغيرَةِ فلا تتمكنُ من الجرْيِ السريعِ لضيقِ مساحةِ الحديقةِ.. هي تريدُ أن تقفزَ معَ الفرسِ في كل الأمكنةِ الجَمِيلَة..

المـربِّيَةُ كانـتْ خائفـةً فِـيمَا لَـوْ عَرَفَ الحاكِمُ بذلكَ..

لكــنَّ الأمــيرةَ الجمــيلةَ أصَرَّتْ على الْخُروجِ مهــمَا كــانَ الأمْــرُ، وعــندما تأكَّــدَتْ مِــنِ انشغَالِ الحــرسِ امْــتَطَتْ فَرَسَــها الــرَّمَادِيَّةَ، التي انطلقت برشــاقةٍ، وطــارتْ بالأمــيرة نحوَ الغابةِ وصارَتْ تــسبحُ مــن مكانٍ إلى مكانٍ، تقفزُ عاليًا فِي الهواءِ.. ثــم تحــط أقــدامَها برفق فوق التراب كأنَّها تلامسُ الأرضَ بِحَوَافِــرِهَا، وكانــتِ الأمــيرةُ تشعرُ لأَوّلِ مَــرَّةٍ بالحــريَّةِ وبِالخفــةِ التامَّةِ والرِّقَةِ البالِغَةِ.. لأنَّ الفــرسَ كانــتْ تعلــم أنَّ عَــلى ظَهْــرِها أميرةً طَيبةَ القَلْبِ.

وصارَتِ الأميرةُ تخرجُ مِنْ حينٍ إلى آخَرَ مِنَ الــنَّفَقِ السِّرِّيِّ.. وتعودُ بعد فترةٍ قصيرةٍ ولا تتأخرُ حتى لا يكتشفَ أحَدٌ غِيَابَهَا، فلا يعودُ باستطاعَتِها الخروجُ مَرَّةً ثانيةً.

وتكـرّرَتِ رَحلَاتُها واسْتكْشَفَتْ كلَّ شِعَابِ الوديانِ والجبالِ التي تحيطُ بالقصرِ، ولم تكنْ تبتعدُ كثيـرًا حتـى تـتمكّن مـن العـودة بـسرعة.. وفي رحلاتِها المتكررَةِ صادقتِ كُلَّ الأزهارِ والأشجارِ والأطـيارِ، وألِفَـتِ الأمْكِـنَةَ كـمَا يألَـفُ الإنسانُ الإنـسانَ. وشعرت أنها تشبه كلَّ شيءٍ في الطبيعةِ، بـل إنها جزءٌ منَ الطبيعةِ.. ماءٌ في النهرِ.. وردةٌ في الوادِي.. أوْ طَيْرٌ فِي السَّماءِ..

مِـنْ فَـوْقِ فَرَسِـهَا الرَّمَادِيةِ كانتْ تطيرُ مثلَ النسيمِ.. تحملُ طُفُولَتَهَا.. شبَابَها.. روحَها التوَّاقَةَ لِلْحُرِّيَّةِ..

وفي مـرة تـركتْ لجامَ فَرَسِها فقادَتِ الفرسُ نَفْـسَها.. انـشغلتْ عَـنْ تَذَكُّرِ أنَّ عَلَيْهَا العودةَ إلى القـصرِ خـلالَ وقـتٍ قـصيرٍ.. لم تـشغلْ نفـسَها

بـضرورةِ عـدمِ الـذهابِ بعيدًا.. نَسِيَتْ أنها أميرةُ هذه الوديانِ والتلالِ والجبالِ..

صارَتْ فراشةً تهيمُ في الحقول.

وفجـأةً.. انزلقَت قدمُ الفرسِ وهي تركضُ على حافة منحدَرٍ شديدِ الوُعُورَةِ.. انقلبتِ الفرسُ عـلى رأسِـها.. طـارتِ الأمـيرةُ هـذِهِ المـرَّةَ طيرانًا حقيقـيًّا.. طارت أكثر من عشرة أمتار.. ثم حطت فوق الرمال والصخور..

الفـرسُ المـسكينةُ انقلـبتْ فِي اتِّجَـاهٍ آخَـرَ.. الْـمُـنْحَدَرُ جَـذَبَهَا بقوةٍ لثقلِ وَزْنِهَا.. انقلبتْ حينًا على رأسِها.. وحينًا آخر على جَنْبِها.. ثم ظَهْرِهَا.. وظلــتْ تَــنْقَلِبُ.. وتــنقلبُ.. وَصــدَى صَــوْتِها الـصاخِبِ يَتَرَدَّدَ في أنحاءِ المكانِ.. حتى استقرَّت في قعرِ الوادي.. وتبدد صوتُها تمامًا.

الأمـيرةُ الجـريحةُ ذاقـتْ ألمَ الجراحِ الفظيعَ.. ذاقَتْهُ للمرَّة الأولى، صارت تجهشُ بالبكاءِ..

مَـشْهَدُ الفـرسِ وَهِـيَ تَتَلَوَّى مِنَ الألمِ غَلَبَ آلامَ الجـراحِ الكثيرةِ التي أصابَتْهَا، وراحت تَبْكي حُـزنًا عـلى الفـرسِ وهَلعًـا مِـما أصابَها، وصارتِ الدموعُ تنهمرُ من عينيها لأوَّلِ مَرَّة..

ومـنْ هـولِ الـصَّدْمَةِ لم تـشعرْ بالدماءِ التي كانـت تُغَطِّـي قَدَمَـيْهَا.. لَمْ تظـنَّ أنَّ حادثًا مؤسفًا مـثل هـذا سيصيبها يومًا مَا.. حاولتِ الوقوفَ.. الألـمُ الفظـيع سرى في عظامِهـا مـثلُ الـبرقِ.. أدركـتْ أنها لا تقوى على التحرُّكِ من مكانِها، بَدَا شَـبَحُ المـوتِ يخـيِّم فَـوْقَ رَأسِـها.. تشعر أنَّهُ يَدْنُو مِـنْهَا.. سيـصيبُها كـما أصـابَ الفرسَ المسكينةَ.. فَمَنْ ذا الذِي يستطيعُ اكتشافَ مَكانِهَا..

"سـأنْزِفُ حَتَّـى الموتِ".. لم تستطع مقاومة هـذا التَّـصَوُّرِ.. صـارَ الألمُ أقْـوَى مِنْهَا.. ضَعُفَتْ أمَامَـهُ.. اسْتَـسْلَمَتْ.. ازدادَ بِـسُرعَةٍ حتـى غـشيَ عَلَيْهَا، وفقدتْ وَعْيَها تَـمـامًا..

وفِي هَـذا الـوقتِ كانـت المـربِّيَةُ تشعرُ بقلقٍ شديدٍ..

"هذه أولُ مرَّةٍ تتأخَّرُ الأميرَةُ عَنِ العَوْدَةِ!".

انتظرتْ بعضَ الوقتِ..

"الـشمسُ تكـادَ تغـيبُ.. والأميرةُ لم ترجعْ بَعْدُ".

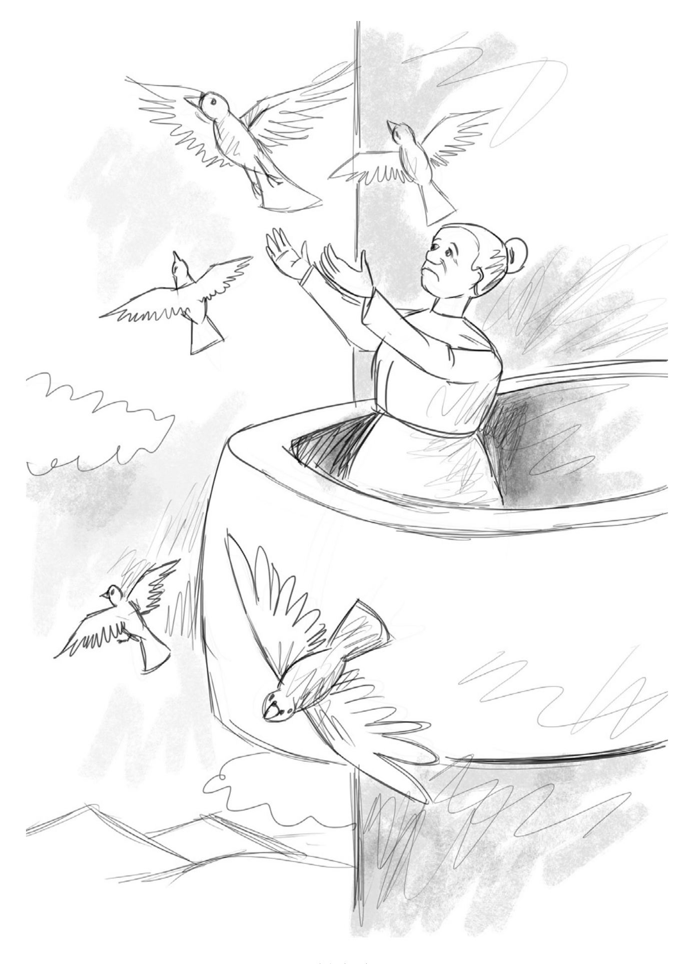
الحـرَّاسُ اكتـشفوا غيابَ الفرَسِ الرَّمَادِيَّةِ.. بـدأ الذعـر يدبُّ بَيْنَهُمْ، والمربيَةُ أدركت أنَّ سوءًا قَدْ وَقَع..

"لا بُدَّ مِنْ إخْبَارِ الحَاكِمِ في الـحَـــالِ".

لم تَخْشَ انـتقامَهُ مِـنْهَا.. لم تخـشَ أن يَـتَّهِمَهَا بالتقـصيرِ والإهْمَـالِ.. هِـيَ أكثـرُ الـناسِ معـرفَةً ببطـشِهِ وجَـبَرُوتِهِ، فكـيفَ فِي أمـر يخـص ابْنَـتَهُ الوحـيدَةَ. ومـع ذلـك يجب التحركُ بسرعة.. رُبَّمَا تكونُ الأميرةُ في خطرٍ وتحتاجُ لِـمُسَاعَدَةٍ.

* * *

المشهدُ الثالثُ والعشرونَ



أطلقتِ الـمُرَبِّيَةُ سِرْبًا مِنَ الحمامِ الأَحْمَرِ.. لا يُطْلَـقُ إِلَّا عـندَ الْخَطَـرِ، مـدرَّبٌ كَـيْ ينطلقَ بقوةٍ وسرعـةٍ بالغـةٍ نحو مَقَرِّ الحاكِمِ مُبَاشَرَةً، فيعلمُ أنَّ سـوءًا قـد وقـعَ لابنـتِهِ، وهَـذِهِ الطـريقةُ التـي استَخْدَمَتْهَا المربيةُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَمَرَ الحاكِمُ باللجوءِ إِلَـيْهَا فِي الحالـةِ الطارِئَـةِ، لأنهـا أفضلُ مِنْ أَقْوَى فـارسٍ يقـودُ أَسْرَعَ الخـيولِ.. فالأمـرُ لا يحـتملُ تضييعَ لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

وخـلالَ دقائـقَ قلـيلةٍ، حضرَ الحاكِمُ برفقةِ مجمـوعةٍ كبـيرةٍ من الجنودِ، وعندمَا أَخْبَرَتْهُ المربيةُ باختفاءِ ابنتِهِ، أَمَرَ جنودَهُ بِأَنْ يَقْتَفُوا أَثَرَهَا ويبحثوا

فِي كُلِّ مَكانٍ.. فانطلقَ الجنودُ وانتشرُوا بينَ الجبالِ والـوديان وَلَمْ يَـتْرُكُوا مكانًـا إلّا وبحـثوا فـيهِ.. وتتـبعوا كـلّ أثـرٍ مُـمْكِنٍ.. حتى إنّهُمْ غَاصُوا فِي أعماقِ النهرِ الذي يمرُّ فِي الوادي السحيقِ.. لكنهمْ مَا وَجَدُوا شَيْئًا..

الحاكمُ اسْتَدْعَى مَزيدًا مِنَ الجنودِ.. واستمرَّ الـبحثُ أيامًـا ولـياليَ طويلةً.. ولم يسمحْ للجنودِ بالـرَّاحَةِ والـنومِ.. كثـيرونَ مِـنْهُمْ نامُـوا فـوقَ خُـيُولِهِمْ.. وَلَمْ يَجْرُؤوا على العودةِ دونَ العثورِ عَلَى الأمِيرة..

أمـا الحـاكمُ فقـد خَـرَجَ بِنفـسِهِ يَـبْحَثُ عَنِ ابْنَـتِهِ.. يحمـلُ سَـوْطَهُ يـضربُ الفرسـانَ والجنودَ لِيَبْحَثُوا بجدٍّ دونَ تكاسُلٍ.. حَضَرَتْ فرقةٌ صَغِيرَةٌ ماهِـرَةٌ بالتسلُّقِ.. قالَ قائدُها للحاكِمِ إنّهُمْ وَجَدُوا

فَرَسَ الأميرةِ هالكةً في قَعْرِ الوادِي السَّحِيقِ وعليه أنْ يرسـلَ الجـنودَ إلى ذلك الوادِي ليبحثوا في كلِّ ناحيةٍ فيه..

تَجَمَّـعَ الجـنودُ كلُّهـم هـناكَ.. ومَـنْ خَـشِيَ النـزولَ في الـوادِي أمـرَ الـسلطان بقتلِهِ.. لم يكن بعـض الجـنود يعـرفونَ تـسلُّقَ الجبالِ والنزولَ في الـمُـنْحَدَرَاتِ، وأكثـرهُم لا يملكـونَ المعـدَّاتِ اللازمَة.. فَسَقطَ منهم كثيرونَ في الوادي وماتوا.. والسلطان لا يُبَالِـي بصراخِهِمْ وآلامِهِم..

أَحَـدُ القـادة المقـربينَ مـن الحـاكِم يَئِسَ من العـثورِ عـلى الأمـيرةِ، تأكَّـدَ أَنْ لَا أَثَـرَ لَـهَـا فِي الـوادي.. خـشيَ أن يمـوتَ الجـنودُ كلُّهُـمْ وهـم يـسقطونَ في قعـرِ الوادِي بالعشرَاتِ.. اقتربَ من

الحـاكم منحنـيَ الـرأسِ.. اسْـتَعْطَفَهُ ليـسمح لـه بالكلام.. أشار إليهِ الحاكم أي تكلَّم..

قال القائد:

"مـولاي.. الجـنود يهلكـون.. مـضى عـلى الـبحثِ أيـامٌ ولم نجـدْ شـيئًا.. لـو كانـت مولاتِي الأميرة سقطت في قعر هذا الوادي فمن المستحيل أنْ تكونَ على قيدِ الحياةِ.. والذئاب سوف..".

لم يكـد القائـد يتفوّه بهذه الكلمات وقبل أن يكمـل كلامـه.. أشار الحاكم إلى أحد الجنود آمرًا بقطع رأس القائد.. فنفَّذ الجنديُّ الأمرَ على الفورِ قبلَ أن يتمكنَ القائدُ من الدفاع عن نفسه.

وعـندما رَأى الجـنودُ مـا حَـدَثَ لِقَائِدِهِمْ.. أَصَـابَهُمُ الـرعبُ الـشديدُ، وَسَرَى الخوفُ بينَهُمْ،

صَـارُوا يركـضونَ كالمجانين في كلِّ جانب، عسى أنْ يجـدوا شـيئًا يهدِّئ الحاكمَ الظالمَ.. لكن واحدًا منهم لم يكن يتمنى اكتشاف الأميرة ميتة خوفًا من بطشِ الحاكم..

في هـذا الوقتِ كانتِ الأميرَةُ الجريحَةُ تَتَعَافَى وتـستعيدُ وَعْـيَهَا فِي مكـانٍ آخَـرَ لا يعـرفُهُ جـنودُ الحـاكِمِ، وَفِي كَهْـفٍ بعـيدٍ فِي بطـنِ جَـبَلٍ شـديدِ الانحدارِ، كانَتِ الأميرَةُ مُـمَدَّدَةً على فراشٍ بسيطٍ تحـاوِلُ فـتحَ عَيْنَـيْهَا دونَ أن تَعْلَـمَ أيـنَ هِـي وما حَدَثَ مَعَهَا بعد تلكَ الحَادِثَةِ الرَّهِيبَةِ؟!

اكتـشفَتْ أنَّ مجمـوعةً مـن الـرِّجالِ عَثَـرُوا عَلَيْهَا مَلْقِيَّةً فِي الوادِي مُضَرَّجَةً بِدِمَائِها..

كانَ بَيْنَهُمْ رجلٌ يعرفُ بِالطِّبِّ، حَمَلُوهَا فَوْقَ

خَشَبَةٍ.. ونقلُوها بِعِنَايَةٍ إلى هَذَا الكَهْفِ، طَمَسُوا آثَارَهُمْ، أَخْفَوْا دِمَاءَ الفتاةِ وغطَّوْهَا بِالتراب حتى لا يكتشفهَا أحَدٌ ويعرفَ جنودُ السلطانِ مكانَهُمْ فيبطشُوا بِهِمْ.

الطبيبُ عالجَ جراحَ الأميرةِ وكسورَها.. فتحت الأميرةُ عَيْنَيْهَا.. ولم تَسْتَطِعِ الكلامَ.. علمتْ أنَّ هؤلاءِ الرجالَ أنقذُوها منَ الموتِ..

"لا شكَّ أنهمْ قطاعُ طُرُقٍ.. هاربونَ منَ القانونِ.. مجرمونَ.. لصوصٌ.. بالتأكيدِ هُمْ لصُوص.. فلماذا هم يسكنون في الجبالِ؟!".

حَمِدَ الطبيبُ رَبَّهُ على سلامَةِ الفتَاةِ..

جاءَ مجموعةٌ منَ الرجالِ والنّساءِ يهنئونَ الفتاةَ على سلَامتِهَا.. طلبَ منها أحَدُهُمْ أنْ

تخـبرَهـم عَـنْ مكـانِ أسْرَتِها.. فهم بالتأكيد قلقونَ على ابنتهم..

لم تـتكلَّمِ الأمـيرةُ بكلمـةٍ واحـدةٍ.. الطبيبُ طمأنهـا أنهـا أَصـبحت بخير ولا يوجد خطر على حـياتها.. لكنها لا تستطيعُ الحراكَ الآنَ فَفِي ذلك خطـرٌ عَلَـيْهَا.. وكـانَ معَ الرجالِ بضعُ نِسَاءٍ قمن بِخِدْمَـةِ الأمـيرَةِ.. غَـسَّلْنَ جَسَدَهَا وَثِيَابَهَا وَصِرْنَ يُطْعِمْنَهَا بِلُطْفٍ.

الطبـيبُ يـأتِي إِلَيْهَا منْ حينٍ إلى آخَرَ يَطْمَئِنُّ عَلَـيْهَا، يُسْمِعُها كَلامًا جميلًا؛ يقولُ لها إنَّها في عمرِ ابنته، ثم يتركها باحترامٍ مثلما دخل دون أن يعرف مَـنْ هِـيَ، لكـنهم كانـوا مـتأكّدينَ أنَّهـا ابنةُ أسرَةٍ كريمةٍ ثرِيَّةٍ بسببِ الثيابِ التي كانت تَرْتَدِيهَا.

* * *

المشهدُ الرابعُ والعشرونَ



سَـمِعَتْهُمْ الأميرةُ يتحدثونَ عَنْ ظلمِ الحاكِمِ لِلـشَّعْبِ.. عَـنْ جـوْعِ الـناسِ.. عَـنِ القهرِ الذي يعيـشونَهُ.. عـنِ الـسجونِ.. عَـنِ القـتلِ.. عَـنِ التعذيبِ.

سـمعتْ كلـماتٍ مثل: جورُ الحاكِمِ.. جَشَعُ الحاكِمِ.. المساجينُ.. القَتْلَى.. السُّجُون..

سـمعتْ أشـياءَ وأشـياءَ لم تكـن تتـصورُ وجـودها.. لم تـتوقعها يـومًا.. اكتـشفت الظلـم الواقـع عـلى الـناس.. وأن أباهـا يـسرقُ مَـالَـهُمْ وقوتَهُمْ وَحَيَاتَهُمْ..

حَاوَلَتْ أنْ لَا تُصَدِّقَ..

"كاذبونَ.. كاذبونَ"..

صارَتْ تَصْرُخُ فِي أعْمَاقِهَا..

"لكـنهمْ طَيِّـبون.. لطفاءَ.. يعاملونَنِي بكلِّ احترامٍ".

"تُـرَى مَـاذا سـيفعلونَ لو اكتشفوا أنَّنِي ابنةُ السلطانِ؟".

فجأةً جاءَ رجلٌ على عجلٍ:

"السلطانُ يبحثُ عن ابنتهِ المفقودة".

سمعتِ الأميرةُ الخبرَ.. قالت:

"سيقتلونَني بِكُلِّ تَأْكِيدٍ".

لكـن معاملـتهم لهـا لم تتغير.. جاء الطبيب، ابتسم لها كما ابتسم لها أول مرة..

"الحمـدُ لله.. أنـتِ بأفـضل حـالٍ الـيومَ يـا ابنتي".

"مـا رَأْيُـكِ أنْ تَأْخُذي الآنَ فَرَسًا مِنْ أَجْوَدِ خُيُولِـنَا وَتَتَوَجَّهِـي إِلَى أَهْلِـكِ.. لا بد أنهم قلقونَ عليكِ"..

"لكـنْ سِـيرِي بهـدوءٍ حتـى لا تَتَضَرَّرِي.. فجراحُكِ لم تلتئمْ بَعْدُ"..

لم تصدِّقِ الأميرةُ الجميلةُ ما تَسْمَعُ:

"أهذا حلْمٌ أَمْ حَقِيقَة؟".

أدرك الطبيبُ ما في عينيها:

"مـا كنَّا لنفعلَ ما تفكرينَ به، لا ذنبَ لَكِ.. نحـنُ لـسنَا بمجـرمينَ كما يقولون عَنَّا.. اذهبي يا ابنتي.. اذهبي فالناس تموتُ الآنَ مِنْ أجْلِكِ".

الأمـيرة لم تكـن تـصدِّقُ كـلَّ ما سمعته عَنْ أَبِـيها، تـريد إثـبات العكـسِ لهـم جميعًا، فوالدُها لطـيفٌ جدًّا معها، وهي لم تتوقع أبدًا أنْ يكونَ كَمَا يقولـونَ.. رَكِـبَتِ الأمـيرةُ فَرَسًـا قَـوِيَّةً.. وَدَّعَتِ الـرِّجَالَ.. شَـكَرَتِ النـساءَ لعنايتهنَّ بِها.. سارت الفــرس بهــدوء إلى وجهــة لا يعــرفها هــؤلاءِ الرِّجَالُ..

سـلكت الأمـيرةَ طـرقاتٍ سرِّيَّـةً، وَدَخَلَتْ أنفاقًـا لا يعرفُها جنودُ أبِيها.. وَصَلَتْ إلَى قَصْرِهَا الْـمَرْمَـرِيِّ.. ودَخَلَـتْ غـرفةَ مُرَبيتِهَا فكاد يُغْمَى عَلَـيْهَا مِـنَ الْـمُفَاجَـأَةِ.. تمالكتْ نَفْسَهَا، حَضَنَتِ

الأمِـيرَةَ، وَصَـارَتْ تَبْكِـي مِـنَ الفَـرَحِ.. قالـتِ الأميرة:

"سَأَسْألك سؤالًا واحدًا: هل أبي ظالم بحق الشعب؟".

أحـنتْ رَأْسَـهَا.. لَمْ تكـنْ تتوقعُ هذا السؤال أبدًا:

"مولاتِي".

"أرجوكِ.. أجيبيني"..

"كـلامٌ فـارغٌ.. مـن وضـعَ في رَأْسِـكِ هذا الكلام".

"أجِيبيني".

"لـنذهبْ أوَّلًا إلى مقـر أبِـيكِ.. إنَّهُ غَاضِبٌ جِدًّا بِسَبَبِ غِيابِكِ".

جلستِ الأميرةُ على سريرِ المربِّيَةِ وقالتْ بصوتٍ كئيبٍ:

"الآنَ تَأَكَّدْتُ أنَّ ما قالوهُ هُو صحيحٌ وصادقٌ؛ يقتلُ الناسَ، يستولِي على بيوتِهِمْ وأرْضِهِمْ وممتلكاتِهِمْ بالْقُوَّةِ.. ويحرُمُ أولادَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.. إنَّ أبِي مجرِمٌ.. مُجْرِمٌ.."..

الأميرةُ تبكِي بمرَارَة.. والمربية تَضُمُّها إلى صَدْرِها..

خافت الأميرةُ أن تُواجِهَ أَبَاهَا بأفْعَالِهِ.. سَوْفَ ينتقمُ منَ الناسِ أكثرَ.. سَوْفَ يَسْجُنُها وَيَمْنَعُهَا مِنْ لِقَاءِ الشعبِ كما كانَ يفعلُ طوالَ حَيَاتِهَا.. ولكنها هذه المرة ستفعل ما يجب أن تفعله..

قـرَّرتِ الانـضمامَ إلى صـفوفِ المقاوِمينَ مِنَ الشعبِ.. ومقاومةَ الحَاكِم..

قالتْ لِمُرَبِّيَتِهَا: "تعالَيْ مَعِي"..

أَجَابَـتْهَا: "أنـتِ لا تحتاجـينَ اليومَ إلى امْرَأةٍ عجوزٍ كبيرةٍ مِثْلي"..

انطلقـتِ الأمـيرةُ عائـدةً إلى الجـبالِ.. إلى الكَهْفِ الذِي جَاءَتْ مِنْهُ.

جُـنَّ الحـاكمُ عندما علمَ أنَّ ابْنَتَهُ حَيَّةٌ تقاتلُ في صفوفِ أَعْدَائِهِ..

انتـشرَ الخـبرُ مـثلَ الـنَّارِ فِي الْـهَشِيمِ.. "ابنةُ الحاكمِ تقاتِلُ أباها مِن أَجْلِ الشَّعْبِ..".

سَرَتْ فِي أوصـــالِ الــشعبِ روحُ الــثَّوْرَةِ والعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ..

شـعرَ الشعبُ بقوَّةٍ هائِلَةٍ، ثارَ الشَّعبُ كُلُّهُ.. حَتَّى جَيْشُ الحاكِمِ لم يَعُدْ يُنَفِّذُ كل أوامره..

وبـدأ الحـاكمُ يفقـدُ قـوته شـيئًا فشيئًا.. ثم انقلب الجيشُ على قائده.. أمسكُوا الحاكمَ وزجُّوا بـهِ في الـسجنِ.. اجتمع الناسُ يهتفونَ بحياة ابنتِهِ الأمِـيرَةِ.. وطالـبُوها بـأن تكـون حاكمـة مكـان أبيها..

لكـن الأميرةَ رَفَضَتْ ذلكَ.. لَـمْ تفكرْ يومًا أنْ تكونَ حاكمةً، لا تُحِبُّ القصورَ.. لكنها طلبتْ مِـنَ الـشعبِ أمـرًا خاصًّـا.. صارَتْ تَرْجُو الناسَ الـصَّفْحَ عَـنْ أَبِـيهَا.. أنْ يَـسْمَحُوا لَـهُ بِالـبقاءِ فِي القصْرِ حتَّى يَمُوتَ..

تَوَسُّلاتُ الأميرةِ كانتْ أَقْوى مِنْ كُلِّ جَرَائِم أبِيها..

الناسُ طيبونَ.. لم يكنِ الانتقامُ هَدَفَهُمْ..

تَرَكُوهُ فِي قَصْرِهِ وَلَمْ يَعُدْ يسمعُ الناسُ عَنْهُ أيَّ خبرٍ منذُ ذلكَ الحينِ، ولم تسكن الأميرةُ القصرَ بعد ذلك.. عاشت كما أرَادت.. مثل الشعبِ.. وبعد موت الحاكم لم يسكن أحدٌ ذلك القصر..

وعاشت الأميرة بعد ذلك عمرًا طويلًا.. نَسِيَ الناسُ مَنْ هِيَ.. لكنَّهم لَمْ يَنْسَوا قَصَّتَهَا.. وتزوجَتْ ابنَ الطبيبِ الذِي عَالجَهَا فِي الكهفِ.. وكان إنسانًا بسيطًا يعرفُ تمامًا ما معنى الحبِّ والرحمةِ والحُرِّيَّةِ.

* * *

الـمشهدُ الأخيرُ



عـندما اسـتمع "يتـيم" إلَى هـذِه القـصَّةِ الغـريبةِ، وكـان يسمعها لأوَّلِ مَرَّةٍ رغم أنهُ يعرفُ كثيرًا من قصص القَصْرِ، التهبتْ مشاعِرُ الحريَّةِ في قلبِهِ مِنْ جَدِيد..

أدْرَكَ أنَّ جـارَهُ يحمـلُ المـشاعرَ الـصَّادِقَة نفسها..

يحبونَ الأرضَ وتاريخَها المرتبطَ بالقَصْرِ..

كـما يحبونَ كَسْرَ هَذِهِ الأسْوَارِ والتخلُّصَ مِنَ الخَطَرِ الَّذي يحيطُ بِهِمْ.. لكنْ لا يُوجَدُ سَبِيلٌ سِوَى القـضاءِ عـلى الوحوشِ التي تحيط بالقريةِ من كلِّ جانب..

قــرر "يتـيم" أن يـبوح لجارِه الصديق بما في قلبه.. فوجد لديه المشاعر نفسها..

ولكــن الــناس اعــتادُوا على المكانِ.. وليس عــندهم رغـبةٌ في الخروج منه أو التحرر من قيوده بسهولة..

"يتـيم" لا يـريد أن يتحرر من المكان بنفسه فقط..

هــو في الحقـيقة لا يـريد الابتعاد عن المكان الذي يحبُّ..

وكيف يترك القرية التي يحبُّها..

هُوَ يريدُ أنْ يفتحَ الأبوابَ أمَامَ قَرْيَتِهِ ويكسرَ أسْوَارَها العاليةَ فلا تَبْقَى معزولةً عنِ العالَمِ..

لا يــريدُ الــمُغامَرَةَ بنفسِهِ ولا بِغَيْرِهِ كما فعلَ

كثيرٌ مِنَ الشبابِ، فما عادوا بعدما غامروا بأرواحهم في مواجهة الوحوش الضارية..

هنا أدرك "يتيم" مع صديقه أنه لا بدَّ منْ عملٍ جَمَاعِيٍّ..

هَذِهِ الطموحاتُ لا تَعْنِي هُجْرَانَ القرْيَةِ وَتَرْكَهَا..

بلْ عكسَ ذلكَ تمامًا.. فهي تعني حمايةَ القريةِ من كلِّ عدوٍّ، ليتمكَّنَ أهلُ القريَةِ من العيشِ بحرِّيَّةٍ تامَّة، والانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ بسلام، وتمهيد السبيل لكي تستقبل القرية الزوّار من كلِّ مكانٍ كما كان يَحْدُثُ في السابق.

لقد كانت قصة الأميرة التي ارتادَتِ السهولَ والتلالَ والمنحدراتِ رغم صعوبتها حافزًا له على تحقيق حلمه..

كـما كانـت كـل القـصص الـسابقة المرتبطة بالقـصر تـشير إلى القوةِ والإصرارِ والرغبةِ بالحياةِ بعنفوان وحرّية..

وكـان "يتـيم" مـن خـلال مراقبته المستمرة للطبـيعةِ مـن وراء الـسورِ وهـو يجلـس في أعـلى الـشجرة، يـدرك أن تلك الوحوش رغم ما تتمتع بـه مـن قـوة، كـما كان يتناقل أهل القرية.. فإنها لم تكـن تظهر على مقربة من سورِ القريةِ.. وربما هي أقلُّ وحشيّةً مِـمَّـا يعتقدُ أهْلُ القَرْيَةِ..

وكـانَ صوتُها القوِيُّ معَ بِدَايَةِ الليلِ يضعفُ فِي آخِـرِه، وتـصبح الأصـواتُ بعـيدةً جدًّا وكأنها تهابُ شيئًا ما..

وبات مع مراقبتها اليومية يعرف الاتجاهات التي تتحرك فيها..

وكانَ يكتب ذلك في مفكرةٍ صغيرة..

عـرضَ "يتـيم" تلـكَ المفكَّـرَةَ عـلى جَـارِهِ الـصَّدِيق.. فـأدرك أن عدد الوحوش قليل، وهي تتـنقل مـن مكانٍ إلى مكان، وأنه يمكن مواجهتها بخطـط يمكـن وَضْعُها، كما يمكنُ إعدادُ السلاحِ المناسِب للقضاءِ عليها..

لَمْ يَعُدْ "يتيم" يتيمًا بفكرته..

تجمـع أمامَـهُ الكثـير من الأحلامِ الجديدةِ.. وعـادت الفـرحة ترتـسم فـوق ثغرِهِ مِنْ جديدٍ.. لـيس علـيه بعـد اليوم أن يكتفيَ بالأحلامِ.. لأن الأحلامَ وحدها ليستْ كافية..

طلـب إلـيه جارُهُ الصديقُ أن يعرض فكرتَهُ على شباب القرية..

ورغـم أن بعـضهم كان خائفًا من الفكرة.. فـإن الـبعضَ الآخـرَ كانت الفكرةُ تراوِدُهُمْ مِثْلَهُ تَـمَـامًا..

كانُـوا جمـيعًا متفقـينَ على أهميَّةِ القضاءِ على الأخطـارِ التي تحيطُ بِقَرْيَتِهِمْ، لذا لَـمْ يَكُنْ بدٌّ من اتخاذ قرار حاسم..

اجـتمع الشباب.. وكانت أفكارهم متقاربة ومشاعرهم تزدادُ حَمَاسَةً..

انتشرتْ أخبارُ الاجتماعِ في أنحاءِ القريةِ..

وصل الأمرُ إلى حكماءِ القريةِ وكبارها..

لم يقـبلْ كـبارُ القريةِ ما عَزَمَ عليهِ صغارُها.. فهـم يخشونَ الأخطارَ التي يؤمنون بأنها تحيط بهم

مـن كـل جانب، ويعتقدونَ أنَّ الخروجَ منَ القريةِ يعني الموتَ المحتَّمَ..

رَفَـضَ الآبـاءُ والأمهـاتُ مجـرَّد مناقـشة الموضـوع مـع أبـنائهم، فهـم يرفـضونَ الفكـرَةَ بالمطلـقِ، لا يقـبلونَ المغامَرَةَ بالأرواحِ مهما كانتِ الأسـبابُ، لأن مـا وراء السور هو المجهولُ الذي لا يعرفهُ أحَد..

حـاول "يتـيم" مـرارًا أنْ يطـرح الموضـوعَ للنقاشِ مُرْتَكِزًا على احترامِ أهلِ القريةِ وتقديرِهِمْ لَـهُ.. لكـنَّهُمْ في كـلِّ مـرةٍ كانـوا يتهيَّبونَ مواصلةَ مناقـشَةِ الأمْـر باعتبارِ أنَّ البقاء داخل سورِ القريةِ وعـدمَ الخـروج مـنها لأي سـبب كـان هـي مـن الثوابت التي لا رجعةَ عنها.

قــرر شــباب القرية عدمَ الرضوخ، أيقنوا أن عــلى عاتِقِهِمْ مسؤوليةً عظيمةً وهي تغييرُ الأفكارِ التــي يتمـسكُ بهـا كبار القرية الذين يصرُّون على البقاءِ داخل الأسوارِ وعدم تَجَاوُزِهَا.

تَنَادى الشبابُ منْ كلِّ جانبٍ.. كانت فكرةُ الحريَّةِ حَيَّةً في قلوبِهِمْ..

قــرروا البدء منذ اللحظةِ بالتدرُّبِ والاستعدادِ والــتأهُّبِ؛ لمــواجَهَةِ الوحوشِ واصطيادِها وقتلها وتدمير جحورِها وكهوفها..

وبــدأ الاســتعدادُ الــشامِل وتحضيرُ الشبابِ الأشِدَّاءِ..

وبــدأ الفنيونَ المهَرة بإعدادِ السلاحِ المناسِب من خناجرَ وسيوفٍ ورماح..

وهكذا انطلقتْ مشاعرُ الحرِّيَّةِ من قلوبهم.. بعـدما سـكنتها فـترة طـويلة.. يريدون كسرَ هذا السورِ الذي يحيطُ بقريتهم..

وكـان "يتيم" وجارُه الصديق.. وعدد كبير من شباب القرية يَجِدُّونَ في الليلِ والنهارِ من أجلِ تحقيقِ حُلْمِهِمْ بِالحريةِ والقضاء على كل الوحوشِ الـشريرةِ التـي تحـيطُ بِهِـمْ، لـتكونَ قـصتُهمْ قصةً جديـدةً تَنـضمُّ إلى القـصصِ الكثـيرَةِ التي رواها الأجْـدَادُ.. قِـصَّة التَّحَرُّرِ من السِّجْنِ الكبيرِ.. مِنَ القــريَةِ المَــسْجُونَةِ، مهــما كانــت الــصعاب والتحدِّيَات.. وبذلكَ يتحققُ حلمهم بِالحرِّيَّةِ..

(النهاية)

فهرس المحتويات



رواية للناشئة والشباب

لُغْزُ الْقَرْيَةِ الْمَسْجُونَةِ



تأليف : د. طارق البكري

رسوم : فادي سلامة

دار الرُّقِيّ

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ISBN : 978-9953-590-74-5



للطباعة والنشر والتوزيع

خليوي: 00961 3 235949
تلفاكس: 00961 7 920158
ص.ب: 4101 بيروت - لبنان

المَشْهَدُ الأَوَّلُ





كثـيرةٌ هـيَ القـصَصُ وَالحكايـاتُ التـي لا يُمْكِنُ تصديقُها بسهولةٍ..

وحتـى مَـنْ يَـرَاها حَقيقةً عَلى أرضِ الوَاقعِ يَظنُّ نفسَه يَحلمُ..

وربَّـما رأى الإنـسانُ أحداثًا لا يخبرُ بها، وقد يخبرُ بأحداثٍ من نسجِ الإنسانِ نفسِهِ..

وَمَع ذلك تبقى القصَصُ المحكيةُ راسخةً في ذاكـرةِ الـنَّاسِ، يَـرويها الكـبارُ للصِّغارِ، وتتناقلها الأمَمُ أجيَالًا وَراءَ أجْيالٍ..

وربَّما يكون معظمُ القصصِ أقرب إلى الخيالِ مـنها إلى الواقـعِ، لكـنَّ التجاربَ التي نحياها كلَّ

يومٍ تدهشُنا أحيانًا بوقائعَ كانت بالأمسِ خيالًا..

ولطالما سمعَ النَّاسُ عن أمورٍ غريبةٍ، لا يمكنُ أن تخطرَ على بالِ أحدٍ ببساطةٍ، وعن أحداثٍ عجيبةٍ لا ينسجُها إلَّا فكرٌ واسعٌ ونفسٌ غارقةٌ في الأحلامِ البعيدةِ..

وفي أحيانٍ عديدةٍ نسمعُ عن قصصٍ حدثت في التاريخِ وقد نظنُّ أصحابَها أسطورةً من الأساطيرِ، أو خلقًا من غيرِ البشر من غرابةِ الأحداثِ التي تصادفُهم..

لكن تلك القصصَ رغمَ كل ما تثيرُهُ من استغرابٍ؛ فإنها تظلُّ مرتبطةً بالواقعِ مثيرةً للجدالِ..

وهناك من يؤمنُ بأنَّ وراء الواقعِ شيئًا أبعدَ

مـن الحقـيقة.. وأوسعَ من الخيالِ.. وأنَّ وراءَ كلِّ خيالٍ.. طرفًا من الواقعِ.

هـي أشـياءُ لا تسقطُ مع المطرِ، ولا تنبعُ مع الماءِ، ولا تثمرُ مع الزهرِ، ولا تنبتُ مع العشبِ..

أشياءُ فوقَ العقلِ أوِ التوهُّم..

فوقَ الرُّؤى والأحلام..

ومـع ذلـك يظـلُّ الـناس يـسعون جاهدينَ لاقتناصِ الأمَلِ والحياةِ من وراءِ الواقع..

فما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمل..

ومنَ الحكايات التي عاشت دهورًا وتناقلها الـناس ولم تُمْحَ من صفحات الذكريات.. قصصٌ عـدّةٌ جـرَتْ تفاصـيلُها في مكـانٍ واحـد، لكـنها حـدثت في أزمـنةٍ متفـرقة.. منفـصلةٍ في أسـبابها،

مختلفةٍ في أحداثها، متباعدةٍ عن بعضها في الزمانِ وفي الأشخاص، غير أن هناك أثرًا واحدًا يَجمع بينها، ومع طول الزمان والتاريخ وتعاقب الأمم؛ شهد ذلك الأثرُ الكثيرَ من وقائع تلك الحكايات المليئة بالتشويقِ والمغامراتِ..

في ذلكَ المكانِ الشاهِق..

حيث الأفقُ حدودُه.. والنسائمُ ورودُه.. والزنابقُ جنودُه..

هناك..

حيث يبدو القمر أكبرَ بكثيرٍ وأشدَّ بياضًا ولمعانًا مما يراه سائر البشر!

سكنت قريةٌ صغيرةٌ قمةَ جبلٍ عالٍ، عاشَ فيها الناس في سلام وطمأنينةٍ وأمانٍ، في حضن الطبيعةِ الجميلة، والهواءِ البارد المنعش، داخلَ

سـور مـرتفع، تحـيط بهـم غابـاتٌ تكـسو الـتلالَ والجبالَ والوديان..

وفي ربـوةٍ عالـيةٍ مـن القـرية ينتـصبُ الأثرُ القديمُ، يبدو بقايا لقصر حَجَريٍّ مَتِين..

أهلُ القريةِ يتوارثونَ جيلًا بعد جيلٍ قصصًا كان مسرحُهَا أرجاءَ هذا القصرِ الجميل.

ينـسجونَ حولَهُ خيالاتٍ وقصصًا قريبة من الأحلام.

يـتوارثون قصصًا.. ويخترعون أخرى. فهم مـنذ مـئاتِ السنينَ يعيشون بعيدًا عن أهل القرى وسائر البلاد، لا يخرجونَ من قريتهم ولا يزورُهُمْ مِـنْ خارِجهـا أحـدٌ، لـيس عـندهم أجمل من هذا الأثـر لـيكون سـميراً لهم ورفيقًا على مدى الأيام والسنين..

كـانَ سُـكانُ القـرية بالرغم من كلِّ الوَدَاعَة التـي يـنعمونَ بهـا في محـيط قـريتهم، مِـن طبـيعة سَـاحِرَة خلَّابَةٍ وَهدوءٍ تامٍّ لا يَقطعه سِوَى صَوتِ زقزقةِ الطيورِ أو حفيفِ أوراقِ وأغصانِ الشَّجرِ.. يخشون الخروج من قريتهم التي تحيط بها الجدرانُ العالـيةُ، حمايـةً لهـم مِـنَ الأخطارِ الخارجيَّةِ، حتى إنهـمْ عندما أقاموا هذه الجُدُرَ لم يجعلوا لها أبوابًا.. فَبَدَتِ القريةُ وكأنها سجنٌ كبير..

❋ ❋ ❋

المشهدُ الثاني



أهـلُ القـريةِ، ومـنذ زمـانٍ بعـيد، يَخْـشَوْنَ الحـيواناتِ المفترسةَ والفتّاكةَ التي تملأ الجبلَ الذي يسكنون قمَّتَهُ. تَرْهَبُهم فكرةُ "الوحوش المرعِبة"، يعـتقدون أنهـا سـتجتاحُهُم لـو أزالـوا الجُدُرَ، أو سـتفتك بهـمْ في حـالِ خـروجِهِمْ خـارجَ أسْـوَارِ القريةِ.

وتحكـي الجـدَّاتُ للأحفـادِ في الأمْـسِيَاتِ، ومـن حـين إلى آخـر، قصـصًا كثـيرةً محـزنةً، عن اختفاءِ عددٍ من أبناءِ القريةِ الأشدّاءِ، الذين تجرَّأوا وغـادروا القـرية التـي تُـشْبِهُ الحـصنَ، وجَالوا في أمْكـنةٍ قـريبةٍ في جِـوَارِ قـريتهم للاسـتطلاعِ والمغَامَرَةِ..

لم يذهبوا إلى مَكانٍ بعيدٍ، لكنهم لم يعودوا إلى القريةِ منذ أن غادروها..

لم يجرؤْ أحدٌ بعدَ ذلك على الخروجِ للمغامرةِ أو حتى للبحثِ عنهم.

الناسُ في تلك القرية اقتنعوا مع مضِيِّ السنينَ والأجيالِ بأنَّ العالم كلَّهُ هو عالمُهم وَحْدُهُم فقطْ، فليسَ من أمكنةٍ خارج قريتهم يمكنهم أن يقصدُوها، ولا من طعَامٍ غير الطعامِ الذي يعرفونه.

لا شيء غير هذه الأسوار التي بناها أجدادُهم، لإبعاد خطر الحيواناتِ المفترسة.. ومنها الأفاعي والثعابين، التي لا تقوَى على تسلُّقِ جدرانِ السُّورِ المبنيةِ من صخورٍ ملساءَ شديدةِ الصَّلابة..

الخطرُ يَكْمُنَ وراءَ هذه الجدرانِ، والخير كُلُّهُ في ظلِّ حمايتها لهم..

أحــلامُ الانطــلاقِ خلــفَ تلــكَ الجــبالِ المحفـوفةِ بِالمخاطـرِ تقلَّـصَتْ، حتى أضحى مُجَرَّدُ التفكيرِ بذلكَ بدعةً غيرَ واردةٍ على الإطلاق، ولا يُستحسنُ مجـردُ التفكـير فـيها.. ويعاقـبُ عليها قانونُ القريةِ.

ذاكـرةُ الـتاريخِ مـستمدةٌ مـن آثـارِ القريةِ.. والجبالُ المحيطةُ بها تشهدُ لتاريخِها، وكأنها بِعُلوِّها المتناهي فوق كلِّ الجبال الرَّاسيَةِ من حولها، تسطعُ كـلَّ يـومٍ من أنجم الليلِ حين يغفو القمرُ.. وتبدأ النـسائمُ تـتراقصُ بـين الـتلالِ والوديانِ، تداعبُ أوراقَ الشجرِ..

تغنِّي أُغنياتِها الشهيرَة..

تمـلأُ الـنفسَ في كـلِّ الفصولِ بريقًا متجددًا يومًا إثر يوم.. وليلةً إثرَ ليلة.

تلـكَ هي الطبيعةُ تتحدثُ عن نفسِها، كأنَّها فـرقةٌ موسـيقيّةٌ واحِدَةٌ، متناغمةٌ، متناسقةٌ، تشغلُ نفسها بنفسها، دون تبجُّحٍ أو غُلُوٍّ أو عَمْلَقَة..

لأنَّها هكذا..

في رملها.. وفضائها..

في أعلاها وأسفلها..

ترسـمُ الحـياةَ بكـلِّ صُنُوفِها.. بِكلِّ هدوئِها وجَبَرُوتِها..

القريةُ مُزدحمةٌ بناسِها.. تُحِبُّهمْ ويحبُّونهَا..

لا يعــرفونَ غــيرَها، ولا يخــرجونَ مــنها،

اعتادوا على ذلك وتأْقلَمُوا، فصاروا جزءًا متأصلًا منْ ترابِ الأرض، ونباتها.. وَثِمارها..

النَّاسُ فيها مشغولونَ بكثرةِ أعمالهم، فكلُّ يومٍ جديد، يحاولونَ أن يجعلوا من هذه القرية التي يسكنونَ فيها أجملَ مكانٍ في العالم.. رغم أنهم لا يعرفون من العالم غيرَ ما فِي داخلِ الأسوارِ العاليةِ التي تحيطُ بِهِمْ.

أَهْلُ القريةِ يتحدثونَ عن سُلالاتٍ كثيرةٍ منَ الأفاعِي، مِن كلِّ الأحجَامِ وَالأشكالِ والألوانِ، تتلوَّى في كلِّ مكان ترصد فرائسَها..

يَرسُمونَ بَعْضَها عَلى سورِ القريةِ ليبَيِّنوا خَطَرَها، بأحجامِها الضخمةِ، وأشكالِها الغريبةِ، وألوانِها الفريدة.. بَعضُ المشاهد مَحفُورَةٌ على

الجَانبِ الدَّاخِليِّ مِنَ السُّورِ أو الأشكالِ الموضوعَةِ فَوْقَه.

مجسَّماتٌ تؤكدُ ضرورة ألّا يتجاوزَ أحدٌ هذه الأسوارَ المنيعةَ، لكي لا يصيبَهُ ما أصَابَ غيرَهُ من الـذينَ قامُـوا بتخطِّـي هـذه الحدود، مهما تمتَّعَ من شجاعةٍ في النفسِ وقوةٍ في الجَسَد.

هذه الأفاعِي هي عدوُّهم الأوَّل..

كانـوا يَحـذَرُونَهَا أشـدَّ الحَـذَرِ وَيَخَافونَ مِنْهَا أشدَّ الخَوْفِ، لِذا كَانوا يَحْتاطونَ مِنها ومنْ سُمِّها.

يَـستخرجون الـسُّمَّ مِن بَعضِ الأفاعِي التِي يجدونَهَا ميتةً قربَ أسوارِ قريتهم..

يترقبونَ من فوق الجدار..

ينتظرون أيَّامًا وأسابيع طويلة حتى يسعفهم

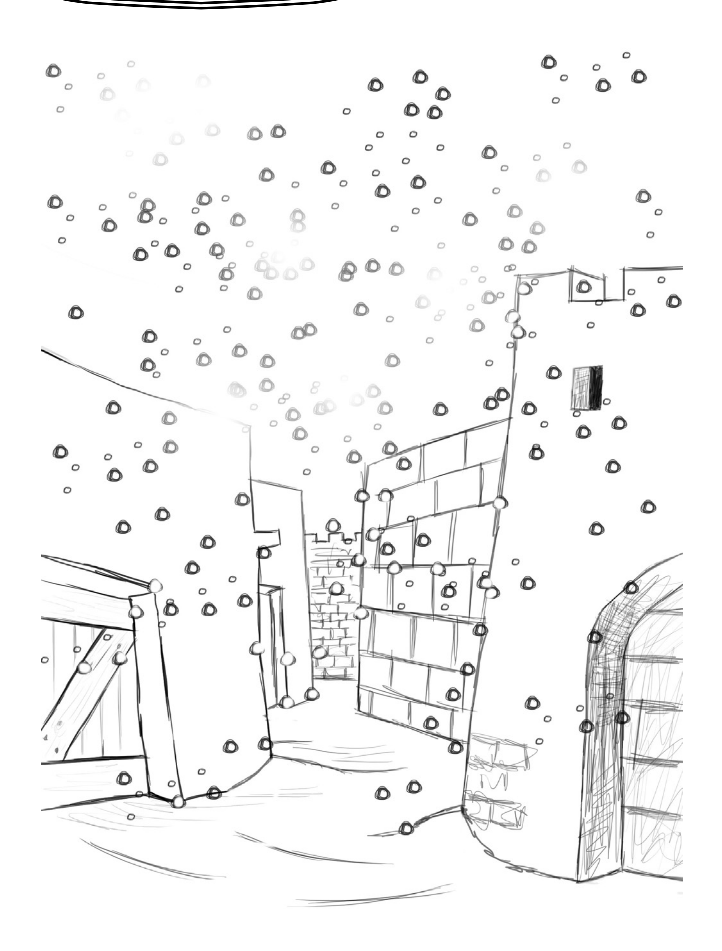
الحظ بموتِ أفعى في عِراكٍ أو فِي غيرِهِ قريبًا من الجدار، فَيرسلون عصًا طويلةً مصنوعةً من عدةِ أغصانٍ رفيعةٍ مستقيمةٍ يربطون أطرافَ بعضِها ببعضٍ بحبالٍ متينةٍ..

يلتقطون الأفْعَى الميتةَ بطرفِ هذه العصا المحدَّبة، يرفعونها إلى أعلى الجدار ليستخرجوا منها السُّمَّ، ثم يجعلونَهُ طُعْمًا لأطفالهم الصِّغارِ، حتى تتعوَّد دماؤهم عليه، فإذا تعرَّضوا لِلَدْغَةِ أفْعَى أو ثُعبَانٍ فِي يومٍ من الأيام فلا تَكُونُ اللَّدْغَةُ مُمِيتَةً..

غيرَ أنَّ هُناك قِصَصًا كانتِ الجَدَّاتُ تَرويها عن كثيرٍ مِمَّنْ تعرَّضُوا لِلَّدْغِ، وَلم يَصْمدوا أمام سُمِّ الأفاعِي الفتاكِ، ومع ذلك فليسَ لديهم أيُّ خيارٍ آخر.

* * *

المشهدُ الثالثُ



لم تكـنِ المَركباتُ القديمةُ التي تجُرُّها الخيولُ تَـصِلُ إلى قـريَتِهم لوجُودِهَا فوق قمة جبلٍ شديدِ الانحدارِ، تحيط بها غابات تمتدُّ من سفحِ الجبلِ إلى جِوارِ سورِها العالي.

كـما أنَّـهُ لم يكـنْ عـندَ أهل القرية خيولٌ ولا يعـرفونَهَا، بـل كانـوا يسمعون قِصصًا عن مخلوق خـرافيٍّ سريـعِ العـدوِ قَـوِيٍّ البنيةِ يمكنه أنْ يحملَ الناسَ ويطيرَ بهم.

يـتحدثونَ عـن طائـرٍ عجـيبٍ حمـل جدَّهم الأوَّلَ إلى هذا المكانِ بعدَ أن غضبَ عليه مَلكٌ من ملوكِ الزمان، وأبعدَه عن بلادِه إلى قمةِ هذا الجبلِ

عقابًـا لَـهُ.. حـيث اسـتقرَّ وعـاشَ زمـنًا طـويلًا، ومضت الأزمانُ حتى نَسِيَ كثيرٌ من الناسِ المعاناة الكبـيرةَ التـي عاشَـها جَـدُّهُمْ بـسببِ ظلمِ الملكِ الشِّرِّيرِ وحكايةِ الطائِر.. وصارت الأحداث مجرَّد قصةٍ من القِصَص.

وبعـد أنْ دارَ الـزَّمانُ دَورتَـهُ، أقـبلَ بَعـضُ الـنَّاسِ إلى هـذه القمَّـةِ وَسـكنوهَا، ثـم توارثـوا قصـصًا أُخْرَى عنِ القصرِ الذي بقيت بعض آثارِهِ صامدَةً رغم السنينَ الطويلة..

عاشَ كثيرٌ من الناس في جوار القصرِ، وكان أكثـر طعـامهم نباتًا، من خضرواتٍ يزرعونَها، أو مـن ثـمارٍ يَجْـنُونَها مـن الأشـجار التـي كانت تملأ المكان..

أمَّـا شرابُهُـمْ فهـو إمَّا منْ ماءِ ثمارِ جَوْزِ الهندِ الطـيِّبِ الطَّعْـمِ، وإمَّـا منْ ماءِ نبعٍ باردٍ في الصيف مثلجٍ في الشتاء..

وَألَـذُّ مَـا كانـوا يأكلـونَ؛ الطـيورُ التـي يـصطادونَها عـندما تمرُّ الأسْرَابُ المهاجرَةُ في سماءِ قَـرْيَتِهِمْ، وربَّـما احتفظوا بما اصطادوه حيًّا ليأكلوا بيـضَهُ أو لِـيُرَبُّوهُ إذا كان صغيرًا حتى يكبرَ وينموَ شَحْمُهُ وَيزدادَ لَحْمُه؛ فيأكلونه بعد شَيِّهِ بنارٍ خفيفة يوقدونها بحجرٍ يكثر في أرضِهم، يصدرُ شرارات نارٍ قويةٍ عندما يضربُ بحجرٍ مثلِهِ.

أمَّـا مَا لَدَيْهِم من حيواناتٍ صَغيرةٍ منْ ماعِزٍ وخـرافٍ فقد كان عددها قليلًا، لا يأكلونَ لَحْمَها إلّا عـندما لا يجـدونَ طعامًـا غيرَهُ يأكلونَهُ، خشيةَ

انقراضِـها، لأنهم كانوا يشربونَ حليبَها ويصنعونَ منه بعضَ الأطعمةِ اللذيذةِ..

أمَّا الدجاجُ فقد كان وافرَ العددِ..

يأكلـونَ لَحْمَـهُ وبيضَهُ، ويصْنعونَ من ريشِهِ أشكالًا من الثياب وأدواتِ الزينة.

وفي مواسِمِ الشتاء..

عـندَما تكـسو الـثلوجُ النَّاصـعَةُ البـياضِ المـرتفعاتِ والسهولَ والمنحدراتِ والوديانَ بثوبِهَا الأَبْـيَضِ، تـبدو الجـبالُ مـثل عروسٍ ليلةَ زِفافِها، فتمتلـئُ الأزقـةُ والـشوارعُ بالبـياضِ والـصَّقيعِ، ويـصبحُ التـنقلُ بـينَ بـيوتِ القـريةِ المتقاربةِ أمرًا عسيرًا..

عـندها يمكـثُ الناسُ أيامًا وليالِيَ طويلةً لا

يخرجونَ من بيوتِهم إلَّا عند الحاجةِ القُصْوَى، ولا يَذهبون إلى ساحةِ القريةِ الكبيرةِ مثل عادتهم مساء كلِّ ليلةٍ في غير مواسم الصقيعِ، فتهدأ القريةُ كلها، وتسْكنُ كلُّ تفاصيلها، ويخيِّمُ عليها الصَّمتُ والظلامُ..

لا صوتَ فيها غير صوتِ الريح.. ولا حركةَ فيها غير حركةِ الثلوج المتساقطةِ من السماء أو المتهاويَةِ من فوقِ التلالِ والمرتفعات.

❊ ❊ ❊

المشهدُ الرابعُ



عـلى هذه القمةِ الجبليةِ الجميلةِ البديعةِ، وفي تلـكَ القـريَةِ الـوَادِعَةِ الهَانـئةِ، نـشأ فتًـى يَافعٌ بينَ أقـرانِهِ الفِتيانِ، فخورًا بطلعتِهِ البهيّةِ وبنيتهِ القويَّة، فـلا يَسبقهُ منْ شَباب القرية أحدٌ في القوَّةِ والمهارَةِ وحسنِ الأدَب..

ومـنْ فرطِ حُبِّهِ للقريةِ ولشوارعِها وأزِقَّتها؛ نـادرًا مـا يفقـدُهُ أحـدٌ لـيومٍ كامـلٍ أو يومَيْنِ على الأكثر..

فالجميعُ يلتقونَ به من حينٍ لآخر..

وأهل القرية جميعًا يحبونَهُ لأَدبِهِ وحِرْصِهِ على مساعَدةِ الآخَرِينَ..

يلبِّـي نـداءَ المـرأةِ العجوزِ، فيقضي حاجاتِها ويحـضرُ لهـا طَلَـبَها، يقطـف ثـمارَ أشجارِ بستانِهَا ويكنسُ باحَةَ بَيْتِها..

يـبادرُ إلى الشَّيخِ الكبيرِ، وهو يسيرُ في طريقه حـاملًا بعـض الأغصان اليابسة ليشعلها في موقدِ دارِه، أو ليتدفأ بها في موسمِ الشتاءِ القارس..

يُـزِيلُ الأعـشابَ الضَّارَّةَ من طرقاتِ الناسِ ودروبهم..

يَحمـلُ مـصباحَ الـزيتِ في اللـيالي المظلمـةِ، عـندما يغـيبُ القمـرُ، ليـسلكَ العابـرونَ طرقهم بـسلام نحـو بيوتهم، وَهُمْ عائِدُونَ من عَمَلِهِمْ أو مِنْ زِيَاراتِهِم..

كانَ يَستشعرُ فرَحَ المُعَاوَنَةِ، والرِّضَى بإدخالِ

السُّرورِ والمسرَّاتِ إلى قلوبِ الآخرينَ.

فـمَا أجملَ أن يكونَ الإنسانُ "خادمًا"، يعملُ من أجلِ راحَةِ من يعرفُ ومن لا يَعْرِفُ..

كـمْ هِـي سـخيَّة الـيدُ التـي تمـسحُ دمعـةَ المحزونينَ.. والفمُ الذي يواسي جراحَ المكلُومِين.

ومَـا أنـبلَ تلـكَ الأنامِلَ التِي تنزعُ الأشواكَ حَتَّـى تَدْمَـى، فَـلا تُدْمِي أقدامَ العابرينَ.. وتزرعُ الـوردَ لتـزيِّنَ دروبَ المحبِّـينَ، ومـا منْ جمالٍ مثل قولهم: "سَيِّدُ القومِ خَادِمهُمْ".

وَكانَ هذا الفتى اليافعُ يسمعُ وهو فِي حِرَاكِهِ الـدائمِ الـدائِبِ في عَوْنِ الناسِ؛ بَعْضَ كبارِ السِّنِّ وَهُـمْ يروون قصةً يقولونَ إنَّها سَبَبُ وجودِهِمْ في هـذا المكـانِ على قِمَّةِ هَذا الجبلِ.. قصَّة رجلٍ كانَ

يعـيشُ عـلى رَبْـوَةٍ خَضْرَاءَ عاليةٍ، حيث تقع بقايا القصر..

ذلكَ القصر الذي يتوهّج تَحْتَ الشَّمْس..

يكادُ المتأمِّلُ يُسْحَرُ بمَرْأى سَماءٍ تَحْضِنهُ بِحُنُوٍّ وسَـكِينَةٍ.. وفِي اللَّيَالي يلمس نُجُومًا مُرْتَجِفَةً، تبدو من شرفاته دانيةً مثلَ ثِمارِ شَجَر..

يكـادُ عابـرٌ في عَتمَةِ دُروبٍ طويلةٍ لا يَحْتَاجُ إلى ضَوْءِ قِنْدِيلٍ أو شُعَاع سِرَاجٍ..

قـصصٌ كثـيرةٌ تـوارثَها الـنَّاسُ حـولَ هَـذا القـصرِ.. ومـنها قـصَّةُ حـاكمٍ ظـالمٍ وابنـتِهِ التـي رفضتِ الانصياعَ والطاعةَ والخضوعَ لظلمِ أبيها.

وهُنَاكَ حيثُ عاشتْ في قصرِها الشامِخ..

كـانَ يـنامُ القمـرُ وتغفـو العـصَافير بأمـانٍ وسـلام دونَ خَـوْفٍ مِنْ صَيَّادٍ غادرٍ بَغْتَةً أو طامعٍ جائرٍ..

كانـت الأرانِـبُ تسيرُ بخُشوعٍ آمنٍ في جوارِ الثعالبِ، وتَرْقُدُ الحِمْلانُ في سلامٍ قُرْبَ الضباعِ.

ومن هُناكَ..

مـن أعـلى سَـنامِ الـرَّبْوةِ كـان يطـل القـصرُ الحَجَريُّ القديمُ..

بـسقفه القـرْمِيد.. وجُدْرانهِ الصَّخْرِ وجبينهِ العالي وهامَته المُرْتَفِعَة..

وبمَــنارَته التــي تَخْـرُقُ الفـضاءَ، وتَرْمِــي بـشِبَاكِها حـيثُ تسكبُ أنوارًا بهيبةٍ وشموخٍ، بلا اسْتِئْذانٍ..

ومن هناكَ أيضًا..

كـانَ القـصْرُ يَنـشرُ بَهاءَه الباهرَ على الحَدائق والـتِّلال وَالـوِدْيانِ والُمروجِ.. مُعْلِنًا نَفْسَهُ حارِسًا أمينًا للوحةٍ فنيةٍ طبيعيَّةٍ سَاحِرَةٍ مُبْدِعَةٍ صَافِيَةٍ.

وفي الأيام الشتوية..

عـندما تَـتَكَدَّرُ الـسماء ويتغـيَّرُ لونُها؛ تغيبُ مـناراتُ القـصر الشامخةُ لِلعُلا بينَ غيومٍ مُتَكَدِّسَةٍ كَقُطْـنٍ حَالِـكٍ شَـدِيدِ السَّوادِ، تتَمَدَّدُ مِنْ فوْقَ إلى تَحْت، تَتَمَدَّدُ منْ أسفل إلى أعلى.. تبدو تِلالًا قُطْنِيَّة تَنْحَدرُ بقُوَّةٍ.

* * *

المشهدُ الخامس



وكان سَيِّدُ القصْرِ الأَوَّلُ رجلًا صالحًا، طيبَ القلـب، عـاليَ الهمَّـة، قـويَّ الإرادةِ، لا يَسْتَـسْلِمُ لجِـبَروتِ طبـيعةٍ.. كـما لم يستـسلم للظـروف القاسية..

كـان يَأْبَـى أَسْـتَارَ الـشتاءِ أنْ تَحجُـبَ أنوارًا مُرْسَـلَة جـذبًا لتائهـينَ ضـائعينَ فِي عـتمةِ لـيلٍ.. يطلبُهُمْ حثيثًا كما يطلبُ سراجُ نور فراشاتٍ هائمةً ترنو لدفءٍ وقبَسٍ مِن أمَلٍ.

عِـنْدَها يَـسْتَنْفِرُ خَـدَمُ القـصْرِ وَعَسَـسُهُ، يَـنْطَلِقُونَ بأمْـرِهِ، يَـزْرَعُونَ القـنَادِيل عَلى أطْرَافِ الجـبل.. فِي زَوَايَـا الطُّـرُقات وَالـدُّروب الوعرة،

إسْـعافًا لِعَابـري ليْلٍ كَالِحٍ مُتَجَهِّمٍ عَابِسٍ، وهديًا لتائهــينَ تَحْـتَ لَطْـمِ عَوَاصِـف.. ودَعْوَة لِمُشَرَّدِينَ بَاحِثِينَ عَنْ مَأْوًى وملجأٍ دافئٍ، يَلُوذُونَ بِهِ، يَقِيْهِمْ سِياطَ بَرْدٍ وَبَلَلَ شِتاءٍ وَقَرْصَةَ جُوْعٍ..

وَمَنْ يَعْرفُ الجوعَ؛ يدركُ أنَّ قسوتهُ فِي البَرْدِ أشدُّ وأمرُّ..

ذلـك الـرجل هـو نفسُهُ الذي أتى به الطائرُ الخرافيُّ من زمانٍ بعيدٍ..

حملـه الطائر مع زوجته إلى قمَّةِ الجبلِ النائِي منفيًّا من بلادٍ بعيدة..

حملـه بأمـر مَلـكٍ من ملوكِ الزمانِ، وأبعده عن أهله وأصدقائه وأحبّائه..

الملـكُ الـشريرُ أرادَ الاسْـتيلاءَ عـلى قـصرهِ الجمـيلِ الـذي يمـتاز بحجارتـه الـنادرةِ، ومكانهِ الفـريدِ، عـلى ربـوة حافلـةٍ بأنـواعٍ مـن الـورودِ والـرياحينِ؛ ولا يُمكـنُ العـثورُ على ما يتصف به من جَمالٍ في أنحاء مملكته..

كـانَ الحقـدُ والحـسدُ يتحكمان بقلبِ الملكِ الـشرِّير؛ كـيف يكـون لرجل في مملكته مهما علتْ مكانـتهُ مثل هذا القصر الذي يتميز بهاءً عن قصر الملك؟

وزاد مـنْ نقمـتهِ علـيهِ أنَّ الرجلَ كان محبوبًا عـند الـناس، مقـرَّبًا مـنهم، يساعدُ فقيرَهُم، يلبِّي حاجاتِهم، ويعينُ مرضاهُمْ، ويواسِي آلامَهُمْ..

إنَّ الطيـبة الإنـسانية التـي تولد مع الإنسان يفـتقدها في كلِّ زمانٍ وفي كل أرضٍ بعضُ البشرِ،

فيختلَّ عندهُم ميزانُ العدالَة، وتتسامى عندهم الشرورُ والآثامُ، وتنخفضُ في دستورهِم مكانةُ الإنسانيةِ بكل ما تحمله من سِمَاتٍ.. ربما يشاركهم في كثيرٍ منها سائرُ مخلوقاتِ الأرضِ..

لمْ يتوقف الملكُ الشرِّيرُ عندَ مجرَّدِ التهديدِ والوَعِيدِ.. ولم يتخلَّ عن هدفِهِ المنشودِ.. بلِ ازدادَ وَلَعُهُ بِمطلبِهِ واشتدَّ تَعَنُّتُهُ مع إصرارِ الرجلِ الطيِّبِ على التمسكِ بقصرِهِ، بالرغْمِ مِن أنَّ عروضَ الملكِ فاقَتِ الثمنَ الحقيقيَّ للقصرِ والأرضِ التي تحيطُ به.

عرضَ الملكُ الشِّرِّيرُ على الرجل الطيِّبِ شراءَ القصرِ، وأغراهُ بكثيرٍ منَ الياقوتِ والذهبِ والمرجانِ؛ فَرَفض..

خـيَّرَهُ بـينَ الـوجاهَةِ والغِنَـى والرِّياسَةِ، أو كلها معًا؛ فرفض..

لم يقـبل كـل مـا عرضه عليه بالترغيبِ تارةً وبالترهيب تارةً أخرى.

لم يكن قصرُه ولم تكنْ أرضُهُ مجالًا للمقايَضَةِ مقابلَ كلِّ ثرواتِ الأرضِ..

تلـك المـساحةُ الوسـيعةُ الممـتدةُ لعـشراتِ الأمتارِ على كتف الوادي، يخترقها نهر يفيضُ بالماءِ صـيفًا وشـتاءً.. ورثَهـا عـن أجـداده وبنى عليها قـصرَهَ الـشامِخ.. وفـاءً مـنه لمـن سبقه من أجيال اعتـنَوْا بالأرض وَعَمَّرُوها ورعَوْها، فما قصروا فِي رعايـتها وصـيانتِها وحمايَـتِها مـن كلِّ اعتداء، ولم يهملوها ولم يتخلَّوا عنها..

تلك المساحة على وسعها لم تكن هي الهدف بحدِّ ذاته بالنسبة للحاكم الظالم.. لأن الجشعَ هَمُّه، والسيطرةَ غايته.. أما الرجل فكانت القناعةُ حياتَهُ والكـبرياءُ سـلطانَهُ.. لا الوجاهةُ ولا السلطةُ ولا المالُ..

وظـلَّ الـرجل يعـانِي ظلمَ الحاكمِ وتضييقَهُ علـيهِ وعـلى عمّالِهِ زمنًا طويلًا أملًا منه بأَنْ يتوقف الحـاكم عـن غيِّه، ويقتنع بأنه لن يترك أرضه ولن يبـيعها لَهُ بأيِّ سعرٍ لأنَّها بالنسبة إليهِ لا قيمةَ ماليةً لها.. إلى أن قرر الحاكم تنفيذ مأربه..

وكانت ليلةٌ من ليالي الشتاءِ الباردة.. شديدةُ الظلام.. عاصفةُ الريح..

اقـتحمَ الجـنودُ قـصرَ الـرجلِ وقَبَضُوا عليه وكـبَّلوه بالحديـد.. قـادوه إلى قـاضي الملك مكبلَ

الـيدينِ والقدمـينِ.. أبلغـه القاضي أنهُ حكم عليه بالنفي لأنه رفض تحقيقَ أمرِ الملكِ..

قـال لـهُ إنَّـهُ يعطيهِ فرصةً أخيرةً للتنازُلِ عن قصرِهِ..

لكنَّ الرجلَ رفضَ ذلكَ بكبرياء..

وقالَ للقاضي:

"إذا أراد الملـكُ قـصرِي فلـيأخُذْهُ غـصبًا عني.. لكنه لن يحصل على موافقتي مهما فعل بي".

وتنفـيذًا لحكـمِ القاضي الجائرِ في قرارٍ اتخذه دون محاكمةٍ ولا قضيةٍ ولا تهمةٍ..

وبـناءً عـلى أوامِـرِ الملـكِ الظـالمِ، قـامَ طائرٌ خـرافِيٌّ عجيبٌ ضخمٌ، يسكنُ عشًّا هائلَ الحجمِ،

على شجرةٍ كثيفةِ الأغصانِ فِي حديقةِ قصرِ الملكِ، قامَ بحملِ الرجلِ على ظهرهِ ومعهُ زَوْجَتُهُ وأولادُهُ الصغارُ، وطارَ بِهِمْ إلى مكانٍ ناءٍ..

أمـرَ الملـكُ بعـضَ عمّالـهِ مـنَ الجِنِّ أنْ يبنوا للـرجلِ بيـتًا بسيطًا وصغيرًا على قمةِ الجبلِ العالي حيث نقله الطائر العجيب..

وقـال القـاضي للـرجلِ قـبل أن يختفـيَ من المكانِ:

"علـيكَ أنْ تـسكنَ في بيـتِكَ الجديـدِ حتـى تمـوتَ.. لأنهُ مكانٌ بعيدٌ ولن تستطيعَ الخروج منه والعودةَ إليهِ من جديدٍ"..

وأخبرَهُ أيضًا:

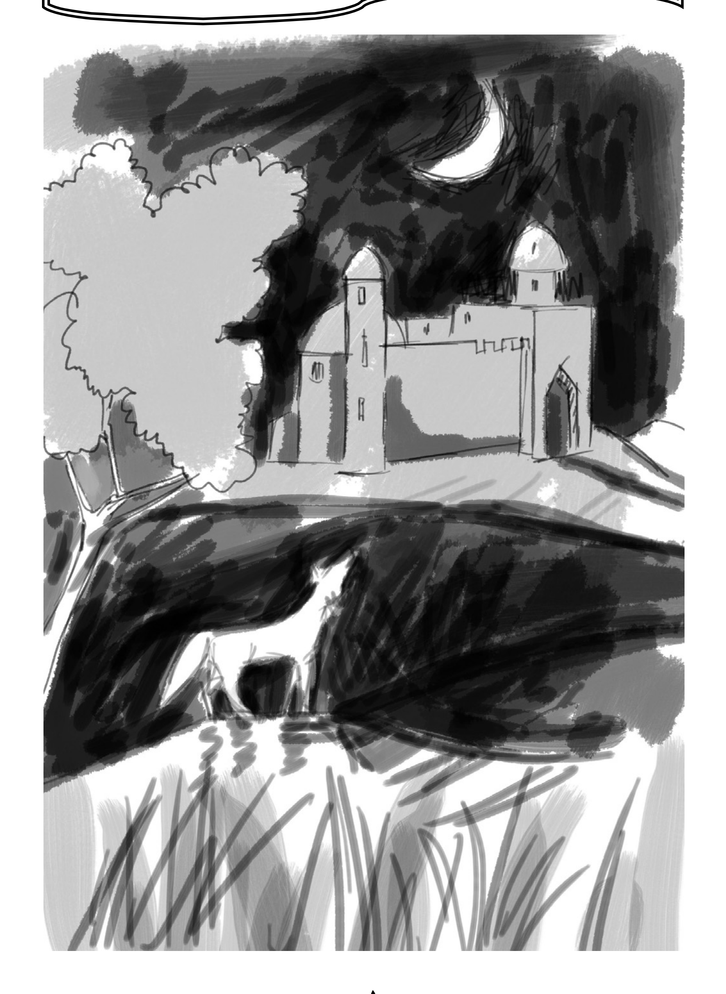
"بيـتُك الجديـدُ لـن يكـون أبدًا مثلَ قَصْرِكَ

الحـالي، بل سيكون صغيرًا، وعليك أن تقتنعَ بهذا الحكـمِ وأَلَّا تُفَكِّـرَ بالعـودةِ، وإلّا سـوفَ يُقْـضَى عليكَ".

فَـأذْعَنَ الـرَّجُلُ الطـيِّبُ لهذا الظُّلْمِ، وفضَّلَ النفـيَ الجائِـرَ على العيشِ بجوارِ حاكِمٍ ظالمٍ.. كما أنه لم يكن يملك خيارًا آخَر..

* * *

المشهدُ السادسُ



بعـدَ أنْ وصـلَ الطائـرُ الخـرافِيُّ العجـيبُ، وبـسرعةٍ كلمحِ البصرِ إلى مكانٍ لا يعرفُهُ أحدٌ منَ البَـشَرِ.. شرعَ عـمال الملـكِ الـشرِّيرِ ببـناءِ البـيت الجديد..

وخـلال أيامٍ قليلةٍ من العملِ المتواصِلِ ليلًا ونهـارًا أصـبح البـيت جاهـزًا.. لكنه في الحقيقة لم يكـن بيـتًا عاديًّـا.. وعندما شاهده الرجل أصيب بالدهـشةِ والسعادةِ.. وكانت المفاجأة أنَّ العمال لم يلتـزموا بأوامـرِ ملكِهم الشِّرير، وقاموا ببناءِ قصرٍ جمـيلٍ رائـعٍ، أجمـل مـن قصرِهِ الذي استولى عليه الملـك.. غُرَفُهُ وقاعاته كثيرة وواسعة، وأثاثُهُ يشبهُ أثاثَ قصرِهِ القديمِ..

كانـوا يعـرفون صـاحب القصر ويحترمُونَهُ، ويعـرفون أنَّ الملـك "ظَلَمَـهُ" عـندما استولى على قصرِهِ بالقوَّةِ ونفاهُ إلى هذا المكان النائي..

وقـفَ الـرجلُ عـلى شرفـةٍ مـن شرفـاتِ القصرِ.. تأمَّل البساتينَ المُمْتَدَّةَ..

كانتِ البساتينُ تَنتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي البَصَرُ..

المنظـرُ كان رائعًا جميلًا يملأُ القلبَ والنفسَ بهجةً وَحُبُورًا.. على عكس ما كان يأمل الملك..

تأمَّـلَ الواقـعَ بِغُـصَّةٍ.. كانَ يأملُ أنْ تتملَّكَهُ قُـوَّةٌ مَـا تتمتع بقوةٍ جاذبةٍ. تجرُّهُ إلى حيث يجبُ أنْ يكـونَ.. لَعَـلَّ ريحًا عاتيةً تأتِي من بعيد، تنزعه من مكانـه، وتحملـه إلى حيث كان.. تلقيه في الأرض التي يحبُّ.

لكـــنْ.. هـــيهات هـــيهات أنْ تـــأتيَ ريـــح يتمـنَّاها.. وأن يتغـيرَ واقـعٌ لا يـريدُ هُوَ بِنَفْسِهِ أنْ يُغَيِّرَهُ وَيُبَدِّلَهُ.

فهـل تتغـيرُ الأحوالُ من غيرِ إرادة ويتحققُ انتصارٌ من غيرِ قتال؟

وكـمْ مـنْ متأمِّلٍ ضاعتْ منهُ آمالٌ وتناهتْ عَـنْهُ أَحْـلامٌ.. يظنُّ مخطئًا أنَّ الآمالَ ستأتيهِ عَفْوًا، وأنَّ الأحلامَ ستتحقَّقُ دون أن يجهد فكراً أو يبذلَ عَمَلًا.

هـو يعلـمُ أَنَّهُ: ما نالَ غايتَهُ من عوَّل الآمالَ عـلى ريـحٍ صرصرٍ عاتـيةٍ.. أو مـن طلـب الماء في صحراء قاحلة.. أو من صخرَةٍ صَمَّاءَ جَامِدَةٍ.

إنَّ الرِّيحَ التي تمرُّ تمضِي في طريقها بكبرياء..

لا تـسأل عـن محـبٍّ أو مـبغضٍ، هي تحمل العبير وضـدَّه.. وتـسيرُ بلا نهاية.. بلا حدودٍ أو هدفٍ، تتنقلُ من بلادٍ إلى بلادٍ دون كللٍ أو مللٍ.. تمرُّ على أسـطح بـيوت الأغنـياءِ كما تمرُّ على أسطح بيوت الفقراء..

سِيَّانِ عندَها ما بينَ زهرِ الربيعِ أو شَوْكِهِ..

هـيَ تمـضِي، وتـدور حـول الكُرَةِ الأرضيَّةِ، تقطـعُ المـسافاتِ دونَ انقطاعٍ.. ولا تعبأُ بكلِّ من تصادفُهُ فِي طريقِها..

وإلى سـفحِ الجـبلِ وصـلَ بعضُ أهلِ الباديَةِ يحملونَ خيامَهُمُ المُتَنَقِّلَةَ..

شـاهدوا القـصرَ المـستجدَّ على رأس القمَّةِ، فـسارعوا إلى صـعودِ المرتفعِ رغم صعوبةِ التسلُّقِ ووعورَةِ المَنْحَدَر..

حَمَلُوا معهم بعض الماشيةِ والحيواناتِ الداجنة.

وعندما بلغوا المكان وجدوا أرضًا طيبةً، وماءً عذبًا.

راحوا يرجونَ الرجلَ الطيبَ أن يقبلَ بأن يعملوا في الأرضِ مقابلَ أن يسمح لهم بالسكن الدائم في هذا المكانِ الجميلِ، ظنًّا منهمْ أنَّ القمةَ والبساتينَ التي تحيط بالقصر هي ملكه..

كانت الأرض تلك الأيام حرةً منطلقةً لا يملكها أَحَدٌ.. وهو أول إنسان يطأ القمةَ ويسكن فيها..

بدأ العُمَّال الجُدُدُ يَعْمَلُونَ ليلًا ونهارًا دُونَ مَلَلٍ..

يَزْرَعُونَ أنواعاً مِنْ أشْهَى فاكهةٍ وخُضْرَوَاتٍ..

أَرْضُ الـرَّبْوَةِ خَـصْبَة، لَا تَبْخَلُ بشَيْءٍ مِمَّا فِي أَحْشَائِها، ولَا تَحْتَاجُ سَهادًا وَلَا جُهْدًا كَبيرًا.

المَـاءُ يَـسِيلُ مـن حـولها مِـنْ كـُـلِّ صَـوْبٍ. العشبُ الضارُّ لَا يَنْبَتُ بِهَا..

ترَابُها نَظيفٌ.. فاكِهتُهَا لذيذةٌ.. كُلُّ ما عَلَيْهَا يُعْجِـزُ وَاصِـفًا عَـنْ وَصْفِهِ، وَسَاحِرًا عَنْ سِحْرِهِ، وَفَنَّانًا عَنْ فَنِّهِ، وَشَاعرًا عَنْ شِعرِه..

فِي الـربوةِ العالية على قمة الجبل حَرَكَة دَائِبَة جَـادّةٌ مُـنْهَمِكَة، أعْـمَالٌ مُـسْتَمرَّةٌ لا تَتوقَّف، مِثْلُ خَلِيَّةِ نَحْلٍ أو ثُكْنَةِ جَيْشٍ.

المالـكُ الجديـدُ هَـادئٌ رَزيـنٌ، حَلـيمٌ وَقورٌ رَصينٌ.. لَطِيفٌ فِي تَعَامُلِهِ، سَعِيدٌ مُبْتَسمٌ بَشُوشٌ.. العُـمَّال يُحبُّونَهُ.. الأزْهَار والأشْجَارُ والفرَاشاتُ.. حَتَّـى حَيَوَانَاتُ الزَّرَائِبِ عِنْدَمَا تَشُمُّ رَائِحَتَهُ تُطْلِقُ

أصْـوَاتًا تَـدُلُّ عَـلى الرِّضَى والسرور.. وكُلُّ ما فِي القـصْرِ كـان يُحِـبُّ الـسيِّدَ الكَـرِيمَ. هُـوَ لَا يُفَرِّقُ بَيْـنَهُمْ.. يُـسَاويهم بنَفْـسِهِ، فِي كـلِّ مشْربٍ ومَأْكَلٍ وَمَلْبَسٍ، طَعَامُهمْ طعامُهُ، ثِيَابُهُمْ ثِيَابُهُ، لو شَاهَدْتَهُ بـرفقتِهمْ مـا فـرَّقْتَ بَيْنَهُم وبَيْنَهُ.. لَا يَبْخَلُ عَليهمْ بعطاءٍ.. لَا يُهينُهمْ.. لَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطيقُون..

وعَـلى هَـذِهِ الحـالِ عَـاشَ العـمال واستقرُّوا بعدما كانوا من البدوِ الرُّحَّلِ ينتقلونَ من مكان إلى مكـان بحـثًا عـن الماء والطعام.. وانقضتِ الأيام بِـوئامٍ وَسَـلام دُونَ أنْ تُكَـدِّرَ صَفْوَ حَيَاتِهِمْ شَائِبَةٌ ولا عِلَّة.

ومَـرَّت الـسِّنونَ وهم هَانِئون سُعداء، لَيْسَ لديهم مَا يُقْلِقُ مِنْ مُزْعِجَاتٍ..

* * *

المشهدُ السابعُ



تَوَالتِ الليالي آمنةً مُسْتقِرَّةً.. وما أجمل الحياة عندما يسودها الأمن والحب والعطاء.. بعيدًا عن الشرِّ والظلم والإساءَة للآخرين.

تلـك أشـياءُ كانـت تمـلأ أرجـاء القـصر وبساتينه..

كَـبُرَ سَـيِّدُ القصْرِ.. وبَلَغَ أولادُهُ سِنَّ الفُتُوَّةِ وَالشبَاب.. وسَارَ الأبناءُ عَلى مِنْوَالِ أبيهمْ..

الخَـيرُ عـندما يُزرعُ بيدٍ طيبةٍ وفي أرضٍ طيبةٍ يُنبتُ طيبًا وخيرًا وفيرًا.

عَمِلـُـوا بأيـديهمْ، لَمْ يُمَيِّـزُوا أنْفـُـسَهُمْ عَـنْ غيْرِهِمْ مِنْ عُمَّال القَصْر وَزَارِعِي حَدَائِقِهِ.. لَمْ يَكُنْ زَائِـرٌ يُفـرِّقُ بَيْـنَهُمْ وَبَـيْنَ أصْغَرِ عَاملٍ فِي القصْرِ،

وعَــاشَ الجَمــيعُ أيَّــامَهُمْ بهُـــدُوءٍ يَــزْرَعُونَ ويَحْصُدُونَ..

كَانَتْ أعْدَادُ العمال تَزْدَادُ عامًا بعد عام.. إمَّا بـأوْلادٍ جُـدُدٍ أو بعُـمَّالٍ جُدُدٍ.. وسيد القصْرِ كان يَبْني لعُمَّالِهِ بيوتًا حولَ قصرِهِ، تَبْدُو للرَّائِي قصورًا مُـصَغَّرةً عَـنِ القـصْر الكَبير.. لَمْ يَفعَلْ ذلِكَ إبْعَادًا لهُـمْ عَنْ قصْرِهِ.. بَلْ لأنَّ قصْرَهُ ضاقَ بسَاكِنِيهِ، كَمَا أنَّـهُ أرَادَ لهُـمْ أنْ يتزوجوا ويَسْتَقِلُّوا ببُيوتٍ خَاصَّةٍ وَيَعِيـشُوا حَـيَاةً طَبيعـيةً.. يـريدُ أن يمـلأ حياتَهم بالـسعادة، وأن يمـلأ بـسعادتِهم مـساحةَ قلـبه الكبـير.. الـذي مـا فـتِـئَ يحـنُّ إلى بلادِهِ وقصرِهِ القـديمِ.. فـلا شَيْءَ يغنـي عـن الوطن.. حتى لو اجتمعت كنوزُ الأرض لتكون له بدلًا..

ورغـمَ أنَّ الـرَّجلَ الطَّـيِّبَ صـارَ يعـرفهم جمـيعًا.. فإنهم لم يكن لديهم أي خبر عن زوجته..

هـم يعـرفون أنهـا موجودة في القصر.. وفي جناح خـاص بهـا.. لكـنها لم تكـن تَظْهَرُ أَبَدًا، وَحتّى لا تلتقي بأيٍّ من نساء العمال أو بناتهن..

ومـع الأيـام لم يعـد هـؤلاء الـبدو رحـلًا، وتحـوّلت القمـةُ الجبلـيةُ المقفـرةُ إلى قـرية صغيرة جميلة تضجُّ بالحياة..

وكـان أهـلُ القـريةِ الجديـدةِ يتـساءلونَ فيما بيـنهم عـن سرِّ زوجـةِ الـرجلِ الطيب، ولماذا لا تظهر على الناس؟

فطلـب بَعْـضُ النِّسَاء إذنًـا لِـزِيَارَتِها مرّاتٍ كثـيرةً، لكـن طَلَـبَهُنَّ كـان يُـردُّ دَائِـمًا بلُطْفٍ جمٍّ وأدب بالغٍ. وكُنَّ يَتَعَجَّبْنَ مِنْ ذلك، فَيَتَسَاءَلنَ عَنْ سَيِّدَةِ القصْرِ الَّتِي لا تَخْرُجُ مِنْ جَنَاحِهَا وَلَا يَعْرِفُهُا أَحَـدٌ، ومـع مُـضِيِّ الأَيَّـام خَبَا وخَفَّ كُلُّ حديثٍ

عَنْهَا، وَكَادَ النَّاسُ يَنْسَونَ وجُودَها وَلَمْ يَعُدْ الكلامُ عَنْهَا رَائِجًا وسَائِدًا..

إلى أن حدث أمر صبغَ الواقعَ الجميلَ بلونٍ جديدٍ مليءٍ بالحزنِ.

ففي ليلةٍ صَيْفِيَّةٍ من ليالي الصيف الحارَّة، وفي وقتٍ مُتَأَخِّرٍ..

وقت تتجمدُ فيه أصْواتُ البَرِّيَّةِ وَتقف النَّسَائِمُ سَاكِنَةً.. وتتوقف الطيُور عن غنائها وَالحَشَرَاتُ عن حركتِها الدائبَة.. شَقَّ صَمْتًا بديعًا رائعًا مِثلَ صَاعِقةٍ مُدَوِّيَةٍ..

انفجَرَتْ مِنْ ذاكَ قلب الجناحِ المَنْسِيِّ المُحَرَّم على ساكنِي القصْرِ وحدائِقِهِ..

صَرْخَةٌ وَاحِدةٌ كانت كَافِيَة لِتُوقِظَ الجميع.. وأشَاعَتْ رُعْبًا وَخَوْفًا وَهَلعًا..

صَرْخَةٌ يَتِيمَةٌ جَعَلَتهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهِمْ فِي ثِيَابِ نَوْمهم يركُضونَ نَحْوَ القصر هَلِعِينَ خَائِفِينَ فزِعينَ..

الصوتُ انبعثَ مِنَ الجَناحِ المُحَرَّم..

تحلَّقوا حول القصر يترقبون نَبَأً جَللًا عَظِيمًا..

يَا تُرَى مَا هَذا الخَطْبُ والمَكْرُوهُ الكَبيرُ وَالمَوْقِفُ الخَطِيرُ الذي دَفْعَ سَيِّدَ القصْرِ لِلصُّرَاخ بهَذا الشَّكلِ المُريع المُخِيفِ؟!

تجمهر النَّاسُ حول القصْرِ... ولَمْ يَجْرُؤْ وَاحدٌ مِنْهُمْ علَى دُخُولِهِ..

كَانُوا يَسْمَعُونَ صَوْتَ صياح سَيِّدِهِمْ، لكنْ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمْ دُخُول الجَنَاحِ المُحَرَّم حيث مصدر الصوت..

ظَلُّـوا وَاجمـين بـصمتٍ يَتَرَقّـبُونَ وكأنَّ على رؤوسِهِمْ طيرٌ، وأعينهم مَشْدُودةٌ بلهفة تجاه نوَافِذِ القَصْرِ.

انْتَظَـروا حَتَّـى بَـدَأتْ أشِعَّةُ الشَّمْس تَتَكَوَّمُ بَعيداً ثُمَّ تَتَسَلَّلُ مِنْ وَرَاءِ أكَمَةٍ بَعيدةٍ..

بـدأ الـشعاع يَنْبَـسِطُ غَامِـرًا تـلالًا وَوُدِيانًـا وَسُـــهُولًا.. لكِنَّهُمْ ظَلُّوا مُـــسَمَّرينَ ثابتينَ فِي أمَاكِـنِهِمْ، كَـأنَّ الحَـيَاةَ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ صَرْخَةٍ شَقَّتْ عَنَانَ السَّمَاءِ..

صَرْخَـة مَـا بـرحت تَتَرَدَّدُ فِي آذانٍ مُضْطرِبَةٍ تَرَكَتْ أثرًا فِي وُجُوهٍ وَاجِمَةٍ عَابِسَةٍ مِنْ شدَّةِ الهَمِّ.

* * *

المشهدُ الثامنُ



عِـنْدَ ارْتِفَـاعِ قُـرْص الـشَّمْسِ، شَعَرَ النَّاسُ بحَرَكَةٍ مُرِيبَةٍ.. تَرقَّبُوا.. أرْهَفُوا أسْمَاعَهُمْ..

تـسَلَّلَتْ خَادِمَـة صَـغِيْرَةُ الـسنِّ.. سَـلَكَتْ أَبْوَابًا خَلْفِيَّةً لِلقصْرِ، نَقلتْ إليْهِمْ جملةً قصيرةً:

"سَيِّدَةُ القصْرِ مَاتَتْ.. سَيِّدَةُ القَصْرِ مَاتَتْ".

تَعَالَتْ أَصْوَاتُ البُكَاء.. الدُّمُوعُ تَسَاقطتْ.. بَكَوا كَأطْفَالٍ صِغَارٍ..

تَعَالـتِ الأَصْواتُ بالبُكاءِ مَعَ أنَّ أحَدًا منهم لَمْ يَرَ وَجهَ "المَرْحومَةِ" فِي حَيَاتِهِ..

كَانَتْ لُغْزًا مُحَيِّرًا، مِثلَمَا هُوَ مَوْتُهَا الآنَ.. ومَعَ ذلِـكَ تَأثـرُوا وفاءً للرجلِ الطيِّبِ وَأَبْنَائِهِ.. رَفَعُوا

الأكُفَّ بالدعاء.. سَألوا اللهَ لهَا الرَّحْمَةَ.. لم يغادروا أماكنهم رغمَ اشتدادِ حرارَةِ الشمس..

انْتَظَرُوا تَشْييعَ الجثة.. ترقَّبُوا خُرُوجَها لِيَدْفُنُوها في مقبرة قريبة.. ويُقِيمُوا لها وَاجِبَ عَزَاءٍ كَبيرٍ يَلِيقُ بِهَا وَبزَوْجِهَا.. مَضَت ساعات طويلة ولمْ تَخْرُجِ الجثة.. انْتَظَرُوا النَّهارَ كُلَّهُ.. تَعِبوا وجَاعوا.. لكِنَّهُمْ ظَلُّوا وَاقِفِينَ منْتَظرينَ مُتَرَقِّبينَ.. ثم أَتَى المَساءُ ثقِيلًا.. فعادُوا إِلَى بُيُوتِهمْ قسْرًا مُرْغَمِين.

وفِي صَبَاحٍ بَاكِرٍ تَالٍ.. خَرَجَ الأبْنَاءُ كَعادَتِهمْ كَأنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ.. تَوَجَّهُوا للعَمَلِ مَع العمال دُونَ أنْ يَتكَلَّمُوا كلِمَة وَاحِدَة.. كَمَا أنَّ أحَدًا لَمْ يَسْألْ سُؤالًا وَاحِدًا..

انْـــصَرَفَ عُمَّـــالُ البَـــسَاتِين وَالحَدَائِـــق والـزَّرَائِبِ.. كُـلٌّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ.. تَبَادَلُوا النَّظَرَاتِ، تَرَقَّبُوا خُرُوجَ سَيِّدِهِمْ، لكِنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ طوَالَ اليَوْم..

ومـضى يَوْمٌ.. ويَوْمَان.. وثلاثة.. ثم مضت أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ.. والحَالُ عَلى مَا هِي عَليْهِ..

الرجلُ الطَّيِّبُ غَائِبٌ عَنْ مَزَارعِهِ وعُمَّـالِه..

وبَعْـدَ بـضعةِ أسابيعَ، وَفِي يَوْمٍ شَديدِ الحَرِّ.. وَدُونَ تَوقُّـعٍ، ظهـرَ الـرجلُ رَاكِـبًا فرَسًـا.. يَحْمِلُ بيَمِينِهِ سَوْطًا رآهُ عُمَّـالُهُ لأوَّلِ مَرَّةٍ..

لَمْ يَكَدْ هؤلاءِ يَرَوْنَ سَيِّدَهُمْ حَتَّى توقَّفُوا عَن العَمَـلِ وركضوا نَحْوَهُ بسَعادَةٍ عَفويَّةٍ، وبدلًا من أن يقـابلَهم بـشوق مماثـل؛ انهـال عَلـيْهم بسَوْطِهِ يوسعُهُم ضَرْبًا، وَشَتَمَهُمْ سَاخِطًا وأمرهم بالعَوْدَةِ إلى عَمَلِهِمْ..

تفاجأ هؤلاءِ من موقف سيدهم غير المفهوم ولا المبرَّر..

تَغَـيَّرَتْ أحْـوَالُهُ وانقلبتْ رَأسًا عَلى عَقِبٍ.. بـدا وَجْهُـهُ قبـيحًا دَمِـيمًا.. تبَدَّلَ مِنْ إنْسَانٍ هَادِئ قَلْـبُهُ طَيِّبٌ وطَبْعُهُ وَدُودٌ إلى شخص شَرِسٍ عَنيفٍ قاسٍ سَيِّئ..

أولادُهُ هـم أيـضاً كان ينَالـهُمْ من الضربِ والشتمِ ما أصابَ غيرَهم..

وازْدَادَتْ تَصَرُّفاتُهُ سوءًا يومًا بَعْدَ يَوْمٍ وَكأنَّ روحًا شِرِّيرَة تَلَبَّسَتْهُ.

تَعَجَّـبَ الجَميعُ مِـمَّـا يحدُثُ، ولمْ يجرؤ أحدٌ عَلى صَدِّهِ ومَنْعِهِ، حَتَّى أوْلادُهُ طَرَدَهُمْ مِنَ القصْرِ، فسَكَنُوا بُيوتَ العُمال..

لمْ يَعْتَرِضْ أحدٌ ولم يواجِهه أحدٌ..

تَحَمَّلوا تَصَرُّفاتِهِ تقديرًا منهمْ للصَّدْمَةِ الهَائِلةِ الَّتِـي ألـمَّـتْ بِـهِ بِـوَفاةِ زَوْجـهِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ سـعادَةٍ وفـرحٍ تلـيدٍ قديمٍ.. فقد كانَ مَوْتُها شرارةَ نَارٍ أوْقدَتْ جـمرَ قلبِهِ وَأحْرَقتْ كُلَّ شَيءٍ جَمِيلٍ فِي نَفْسِهِ.

كـان أولاده يعـرفون مقـدار حـب أبـيهم لأمهـم.. صـاروا يعـتذرون من العمال ويحاولون التخفـيفَ عـنهم، وكـشفوا لهم أنَّ أمَّهم هيَ التي كانـت تـسجن نفـسَها في غـرفتها ولا تقـبل لقاء أحد..

أخـبروهم بقـصة الملـك الشرِّيرِ، وأن أمَّهُمْ بعـدما سـكنت هـذا المكـان أصيبتْ بحزنٍ شديدٍ

وكآبـةٍ عظـيمةٍ، خاصـةً لأنهـا فقدت أبَاها وأمَّها وأفـراد أسْرَتِهـا، وسـكنت في هـذا المكان مرغمةً وحـيدةً لفـترةٍ طـويلةٍ.. فأصـبحت تخاف من كل شيءٍ، حتى من الهواء فلا تفتح نافذة غرفتها..

وبعــدَ أنْ تَجَمَّــعَ الــناسُ في هــذهِ القمَّــةِ وسـكنوها ظلَّـتْ سـيدةُ القـصرِ ترفضُ رؤية أيِّ كان..

كانت حياتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، حتى ماتــت فجـأة، وخـسر أبـوهم بموتها حبَّه الوحيد وسـبب مـا كان يجعله متمسكًا بالحياة، وشعر أنَّهُ أضــاعَ أجمـل ذكـرياتِ حياتِه، وفقد ما كان يربطه بمـاضيه السعيد.

* * *

المشهدُ التاسعُ



وَمَـرَّتْ أَيَّـامٌ طـويلةٌ.. صـارت تَـصرَفاتُ الـرَّجُلِ تَـزْدَادُ حـدَّةً يَـوْمًا بَعْـدَ يَـوْمٍ.. وتطايرَتِ الأَخْـبَارُ مِنْ مَكَانٍ إلى مَكَانٍ.. فتَحَدَّثَ النّاسُ عَنْ قـصة الـرجل فِي قُـرًى وَبـلادٍ بعـيدة.. تَعَاطَـفَ بعـضُهم مَعَـهُ وَاسْـتَغْرَبَ آخـرون.. كـما اسـتاءَ الـبعضُ مـن اسـتبدالِهِ القـسوةَ والظلـمَ بالـرِّفْقِ والطيبةِ والرَّحْمَةِ..

حَـاوَلَ أَبْنَاؤهُ جاهدين إنقاذ أبيهمْ مِنْ كَرْبِهِ، لكِنَّهُ كَانَ صَلْبًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ.

لَمْ يَتَخَلَّ الأَبْنَاءُ عَنْهُ ومعهم بعضُ المُخْلِصينَ وَالأَوْفِـيَاء.. صَـبَرُوا عَـلى ظُلْـم سَـيِّدِهِم الحادِثِ

الْمُـسْتَجِدِّ وَتَحَمَّلـوا اسْـتِبْدَادَهُ وحتـى جنونَهُ.. أمّا سَـائِرُ العُــمَّالِ فـرَحَلوا هَاربِـينَ مِـنْ "جـبروت" سَـيِّدِهِمُ الَّذي يُحِبُّونَهُ، وَرَاح معظمهم يَبْحَثُ عَنْ مَصْدَرِ رِزْقٍ جَدِيدٍ لَهُمْ وَلِأولَادِهِمْ..

صَــبَرُوا زَمَــنًا طَــويلًا، وتَحَمَّلــوا الأذى وَالـسخْطَ.. وَلَمَـا يَئِـسوا مِـنْ صَـلَاح أَمْرِ سَيِّدِهِمْ حَمَلُوا أَمْتِعَتَهُمْ وَرَحَلُوا مُضْطَرِّينَ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ تَهْـدَأَ نَفْـسُهُ ويَطِـيبَ خَاطِرُهُ وَيَعُودَ إلى عَهدِهِ بَعْدَ زَوَالِ أَحْـزَانٍ شَـحَنَتْ قلـبَهُ غَـضَبًا وَكَمَدًا وحُزنًا شديدًا.

وسـارَت الأَيَّـام سَــــيْرَ سُلَحْفَاةٍ عَجُوزٍ.. مَـضَتْ ثِقِـيلةً ثِقِـيلةً.. البَـسَاتِينُ الغَـنّاءُ العَامِـرَةُ والْمُـروج الخَـضْرَاءُ تحوَّلَتْ إلى هَشِيمٍ يَابس النَّبَاتِ

والـشَّجَرِ، جَفَّت الضُّرُوعُ، وحَلَّ عُبوسٌ.. وَتَجَهَّمَ المَكَـانُ بعـد بَـسْطٍ وَانْـشِرَاحٍ.. الهَـوَاءُ بات كَئيبًا، والنسيمُ حزينًا.. وبَدَتِ الربوة أرْضًا مَهْجُورةً مِنْ زَمَـنٍ.. وكـأن المَـاءَ نـضبَ وانقطـعَ، والهَوَاءَ نَتَنَ وفسَدَ، والتُّرَابَ الطَّريَّ النديّ تصحَّر وتلبَّد..

لَمْ يَجْسُرْ أحَـدٌ ـ ممـن فـضَّل الـبقاء ورفـض الـرحيل ـ عـلى مُخَاطَـبَةِ الـرجل الطـيب، الـذي أضحى كجلمودِ صخرٍ أو أشدَّ قسوةً..

حَتَّـى أولادُهُ انْقطَـعَ تواصـله معهم؛ كانوا عِـنْدَمَا يَـرَوْنَهُ هادئًا يَعْتَقِدُونَ أنَّهُ عاد كَمَا عَهدُوهُ.. لكـنه لا يلـبث حتـى يَنْفجـرَ بُـرْكَانًا غَاضبًا يَشْتَدُّ ضَراوة ووَحْشِيَّةً وقسْوَةَ وَجَوْرًا وظُلْمًا..

أصبحَ القصرُ هاجِسًا..

لَمْ يَعُـدْ هُنَاكَ مَنْ يَلْوذ بِهِ ساعَةَ ضِيقٍ.. وبعدَ أن كـانَ مـصدرَ الأفـراحِ والمـسرَّاتِ أصـبحَ مقرَّ الأحــزانِ والآلامِ.. وكَانَــتْ صَــيْحَاتُ الــرَّجُلِ الحزين تَخْرُقُ سَكِيْنَةَ المكانِ وهيْبَتَهُ، فيَتَرَدَّدُ صَدَاهَا لِيُجَاوِزَ تِلالًا وَوُدْيَانًا مُجَاورة.

تَـنَاقلَ الـناسُ الخَـبَرَ.. حَتَّى وَصَلَ إلى بلادٍ بَعِيدةٍ.. إلى صديق الطفولةِ والصِّبَا..

صــديقُ عَهْـدٍ قـديمٍ كَـانَ يَعِـيشُ فِي قـصر الـرجل الطيب يَوْمَ كَانَ طِفلًا.. عَاشَ طُفُولَتَهُ مع صَدِيقهِ الَّذِي كَانَ خَادِمًا وَنَديمًا أنيسًا.

عَـرَفَ الـرَّجُلُ سَـبَبَ غَضَبِ صَدِيقِهِ، كَانَ يكـرهُ الموتَ، يُنكر مَوْتَ مَنْ يُحِبّ.. تذكر أنَّه فقدَ أمَّـهُ صـغيرًا كـما فقـدَ أبـاهُ وهـو في سـنِّ اليفاعةِ

والشبابِ.. خافَ على زَوْجِهِ في محبَسِهَا فِي جَنَاحِها من أن تُصابَ بسُوْءٍ..

لكِـنْ كَـيفَ يَفـرُّ إنْـسَانٌ مِنَ القدَر؟ وساعةُ الموتِ لا رَادَّ لها.

وهذا الصديقُ كانَ أَكْبَرَ مِنْهُ بِسَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ.. كَـانَ ابنًا لِمُزَارِعٍ يَعْمَلُ عِنْدَ أبيهِ.. كَانَتْ لهُـمَا أَحْلامٌ كَبِـيرةٌ.. وعـندما بَلْغَـا سِنَّ الفُتُوَّةِ وَالشَّبَابِ غادَرَ الـصديقُ الطمـوحُ قصرَ صَديقِهِ ومَزَارِعَهُ إلى بلادٍ بعيدَة..

عمـلَ نهـارًا ولـيلًا حَتَّـى بَلـغَ مَكَانَة عَالِيَه، وَأصْبَحَ غَنِيًّا مِثلَ صَدِيقِهِ.. وانقطعت الصِّلة بَيْنَهُمَا لبُعْدِ المَسَافةِ وَمَشَاغِلِ الحَيَاةِ.. لكن عِنْدَمَا وَصَلتْ الأَخْـبَار إلـيْهِ تذَكَّـرَ أَيَّامًـا خَالِـيَةً.. أدْرَكَ سِرَّ مَـا

أصَابَ صديقه القديم. فقرَّرَ الصديقُ السَّفَرَ إلى صَدِيقِهِ..

قرَّرَ تَرْكَ تِجَارَتِهِ وَزرَاعَتِهِ وَأمْوَالِهِ وَالسَّفَرَ برِفقةِ زَوْجِهِ وَأوْلَادِهِ وَعُمَّالٍ لهُ..

أحَسَّ بأنَّ عَلَيْهِ دينًا يجب تسديدُه.

كَانَتْ صداقَةُ طفُولةٍ بَيْنَهُمَا مِنْ أرْوَعِ مَا يَحْمِلانِهِ مِنْ ذِكْرَى.. بَلْ كَانَتْ أجْمَلَ أيَّامِ الحياة.

رَأى أنَّ وَاجِبَهُ اليَوْمَ يَفْرِضُ عَلَيْهِ مُحَاوَلَةَ إنقاذِ صَديقِهِ مِنْ ظُرُوفِهِ الصَّعْبَة.

جَهَّزَ قافِلة كَبيرة..

أحْضَرَ عُمَّالًا وَمُزَارِعِينَ وَخَدَمًا وانطلق..

وعِنْدَمَا بَلغَ أطْرَافَ القمة الجبلية حَذَّرَهُ

الـناسُ مِنَ الاقتِرَابِ لأنَّ "صَاحِبَ القصْرِ غَرِيبُ الأطْـوَارِ" كَـمَا قالـوا.. لكـنَّ الـرَّجُلَ تابعَ طرِيقهُ بثـباتٍ ولَمْ يَنْـصِتْ لأحَـدٍ.. حتى وَصَلتِ القافلةُ قـريبًا مـن المكان في ساعة تجاوزت مُنْتَصَفِ اللّيْلِ بقليلٍ..

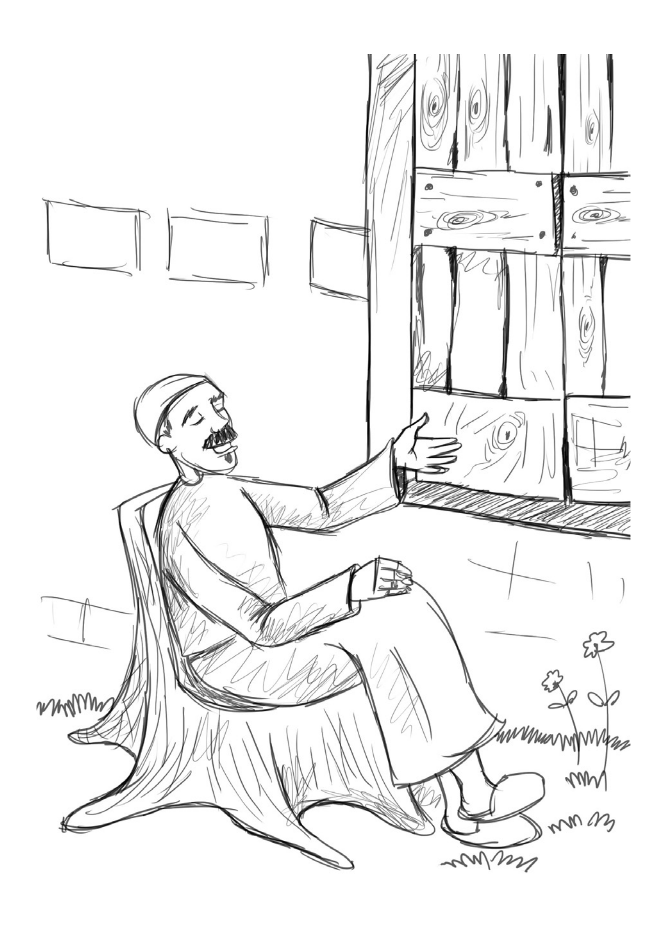
أمَـرَ الرَّجُلُ عُمَّالَهُ ألَّا يَقْتَرِبُوا مِنَ القصْرِ وَأنْ يَسْكُنُوا البُيُوت المَهْجُورة البعيدة عن القصر..

وبَعْدَ انقضاء اللَّيلِ..

وبعـدَ أنِ اسـتراحَ المـسافرونَ سَاعاتٍ قليلةً مـن عـناءِ الطـريقِ، اسْـتَعَادَ الـرِّجَالُ نَـشَاطَهُمْ، فأمرهم سيدهم بالخُرُوجِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ..

* * *

المشهدُ العاشرُ



تَوَجَّهُوا مباشرةً نَحْوَ البَسَاتِين التي أضحتْ خـرابًا مـنذ أن هجـرها العـمالُ، فـرَاحُوا يَحْفِرونَ وَيُقلِّـبُونَ الـترابَ الجـافَّ المتـصلبَ مثل الحجارَةِ الـصَّمَّاءِ، ثـم اسـتخرجوا المـاءَ مـن البئـرِ وسَـقَوا الأرضَ كـي تـسْتَعِيدَ بـريقها وانتعاشَها اسْتِعْدَادًا لِزراعَتِها مِنْ جديد..

شـعرَ أولادُ الـرَّجل وَمَـن تبقـى مِـنْ عُـمَّالٍ أوْفِيَاءَ بحركةٍ مريبةٍ عندَ أطرافِ القريةِ المهجورة.. فاتَّجَهُوا نَحْوَهُمْ، وفوجئوا بكلِّ هؤلاءِ الرجالِ وما معهـم مـن معـداتِ فلاحـةٍ وزراعـةٍ.. استقبلهمْ صـديقُ أبيهمْ بكلِّ الحبِّ.. قَصَّ عليهمْ قصتَهُ عنْ

أبِيهِمْ.. فَرِحُوا وفرحَ معهمُ العمالُ وبدأوا يَعملونَ جميعاً لِتَعُودَ الأرْضُ كَمَا كَانَتْ..

أمَّـا الـرجلُ الطَّـيِّبُ الـذي لم يَعُدْ يَخْرُجُ مِنْ قـصْرِهِ بعـد أن أنْهَكَهُ الحُزْنُ وَالألَمُ وأصَابَهُ ضَعْفٌ وَهُـزَالٌ شديدان.. فقد كَانَ يَخْتَلِسُ النَّظَرَ مِنْ حينٍ لآخـرَ سَـعِيدًا فِي نَفْـسِهِ لِعَوْدَةِ الحَيَاةِ إلى بَسَاتِينِهِ.. لكـنه لم يعـرف لمـاذا جـاء هؤلاء العمالُ والزراعُ، ولمـاذا جهـدوا لكـي تـدبَّ الحـياةُ في أرضِـهِ مـن جَدِيد..

انتعـشتْ نفـسُهُ مـن جديـدٍ.. وارتـسمتِ الابتسامَةُ على مُحَيَّاهُ؟!

كـانَ الـصديقُ الآتِي من بعيد يَعْرِفُ مَا تَعْنِيهِ الأرْضُ لِـصَدِيقِهِ.. عاشـا معًـا سـنوات الطفـولة

والفـتوَّة والشبابِ بين المزارع والبساتين، يزرعون ويحصدون.. ويغنون أغاني الأرضِ والحصاد..

مـضت أيَّـام قلـيلة وعـادت الحـياة تنـبضُ بالأرض.. وتحوَّلت من اليباسِ الرماديِّ القاتِمِ إلى الأخـضرِ الـنابتِ بهـدوءٍ.. وتغـيَّرَ الجفـافُ إلى الانتعاشِ..

استبـشرَ الـناسُ خَـيْرًا عندما شاهدوا نافذة الرَّجُلِ الطَّيِّبِ تفتحُ على الهواءِ لأَوَّل مرَّة منذ زمن بعيد.. صفقوا فرحين وأطلقوا الصيحاتِ مهلِّلِينَ مُـرَحِّبينَ.. لكنَّ النافذة لم تفتح إلَّا قليلًا ولم يظهر منها خيالُ الرَّجُل..

وبعـدَ أن اطمأنَّ الصديقُ على أرضِ صَدِيقِهِ وبدأت الروحُ تدبُّ فيها والاخضرارُ يزحفُ إليها

مــن جديدٍ.. ورأى بنفسه كيف أن صديقَهُ الطيبَ فـتحَ قلـيلًا مـنْ نافذتِـه.. اعـتقد أَنَّ الفرصـةَ قـد حانَـتْ، فقـرَّرَ الاقترابَ ولأولِ مرة مِن القصرِ.. الـتفتَ جمـيع مـن معه نحوه مترقبينَ ماذا يريد أنْ يفعلَ..

كـان أبـناء صاحب القصر أشد الناس تلهفًا وتـرقبًا.. هـم في شـوق لعـودة أبـيهم إلى عهـده القديم.

اقـتربَ الـرجلُ مـن القصر حتى بلغ البابَ الـرئيسَ.. اتجهَ مباشرةً نحو كرسِيٍّ خشبِيٍّ مصنوعٍ مـن جـذعِ شـجرةٍ.. جَلَـسَ بهـدوء وسكينة على الكـرسي في مكانـه القـريب جـدًّا من نافِذةِ غرفة صديقه..

وبعد بضع دقائقَ.. راحَ يُنْشِدُ أغْنيَةً قديمة..

توقـفَ العـمالُ عنِ الحركَةِ.. اقتربوا وكأنهم يسيرونَ على رؤوس أصابعهم.. وراحوا ينصتونَ إلى إنـشاد الـرجل بـصوته العـذب.. كانت أغنية جميلة يغنّيها المزارعونَ في حقولهم، ولطالما أنشدها مَـعَ صـديقهِ في سنِّ الطفولة وفِي رَيْعَان الشَّبَابِ.. وراح الجميع يردد خلفه:

الأرْضُ الَّتِي نُحِبُّهَا.. قِطْعَة منَّا

بنا تَحْيا.. بها نحيا..

هَيّا بنَا نَزْرَعُها.. هيَّا بنا.. هيَّا..

إن مَضَتْ أعْمارُنَا.. وَلمْ نُعَمِّرْها..

حَيَاتُنَا سُدًى.. حَيَاتُنَا سُدًى..

كُلَّ يَوْمٍ تَحْيا أَرْضُنَا بنَا..

أَرْضُنَا الَّتِي نَحْيَا بِهَا..

هِيَ مِثلُنَا.. بها نحيا..

وتحْيا هي من أَجْلنَا..

نفديها بالأرواح

هيا بنا.. هيا بنا

نزرع القمح.. نقطف التفاح

ننشر المرح.. نحصد الأفراح

ما أجمل الفلاح.. ما أطيب الفلاح

❊ ❊ ❊

المشهدُ الحادي عشر



تـروي القصص المتوارثة أنَّ صَاحِب القصْرِ ذُهِـلَ عـندما سَـمعَ ذلـك النشيدَ بصَوْتِ صَاحِبِهِ القـديمِ.. فعـادت ذاكرته بسرعةِ البرقِ إلى الماضِي البعيدِ، متذكرًا رفيق الطفولة واليَفاعَة..

ومـــن ينـــسى أصـــدقاء الطفـــولة! تلـــك الصداقات التي تنشأ دون مصلحة أو منفعة..

صــداقاتٌ جمـيلة يحـافظ علـيها الأوفـياءُ، ويحـرص علـيها النـبلاء، وتكبر مع الإنسان يومًا بعـد يـوم، لا يقطعهـا إلّا جاحِد، ولا ينكرها إلّا لئيم..

صــداقاتُ الطفـولةِ تبقـى أجمـلَ مـا تختـزنُهُ

القلـوبُ فِي أعماقهـا، تكـون مـثل جوهرةٍ متلألئةٍ مـتغلغلةٍ في حـنايا الأنفسٍ، تغفو مع الأيام لكنها تستيقظ كماردٍ جبارٍ عندما يراجع الإنسان ذاكرتَهُ، تـتوهّج بحـرارة عـندما تبـزغ من جديد مع رائعة النهارِ بعد سباتٍ طويل..

تذكـرَ ذلـكَ الصديقَ الذي عَاشَ مَعَهُ سِنينَ طويلةً، وكان سلوته الوحيدة بَعْدَمَا فقدَ أَبَوَيْهِ..

هـذا النـشيد أعاده أيضًا إلى شعور نزع قلبه من مكانه..

تذكـر ذلك الشُّعُور الرَّهِيب يَوْمَ فقدَ وَالِدَتَهُ ثـم وَالِـدَهُ.. الـشُّعُورُ نَفْسُهُ هو الذي استعادَهُ يَوْمَ وَفـاةِ زَوْجِـهِ الَّتِي يُحِبُّ.. لكنه وقتَها لم يكن عنده صديقٌ مثلُه ليخفف عنه الألم..

أعَـادَ الـصَّوتُ والنـشيد لهُ ذِكْرَيَاتٍ كَثِيرةً، أيْقـظَ فِي نَفْـسِهِ أحْلَامَ مَاضٍ ناءٍ قاصٍ بَعِيد.. ومَا أصْـعَبَ محـنةً عِنْدَمَا تَتَكَرَّرُ مرتين.. تلك مرارة لا يعـرفها إلّا مـن ذاقهـا.. فكيف بمن ذاقَها مرتين، وهـا هـي الآن تـتوهّج مـن جديـد، وتـبعث من مرقدها، وتنبت كأسياخٍ في قلب صاحِبِها..

وكـانَ الـتوقُّعُ أنْ يهدأ خاطِرُ الرجلِ الطَّيِّبِ المكلـومِ بـسماعِ النـشيدِ بعدَ أن طابتْ نفسُهُ برؤية أرْضِهِ وقدِ انتعشتْ بِزَرْعِهَا.. وأن يطلَّ من نافذته محيـيًا صديقه القديم.. لكن الرجل لم يفتح نافذتَهُ عـلى مِـصْرَاعَيْها، ولم يطـلَّ بِرَأسِـهِ.. وبقـيَ أسيرَ قَـصرِهِ.. فـضاعف الـصديق الجهـدَ، وأمر رجالَهُ بالعملِ ليلًا ونهارًا..

زرع الرجال الأشداء كثيرًا من الشجر حتى انتشرَ الشجرُ حول القرية المرتفعة.. وازداد الشجر مع الأيام.. حتى أصبحت غابات كثيفة متشابكة الأغصان.. وانقطعت عند هذا الحَدِّ أخبارُ الصديقِ.. وغادرَ كثيرٌ منَ العمّالِ، أمَّا من بقيَ من الرجالِ على الربوة في محيطِ القصر برفقة أبناء الرجل الطيب فقد قرروا البقاء رغم كلِّ الصِّعاب.. وانقضت الأيام حتى توارتِ القريةُ وراءَ ستارٍ منَ الأشجارِ الملتفَّةِ حولَ بعضها، ولم يعدْ يعرفُ بِها أحَد.

ومعَ مضيِّ الأيامِ أصبحتْ ذاكرةُ الناسِ مرتبطةً بالقريةِ التي يعيشونَ فيها.. إلَّا أن هذه القصة رسخت في الذاكرة.. وصارت أسطورة القرية.

وكـان الفَتَى مثل كثير من فتيانِ القريةِ يحبُّ سـماع هذه القصَّةِ من حينٍ إلى آخَر، وكلَّما سمعها كان يتأثر بِهَا وكأنَّهُ يسمعُها لأوَّلِ مَرَّة..

وهـذا الفتَـى الوسـيمُ الذي كانَ يُعْرَفُ بين أهـل القـرية بـــ "اليتـيم" فقدَ والديه وهو صغيرٌ وعمـره لا يـتجاوز الأشـهرَ، وكـان تأثـره بقصةِ مـوتِ والـدَي صـاحبِ القـصر بـسبب شـعوره باليُتْمِ، وإحساسه بفقدانِ حنانِ الأمِّ والأبِ..

لكن "يتيمًا" لم يكنْ مشردًا أو وَحِيدًا..

الناسُ فِي قريتهِ يحبونَ بَعْضَهُم بَعْضًا.. كما أَنَّ جدَّتَهُ لأمِّهِ كانت على قيدِ الحياةِ وربَّتَهُ حتى أصبحَ عمـرُهُ عَشْرَ سِنين، ثم أصَابَها مرضٌ شَدِيدٌ جَعلَهَا طـريحةَ الفِـرَاشِ نحو سنةٍ كاملةٍ.. فَخَدَمَها طوالَ

هـذه المـدةِ بكـلِّ تَفانٍ ومحبَّةٍ، لم يكن يفارقها لحظةً واحـدةً حتـى ماتَـتْ، ثـم قضى أيامًا يجلسُ قربَ قَبْرِها..

حـبسَ نفسَهُ في بيت جَدَّتِهِ مدةً طويلةً يَبْكِي عَلَيْهَا.. حتى أقنعَهُ أحد كبارِ السِّنِّ بأنَّ جدَّتَهُ رَبَّتْهُ لـيكونَ ذا فائـدةٍ للـناسِ لا أن يقـضيَ حـياته بينَ القـبورِ، وأنْ لا يضيعَ شبابَهُ فلا يَسْتفيدُ الناسُ من عِلْمِـهِ الـذي تعلَّمه مِنْهَا، بعدَ أنْ أورثَتْهُ مِن العلمِ والتجرِبَةِ الكثيرَ..

كانـتِ امـرأةً حكيمةً، وأهلُ القرية يدركون عِلْمَها وخبرَتَها في كثيرٍ منَ الأمورِ، وكان حفيدُها يقـضي مَعَهـا كُـلَّ الـوَقْتِ، ولا يـذهب حتـى إلى مدرسـة القـريةِ الوحـيدةِ التـي كـان يـتعلَّمُ فـيها الـصغارُ بعـضَ العلومِ البسيطةِ، فقد تكفلتْ هِيَ

بتعلـيمِهِ الكـتابةَ والحـسابَ والـزراعَةَ وأعـمالَ المنـزلِ.. وقلـيلًا مـن الطبِّ الشَّعْبِيِّ الذي تعلَّمته واكتسبَتْهُ بِالخبرَةِ.

كانـتْ تحكـي له قصصًا كثيرة.. أخبرته أنها حدثت في قريتهم على مرِّ الزمان..

وكـان يظـن أنَّ جدَّتَـهُ تـروي لـه قصـصًا خيالـية، وظـلَّ يظـن ذلـك حتى ماتتْ جدتُهُ، ثم سـمعَ مـثل تلـك القصص من كِبار القرية خلال تقديمهِ المساعدة لهم..

قـرَّرَ أنْ يكـون "خادمًـا" لأهـل القـرية، وخاصـةً لكـبارِ الـسِّنِّ الـذين يحـتاجون لمساعدة ولـيس عـندهم من يساعدُهم، إكراماً لجدَّتِهِ التي رَبَّـتْهُ ولـيدًا بعدَ موتِ والديْهِ وهو في سنٍّ صغيرةٍ جدًّا..

وفي حقيقةِ الأمرِ؛ فإنَّ الفَتَى اليتيمَ لم يكنْ في الواقـع يتيمًا، لأنَّ قريته تعتبر نفسها عائلة واحدة، الـصِّغَارُ يقولـون للكبـير يـا عمي، والكبير يقول للصغير يا بُنَيَّ..

ولم يكـن هـذا التعبـيرُ مجـرَّدَ مجاملةٍ شفهيَّةٍ، فجمـيع أهـل القـرية يعلمون أنَّهم من جدٍّ أو مِنْ أجـدادٍ تزوَّجَ بعضُهم من بعضٍ، حتى كبرت هذه القـرية واتـسعت مساحتها، وشكل جميع سكانها عائلة واحدة، تربط بينهم صلاتُ القربى..

حتـى إنَّ أشـكالَـهُم تكـادُ تكـونُ واحدةً.. الـوجهُ والأنـفُ والعيـنانِ وطـولُ القامَـةِ ولـونُ البـشرَةِ التـي سَمَّرَتْهَا الشَّمْسُ، والجبينُ والمنكبان العريضانِ، والشعرُ البنيُّ الناعِمُ الجميلُ..

وهـم رغـم مـا يتميـزونَ بهِ من تشابُهٍ كبيرٍ؛ فـإنَّهم لا يخطِـئونَ في أسـمائهم، ويعرفون بعضَهم بعضًا.

إن الألفـةَ والمحـبةَ والوئامَ أشياءُ لا تُشْتَرَى بالمـالِ ولَا بالـذَّهَبِ، وحـين تَـسُود تلـك المعـاني الـساميةُ بـين الأقـاربِ والمعـارفِ والأصدقاءِ في المكان الواحِدِ؛ ينتشر السَّلامُ وتعمُّ المشاعرُ الدافئةُ الصادقةُ، ويسودُ التفاهُمُ، ويزدادُ التَماهِي والتفاني وإنكارُ الذاتِ بينهم..

ومـضتِ الأيـامُ والليـالي عـلى هـذه الحال، والفتَـى اليتـيمُ يقـضِي وقْـتَهُ متـنقلًا منْ شارعٍ إلى شـارعٍ، ومـنْ بستانٍ إلى بستانٍ، ومن دارٍ إلى دارٍ، يـساعدُ ذا الحاجـةِ الملهـوفَ، ينظف بيت الأرملةِ العجوزِ..

يغـسلُ ثوبَ العاجِزِ الوحيدِ.. يُحَضِّرَ طعامًا وشَرَابًـا لمسكينٍ.. يملأ جرارَ الماءِ ويكنسُ بَاحَاتِ المنازِلِ..

* * *

المشهدُ الثاني عشرَ



القـريةُ لمْ تكـنْ تعـرفُ شيئًا اسْمُهُ درهمٌ أو دينارٌ، ولم تكنْ لديها تجارةٌ كَمَا هو مفهومُ التجارَة، بـلْ كانـوا يـتهادونَ المنـتجاتِ والمـزروعاتِ والـصناعاتِ البـسيطةِ فـيما بيـنهم بكـلِّ بَـسَاطةٍ، ودونَ تحديـدِ القـيمةِ.. وَلَـرُبمَـا اسـتبدلَ رجـلٌ يملـكُ دجاجًـا سـلَّةَ بيضٍ بنعجةٍ كبيرةٍ، أو بِضْعَ تفاحاتٍ بدجَاجَةٍ..

لَمْ يكـنْ مفهـومُ التجارَةِ والرِّبحِ بَيْنَهُمْ سَائِدًا لأنَّ الأهَمَّ عندَهُمْ هُو مَدَى الاستفادَةِ من الشيءِ، فقـد يكون الشيءُ متوافرًا مع شخصٍ مَا بكمياتٍ كبـيرةٍ لكنه لا يحتاجُ إلَيها كُلَّها، بينما قدرٌ قليلٌ مِنْ

شيءٍ مـا يملكهُ أحَدُهُمْ قَدْ يكونُ أَحَدٌ آخر محتاجًا إليه بشدة.. فيهديه إليه..

وكـان "يتـيمٌ" يذكـر أحـيانًا قـصة القـصرِ القـديمِ.. كـما يذكر قصةَ الطائرِ الخُرَافِيِّ العجيبِ، ومـا كانـت ترويه له جَدَّتُهُ من قصصٍ عجيبةٍ عن ممالـكَ قديمـةٍ، مـثل قـصة الأمير اليافعِ المتواضعِ المحـبِّ، وقـصة ابـنة الملـك الظـالم التـي أحـبها الشعبُ..

لم يكن يكتفي بسماعِ ما يرويه بعض الشيوخ والعجائـز، بـل كـان يطلـبُ مـنهمْ بإلحـاحٍ ذكـرَ التفاصـيل؛ وتكـرارَ القـصصِ، ويسمعها مكرَّرة مـن كـبارِ القـريةِ، يـريدُ أنْ يعـرفَ أكثرَ مما سمعَهُ مـرارًا، لكـن القـصص كانـت بمجملهـا قصيرة جدًّا..

هي نفسُها تتكررُ دون إضافاتٍ جديدةٍ..

لم ينـسجِ الناسُ حولَها الأساطيرَ ولا بَنَوْا من خـيالهم ألـوانًا من التفاصيل التي يضيفها البعض عـلى قـصص الـتاريخِ، حتـى تصبحَ أسطورةً من الأسـاطيرِ.. أو قـصة فـوقَ الواقـعِ وأبعـدَ مـنَ الخيالِ..

أمَّـا قـصَّةُ الطائرِ الخُـرَافِـيِّ العجيبِ، فيظنُّ الناسُ أنَّها حكاية أسطوريَّة، وليست سوى خرافةٍ مـن نسجِ الخيالِ، وهم يروونها على سبيل التسليةِ والترفيهِ ويتوارثونَهَا جِيلًا بعدَ جيلٍ، ولا يصدقها أحَـدٌ، سـمعها مـن جَدتـهِ من قبلُ، تروي حكاية رَجـلٍ كـانَ سَـيِّدًا في قـومِهِ، شـغلهُ الشاغلُ تربيةُ الطيورِ الكبيرَةِ، كان يسافرُ من بلادٍ إلى بلادٍ، بحثًا

عن الطيور التي يهواها ويأتِي بها إلى بلاده.. متنقلًا علـى قدمـيه تـارَةً، وعلى الحمارِ تارَةً أُخْرَى، وعلى الجمال تارَةً ثالثةً...

أمَّا المَرَاكبُ الشراعِيَّةُ الصغيرةُ منها والكبيرةُ فكـان يـركبُها إذا صـادفَ بحرًا أو نهرًا.. أي كان يـركب مـا توفـر لـه من مركب، غير عابِئ ببرٍّ أو بماءٍ.. في الصحراءِ يمشي.. وفي الغابات والبراري يمشي..

إلى الـوديانِ ينـزلُ وعـلَى الجـبالِ يتسلَّقُ وفي السهول يَمْضِي، لا يعيقه في سيره إنسٌ ولا جانٌّ.

قَادتْـهُ الـرحلاتُ إِلى قمَّة الجبلِ، حيث كانَ القـصر شـامخًا بكـبرياء.. لكنَّهُ كانَ غيرَ مأهولٍ في ذلـك الـزمانِ، وكـانَ الناسُ يعتقدونَ بأنَّ القَصْرَ

يسكنُهُ وَحْشٌ كَبِيرٌ، لِذَا كانُوا يبتعدونَ عن القصرِ ولا يقتربونَ منهُ، وكانوا في الليلِ يسمعونَ أصواتًا غـريبةً تنـبعثُ مـن داخـلِ القـصرِ ممـا كـان يزيدُ خوفَهُمْ وَرُعْبَهُمْ..

كانوا يشاهدونَ في اللَّيالي المقمِرَةِ شيئًا ضخمًا يـشبه طائـر (العـنقاء) الشهيرَ في الأساطِيرِ، يخرجُ من القصرِ ويحومُ فوق الغابَةِ يملأ الوديانَ والتلالَ زَعِـيقًا كأَنَّـهُ يَبْكِي ثم يعودُ بعد أن يفرِّغَ ما في قلبِهِ من صراخٍ ويختفي في ظلام القَصْرِ..

وعندمَا وَصَلَ الرَّجُلَ إلى هذا المكانِ..

وعـندمَا سـمعَ بقـصةِ هـذا الطائـر الخرافيِّ الـضَّخْمِ.. لم يقـدرْ عـلى مـنعِ نَفْـسِهِ مِـنْ محاوَلَـةِ الدخولِ إلى القصرِ لاكتشافِ حقيقةِ هذا الطائر..

كـانَ يَمُنِّـي الـنفسَ بأَنَّهُ يقدرُ على أَسْرِ هذا الطائرِ الغـريبِ، كـما فعلَ معَ كثيرٍ منَ الطيورِ فِي رحلاتِهِ الكثـيرَةِ حـولَ العـالَـمِ، لِيَـضَمَّهُ إلى مَجْمُـوعَاتِهِ المتعدّدةِ من طيورٍ حَيَّةٍ أو طيورٍ مُحَنَّطَةٍ..

وبعدَ أنِ اقتربَ صيادُ الطيورِ المَاهِرُ منْ سُورِ الْقَـصْرِ.. وَكـانَ الـناسُ مستغربينَ من جُرْأتِهِ لأَنَّهُ هالِـكٌ بِـلا شَـكٍّ باعـتقادِهِمْ.. فـتحَ الرجلُ بابَ الـسُّورِ الحديـدِيِّ بِـصُعُوبَةٍ.. فانطلـقَ في الأرجَاءِ صـوتُ صَرِيـرٍ قَـوِيٍّ بعـدَ زَمَـنٍ طويلٍ من ابتعادِ الـناسِ عَنْهُ.. دخلَ الرجلُ حديقةَ القصرِ واختفَى عـنِ الأنظـارِ، وارتفعـتِ الأصـواتُ التـي كانت تَـتَرَدَّدُ مِـنْ داخـلِ القصرِ فِي هَذِهِ اللحظةِ، وَبَدَتْ كأَنَّها تتعارَكُ مَعَ بَعْضِهَا..

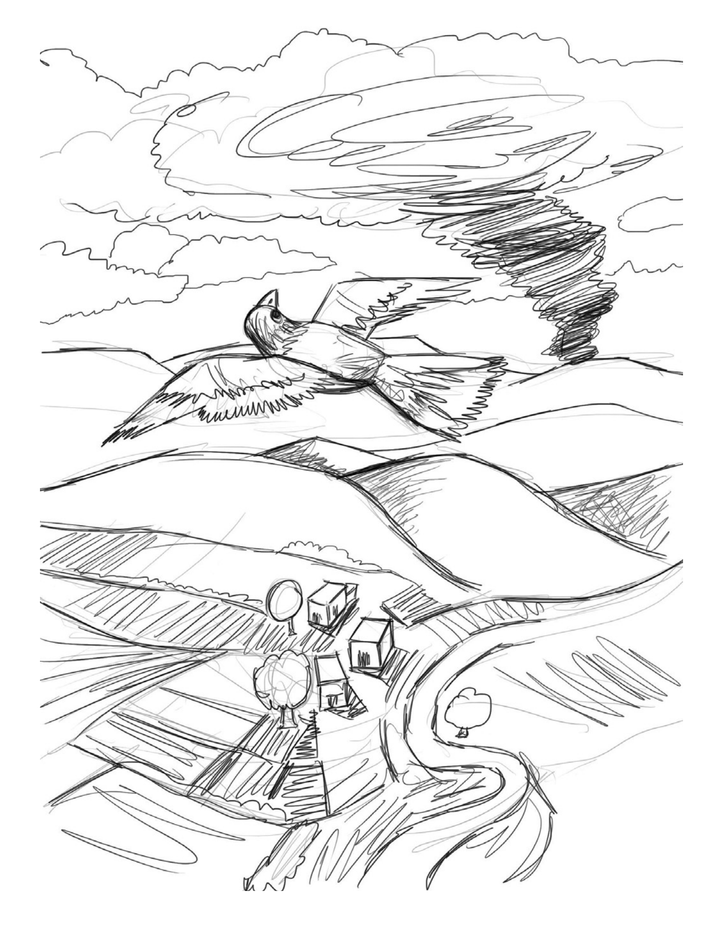
مَـرَّتْ ثوانٍ معدوداتٌ.. ثُمَّ سمعَ الناسُ من

بعيدٍ صيحةً هائلةً قَذَفَتْ بالصيَّادِ لعشراتِ الأمتارِ خارجَ القصرِ، وَسَقَطَ فوقَ كَوْمَةٍ مِنَ القشِّ فَأصِيبَ بِرُضُوضٍ بَسِيطَةٍ، ولولَا كومَةُ القَشِّ لَتَكَسَّرَتْ عِظامُهُ فيمَا لَوْ سَقَطَ عَلَى إحْدَى الصخورِ المتناثِرَةِ فِي كلِّ مكانٍ..

لكنَّ ما حَدَثَ لم يُثْنِ الصَّيَّادَ المغامرَ عنْ تكرارِ المُحَاوَلَةِ..

❊ ❊ ❊

المشهدُ الثالثَ عشرَ



استعادَ عافِيَتَهُ فَتَوَجَّهَ نحوَ القصرِ مَرَّةً أُخْرَى دونَ أن تَمْنَعَهُ تجارِبُهُ السابقةُ، حمَلَ مَعَهُ هذِهِ المرَّة شبكةً كبيرةً، وَكِيسًا ضَخْمًا على أنْ لا يَعودَ إلّا وقدِ انتصرَ على ذلكَ الطائرِ، ومضى فِي طريقِهِ وكأَنَّهُ ذاهِبٌ إلى حَرْبٍ ضَرَوسٍ..

عِندَما اقتربَ لَمْ يدخلْ منْ بابِ القصرِ الرئيس الذي دخلَ منهُ المرَّةَ السَّابِقَة..

تَوَجَّهَ إلى الناحيةِ الخلفيَّةِ منَ القَصْرِ، وألقى بحبلٍ طويلٍ في رأسِهِ حديدةٌ عَلِقَتْ فِي حافَّةِ إحْدَى الغُرَفِ فِي الدَّوْرِ الأوَّلِ، تَسَلَّقَ الرَّجُلُ الحَبْلَ بِمَهَارَةٍ بالغةٍ ثم دخلَ الغرفةَ وَاخْتَفَى.

وكـان أهـلُ القريةِ يتابعونَ ما يحدثُ بعدَما تركوا بـيوتَـــهم وحقـولَـهم وأشـغـالَـهُمْ لِيُشَاهِدُوا ما سَيَحْدُثُ.

لم يـسمعِ الـناسُ أصـواتًا مـرعبةً مـثل المرَّةِ الماضـيَةِ.. ولم يـسمعوا صـيحةً هائلـةً.. بـل كـان القصر هادئًا على غيرِ عادَتِه..

مـضتْ دقائِقُ طويلةٌ وكأنَّها ساعاتٌ.. دون أن يـنطلقَ صـوتٌ واحـدٌ.. ولحظاتُ الانتظارِ تمرُّ بهـدوءٍ مثلَ السُّلَحْفَاةِ، وتشتدُّ بُطْئًا عندما يترقبُ الإنـسانُ أمْرًا هامًّا ينتظرُه بِشَغَفٍ.. وفجأةً عادتِ الأصـواتُ الْـمُرْعِبَةُ تنبعثُ من داخِلِ القصرِ مثل سَـابِقِ عَهْـدِها.. ظـنَّ الـناسُ أنَّ الطائرَ قَضَى على الـصَّيَّادِ، فحزنوا عليه كثيرًا، وأثْنَوْا على شَجَاعَتِهِ، لكـنَّهُمْ فِي المقابـلِ لم يكونُوا موافِقِينَ على ما فَعَلَهُ،

وذكروا أَنَّهُمْ نصحوهُ بعدَمِ الاقترابِ منَ القَصْرِ..

وَفِي الصَّبَاحِ التّالي.. وكانَ صباحًا مُشْمِسًا جميلًا.. وفيما كان الناسُ يقصدونَ حُقولَهُمْ وأعمالَهُمْ، وَهُم يَتَرَحَّمُونَ عَلى الرَّجُلِ الصَّيَّادِ معتقدينَ بوفاتِهِ.. فوجئوا بظهورِ الصيَّادِ نفسِه، وكان يرتدي ثيابًا قديمةً جدًّا لكنَّها أنيقةٌ وثمينةٌ.. أصابتهمُ الدهشةُ، لكن الصياد هدَّأ مِنْ رَوْعِهِمْ.. أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لم يَمُتْ ولمْ يُصَبْ بأيّ أذى.. غيرَ أنهُ اكتشفَ شيئًا عجيبًا، وهو أنَّ ذلك الطائرَ الذي كانوا يخافونَ منه طائرٌ رائعٌ، لطيفٌ جدًّا، لكنَّهُ هو أيضًا يخافُ مِنَ الناسِ، يعتقد أنهم سوفَ يُؤْذُونَهُ، لذا فإنه يسكن القصر منذ زمان بعيدٍ ويخشى الاقتراب من الناسِ خوفًا على نفسه من الهلاك بعد أن رآهُمْ يصطادونَ الكثيرَ منَ الطيورِ ليأكُلُوها..

وقالَ الصياد:

"إنَّ الطائـرَ لـيسَ بـالحجمِ الكبـيرِ كـما تعـتقدونَ، هـو طائـرٌ عاديٌّ، يشبهُ البَطَّةَ السَّمِينَةَ، ويـصيحُ باسـتمرارٍ، لكـنَّ صَـوْتَهُ لَيْسَ مُخيفًا، بل المخـيفُ هُـوَ الـصَّدَى الـذي ينـبعثُ مـن القصرِ الكبيرِ الذي يجعلُ الصوتَ بهذِهِ الضَّخَامَة".

وَأَضَافَ:

"وَلا يعنِي ذلكَ أنَّه ليسَ قويًّا بما فيه الكفاية ليقـضيَ على مجموعة أشخاص دفعةً واحدةً، لكنهُ مـع كـل تلـك القـوة التِـي يملكُهَا، هو من أجمل الطـيور وأكثرهِمْ لطفًا ودلالًا.. والجميلُ من كلِّ ذلـكَ أنَّـه يحـبُّ قريتكمْ مِثْلُكُمْ تمامًا، وكان عندما يخـرج محلِّقًـا يحـضر لكم الكثيرَ من البذورِ لأنواع

كثـيرةٍ من الأشجارِ والنباتاتِ والزهورِ ثم يرميها علـى الـتلالِ والـوديانِ مـن حولِكُمْ، مِمَّا وَفَّرَ لكُم الكثيرَ من الأعنابِ والثمارِ المختلفة"..

وقال:

"لَقَـدْ أَخـبرنِي بلُغَتِهِ، وَأَنَا أفهمُ لغةَ الطُّيورِ؛ أنه يُحِبُّكُمْ.. لكنه يخافُ أن تقتلوهُ كما تفعلونَ عادةً بالطـيورِ لـتأكلُوها.. وهـوَ يـريدُ مـنكمْ عَهْدًا أن تحافِظـوا عـلى الطـيورِ، وسوفَ يساعدُكُمْ بزراعَةِ أَرْضِـكُمْ، وينثرُ لكم البذورَ الطيبة في دقائقَ وهيَ تأخـذُ مـنكمْ سـاعاتٍ لِكُـلِّ حقـلٍ.. كما أن لديه مجموعةً من الأصدقاء الطيور تعيشُ داخلَ القصرِ لـديها خـبرةٌ طـويلةٌ بالـزراعَةِ، سـوف تجعـلُ من بـساتينِكم عامـرةً بالخيراتِ على مدارِ العامِ، لا فِي المواسِمِ فَقَطْ"..

فـرِحَ الـناسَ فـرحًا عظـيماً بـما قالَهُ الصَّيَّادُ، وتعاهَـدَوا مـنذُ ذلـكَ الحـينِ مـعَ الطائِـرِ الخُرَافِيِّ العجـيبِ عَـلَى احــترام عــالمِ الطُّـيورِ، وعــدم اصطيادِها.. فهي الطبيعةُ الجميلةُ التي تتعاونَ معَ بعضِها، من مخلوقات خلقها الله تعالى لتستفيد من بعـضها بعضًا، فلا يسيءُ الواحد منها للآخر، ولا يعـتدي لأن الله لا يحب المعتدين، فيتعامل مع كلِّ شيء من حوله بقدرٍ وبحسابٍ وبوعيٍ وإيمانٍ..

ومنذُ ذلكَ الوقتِ أصبحَ الناسُ أصدقاءَ مَعَ الطائـرِ العَجـيبِ، كـما أنَّ الـصيادَ لم يَـأْسرِ الطـيرَ الجمـيلَ رغمَ حِرْصِهِ على ذلكَ، بَلْ تَرَكَهُ لأهـميتِهِ بالنـسبةِ لـسكانِ القـريَةِ، وكانَ يعينُهُمْ على زراعة الأرضِ ورعايــتِها.. كــما كــان يُحَــذِّرُهُمْ مــن العواصِفِ قبلَ وصولِها بعد أن يشاهِدَها من بعيدٍ وهو يحلِّقُ في الفضاءِ..

وَظَلَّ هـذا الطائـرُ يـنعمُ بالحـياةِ بينَ أناسٍ يُحِـبُّهم ويحـبُّونَهُ زمـنًا طـويلًا.. حتى حَانَ أَجَلُهُ.. ودُفِـنَ في ناحيةٍ من نواحِي القصرِ ضاعَتْ مَعالِمُهَا مَـعَ مـضيِّ العقـودِ والقـرونِ.. ولم يـبق من أثر له سوى هذه القصة الغريبة..

وكان الناسُ يردِّدونَ:

"ومنْ يَدْرِي.. ربما هذه الأشجارُ التي نأكلُ ثمـارَهـا الـيومَ هـي شـجرةٌ زَرَعَهـا الطائـرُ العَجِيبُ"..

لكـنَّ الشابَّ "يتيماً" لم يكنْ يصدِّقُ تفاصيلَ حكايـةِ الطائـرِ الخُـرَافِيِّ العجـيبِ.. يعـتقدُ أنهـا أسـطورَةٌ مـثلُ كـلِّ الأساطيرِ التي يَتَوَهَّمُ البعضُ حقيقـتَهَا، مع أنهمْ رُبَّمَا لا يؤمنونَ بتفاصيلِها لأنها فـوقَ الخيالِ.. بينَما يعتقدُ البعض الآخرُ أنَّ الخيال

هـو الأبقـى والأجملُ منَ الواقعِ، بلْ إنَّهُ هو الذي يـسبقُ الواقِـعَ، ثـم يجعلُـهُ حقيقةً في المستقبلِ، فيما يفـضِّلُ الـبعضُ العـيشَ فِي الخَـيَالِ على العيشِ فِي الواقِعِ..

كم جميلٌ هو الخيالُ عندمَا نَحْيَاهُ في الواقِعِ.. وكم مِنْ أشياءَ جَمِيلَةٍ كانتْ في البدايَةِ خَيَالًا..

إنَّ الارتباطَ بينَ الواقِعِ والخيالِ مثل اللُّحْمَةِ فِي خـيوطِ النَّـسْجِ العَرْضيَّةِ التي يُلحَمُ بِهَا السَّدَى في الثوبِ الجميلِ.. وفي اجتماعهما يحدث ما يتمناهُ الإنـسانُ مـن إبـداعٍ وانطـلاقٍ نحـوَ الجمـالِ.. فَتَـتَحَقَّقُ الـنَّجاحَاتُ التِي لَمْ تكنْ لِتَتَأَتَّى يومًا لَوْلَا الخيال.. والأحلَام.

* * *

الـمشهدُ الرابـعَ عشرَ



مِـنَ القـصص الغـريبَةِ الّتِـي رَوَتْهَـا الْجَـدَّةُ لِحَفِيدِهَا "يتيم" أيضًا أنه عاشَ في زمانٍ بعيدٍ، وفي القصرِ نفسِهِ، أميرٌ يافِعٌ مَعَ جَدِّهِ الملكِ..

كـانَ الملـكَ يَحْجُبُ حَفِيدَهُ الْوَحِيدَ عَنْ عَامَّةِ الناسِ، يخافُ عليهِ من كُلِّ شيءٍ..

تـوفِّيَ والـداهُ وهـو طفـلٌ صَغِيرٌ، ونشأَ يتيمًا وحـيدًا مـثلَهُ، ولمْ يكـنْ لجِـدِّهِ الملكِ ابْنٌ أو حفيدٌ غـيرُه، فقـد كـان لـه وَلَدٌ واحدٌ وهو والدُ حفيدِهِ الوحـيدِ، وقـد تُـوُفِّيَ ابْـنُهُ مَعَ زَوْجِهِ وَهُمَا يقومانِ بـرحلةٍ جَبَلِيَّةٍ، حينَ وقعتْ مَرْكَبَتُهُمَـا التِي كانتْ تَجُـرُّهَا خُـيُولٌ مِـنْ فـوقِ أعالِي الجبالِ وَتُوفِّيَا عَلَى الْفَوْرِ..

اهـتمَّ بِهِ جَدُّهُ وَرَعَاهُ منذ الصِّغَرِ، وعامَلَهُ بِمَا يَلِـيقُ بوريثِ عَرَشٍ، وراحَ يُعِدُّهُ ويؤَهِّلُهُ لاستلامِ المُلكِ من بَعْدِهِ، ويحضرُ لَهُ مُدَرِّسِينَ كبارًا يعلمونَهُ كـلَّ مـا يجـبُ أن يتعلَّمَهُ الملكُ منْ علومٍ ولُغاتٍ، وأحـضرَ لَـهُ فرسـانًا أشـداءَ يدربـونَهُ على الحَرْبِ والنِّزْالِ..

وكانَـتْ جَـدَّةُ "يتـيمٍ" تحكِي له هذه القِصَّةَ حتى تُخَفِّفَ عنه مَا كانَ يشعُرُ بِهِ مِنْ يُتْمٍ..

وكانَ "يتيمٌ" يحبُّ هذه القصَّةَ لِـمَـا فِيهَا مِنْ جُرْأَةٍ وبطولةٍ وإقدامٍ..

وكانت الجَدَّة تتابعُ قَصَّتَهَا بالقولِ:

"إنَّ الملكَ كان يخافُ على حَفِيدِهِ الصَّغيرِ من أنْ يتعرَّضَ لِسُوءٍ، فأمَرَهُ بألَّا يخرجَ من القصرِ دونَ

إذْنِهِ وألَّا يتحركَ دونَ حراسةٍ مُشَدَّدَةٍ".

لَمْ يكـنْ للأميرِ الشابِّ أصدقاء، فكانَ يَقْضِي يَوْمَهُ فِي القَصْرِ، والحرسُ لا يتركونَهُ لحظةً واحدةً، وَحَتَّـى مُدَرِّسـوهِ وَمُدَرِّبوه لا يتحدثونَ معهُ كلمةً واحـدةً خـارجَ حـدودِ مـا هم مكلَّفُونَ بِهِ.. لكنَّ الأمـيرَ الـصغيرَ سَـئِمَ منْ هَذِهِ الحياةِ.. فقد أصبحَ شـابًّا يافِعًـا، يحبُّ الحُرِّيَّةَ ويريدُ الخروجَ إلى الناسِ والتعرُّفَ إلى كثيرٍ منَ الأصدقاءِ..

طلـبَ مِـنْ جَـدِّهِ الملـكِ مِـرَارًا الـسَّماحَ لَـهُ بالخروجِ والتَّنَزُّهِ في أَمْكَنَةٍ قريبةٍ منَ القَصْرِ يرتادُها الـرَّعِيَّةُ، فلـمْ يوافِقِ الملكُ، ولمْ يقبلْ بالأمْرِ.. لكنَّ حَفِـيدَهُ كانَ مُصِرًّا، وصارَ يَرْجُوهُ، فَرَقَّ قلبُ جَدِّهِ ونهـاهُ عـن ذلـك لأنَّ أبـناءَ الملوكِ يجبُ أن تكونَ نُفُوسُـهُمْ مليـئةً بالعِـزَّةِ والكـبرياءِ.. وَوَافَـقَ على

خُـرُوجِهِ بِـصُحْبَةِ الحـرسِ شَرْطَ العَوْدَةِ مُسرِعًا.. وطلبَ من كبيرِ الحَرَسِ أن يَعْتَنِيَ بحفيدِه ويحرُسَه كَمَلِكٍ..

وَهَكَذا خَرَجَ الأميرُ الصغيرُ لأولِ مَرَّةٍ بعيدًا عـنِ القـصرِ، وكـانَ بـرفقتِهِ مِنَ الحَرَسِ الأَشِدَّاءِ، يحيطونَ بهِ بِهَيْبَةٍ وإجْلالٍ..

سـارَ الأمـيرُ الشابُّ علَى قَدَمَيْهِ حَتَّى وصلَ إلى سـاحَةٍ قـريبةٍ من القصرِ مليئةٍ بالْبَاعَةِ والمحالِّ والتُّجَّارِ والزَّبَائِنِ..

عـندمَا رأَى الـناسُ الأمـيرَ وَحَرَسَه ابتعدُوا عـنْ طـريقِهِمْ وفَـضَّلَ كثـيرٌ مِـنْهُمْ تَـرْكَ المكانِ.. فـوجدَ الأمـيرُ نَفْـسَهُ وحـيدًا مـعَ الحرسِ وبعضِ الـباعَةِ والـتُّجارِ الـذين كانـوا يجلـسونَ داخـلَ محَلّاتِهِمْ.

حـزنَ الأميرُ الشابُّ، فَهُو لا يستطيعُ التَّكَلُّمَ حَتَّـى مـعَ الـناسِ الذين ظَلّوا في المكانِ مضطرينَ حِرْصًا عَلَى بَضائِعِهمْ وأمْوَالِهِمْ..

شَـعَرَ أنَّهُـمْ يخشونَ الـتحدُّثَ إلـيهِ، كما أنَّ الحرَس يبعدونَ الناسَ عَنْ طريقِهِ، وَحَتَّى الْحَرَسُ أَنْفُسُهُمْ ممنوعونَ مِـن الكـلامِ مَعَـهُ لغـيرِ سَبَبٍ ضَرُورِيٍّ.. فَقَرَّرَ العودةَ إلى القصرِ فَوْرًا..

رَوَى الأمـيرُ لجِـدِّهِ الملـكِ ما حَدَثَ، وَسَأَلَهُ عنْ سَبَبِ ابتعادِ الناسِ عَنْهُ..

فقالَ لَهُ الملكُ بهدوءٍ وَثِقَةٍ:

"لا سـبيلَ لغـيرِ ذلـك يـا بُنَـيَّ، فأنـتَ مـن سَـيَرِثُنِي ويقـودُ الـبلادَ مِـنْ بعـدِي، هُمْ يهابونَكَ لأنَّكَ السَّيِّدُ المطاعُ، وَأنا أَخْشَى عليكَ أنْ يُصِيبَكَ سُوءٌ".

لكــنَّ الأمــيرَ الصغيرَ لَمْ يَسُرَّهُ هَذا الجوابُ.. فَهُوَ يريدُ الاقترابَ منَ الناسِ أكْثَر...

بَعْـدَ أيَّـام، طلــبَ الأميرُ منْ جَدِّهِ مِنْ جَديدٍ السَّمَاحَ لَهُ بالخروجِ للتنزُّهِ مرَّةً أُخْرَى.. بعدَ أنْ قَرَّرَ القيامَ بِخِدْعَةٍ تقربُهُ مِنَ النَّاسِ..

قَـرَّرَ أنْ يَلْبسَ ثيابًا بَسِيطة لَا تُوحِي أبدًا بأنَّهُ أمـيرٌ مِـنْ أمْـرَاءِ ذلكَ الزمانِ، بَلْ هِي ثِيابٌ تجعلُهُ يبدُو وكأنَّهُ منْ فُقَرَاءِ الرَّعِيَّةِ..

لَكِنْ مِنْ أينَ يَحْصُلُ عَلَى مثلِ هَذِهِ الثِّيَابِ؟

❋ ❋ ❋

المشهدُ الخامسَ عشرَ



فَكَّرَ بالأمْرِ ولَمَعَتْ فِي رأسِهِ فكرَةٌ..

الأمْرُ بَسِيطٌ..

يمكــنُ الحـصولُ على هذِهِ الثيابِ منْ داخلِ القَصْرِ نَفْسِهِ، وَهِيَ لصَبِيٍّ يافعٍ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، يعملُ مُزَارِعًا فِي الْحَدِيقَةِ..

عـندمَا حـضرَ الـصَّبِيُّ في مَوْعِدِهِ الثابتِ كلَّ يَـوْمٍ؛ تحـدَّثَ إليهِ الأميرُ خِلْسَةً دونَ أنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، وأَغْرَاهُ بِبَعْضِ النقودِ مقابلَ أنْ يعيرَهُ ثيابَهُ الرَّثَّةَ.

أعطـاهُ الـصَّبِيُّ ثِيَابَهُ هَذِهِ التِي يأتِي بِهَا يَوْمِيًّا، وَارْتَدَى ثيابَ الْعَمَلِ الَّتِي تُوجَدُ فِي حديقةِ القَصْرِ

عـلى أنْ يعـيدَ إلـيهِ ثيابَهُ قبلَ انتهاءِ عَمَلِهِ لِيَعُودُ إلى بَيْتِهِ..

أَخَـذَ الأمـيرُ ثـيابَ الـصبيِّ إلى غُرْفَتِهِ، وبدأَ يعدُّ لِلْمَرْحَلَةِ الثانيةِ من الخطَّةِ.

ارتـدَى الأميرُ الصغيرُ ثيابَ المزارِعِ البسيطةَ وَوَضَـعَ فَـوْقَهَا عَـبَاءَتَهُ الملكـيَّةَ الفاخِـرَةَ، وَغَطَّى رَأْسَـهُ بِعمَامَـتِهِ الـمُزَرْكَـشَةِ الْمُرَصَّـعَةِ بالأحْجَـارِ الكَـرِيمَةِ، ثـمَّ خَـرَجَ بِـصُحْبَةِ الْحَـرَسِ مِـثْلَ الْمَرَّةِ المَاضِيَةِ..

سارَ الأميرُ بهدوءٍ يتأملُ وَاجهاتِ الْمَحَالِّ..

تَـصَرَّفَ الـناسَ مـثلَ الْمَـرَّةِ المَاضِيَةِ دونَ أنْ يبديَ الأميرُ أيَّ اسْتِغْرَابٍ..

وَقَـفَ أمـامَ وَاجِهَـةِ محَـلٍّ للملابـسِ وَأَمَـرَ

الحـرسَ بانـتظارِهِ لأنَّـهُ يـريدُ أنْ يـشتريَ من هذا المحلِّ بعضَ الأشياءِ.. فَأَسْرَعَ الحَرَسُ وَسَبقُوهُ إلى داخِلِ المحلِّ للتأكُّدِ مِنْ عَدَمِ وجودِ أيِّ خَطَرٍ..

وَعِـنْدَمَا دخلَ كانَ صاحِبُ الْـمَحلِّ مُرْتَبِكًا وَخَائِفاً..

طلبَ الأميرُ مِن الحرسِ الخروجَ حتى ينتهيَ مـنَ الـشراءِ، لكـنَّهُمْ لَمْ يُوَافِقُوا على الأمْرِ إلَّا بعدَ إصْرَارٍ مِنْهُ..

راحَ يـدورُ فــي المحـلِّ متفحِّـصًا البـضائعَ المعروضَـةَ، وانتهـزَ فرصـةَ وقوفِهِ فِي زاويةٍ لا يَرَاهُ مــنهَا صــاحبُ المَحَــلِّ وأسرعَ بخلــعِ الْعَــبَاءَةِ وَالعمَامَـةِ، فظهـرَ بشكلٍ مختلفٍ تمامًا، وعندما رآهُ

صاحبُ المحل فُوجئ بِهِ وطلب منه بصوتٍ هامسٍ الخروجَ فَوْرًا.

سأله عن السبب فقال بصوت يرتجف:

"إن الأمير الصغير حفيدُ الملكِ موجودٌ فِي الْمَحَلِّ"..

فقالَ لَهُ:

"وَمَاذا فِي ذلكَ؟".

قالَ: "سَيَقْتُلُونَني أَنَا وَأَنْتَ، أَلَا تَفْهَمُ؟ أَلَسْتَ مِنْ هَذِهِ البلادِ.. هَيَّا اخْرُجْ مِنْ هُنَا فَوْرًا"..

كانَ الأميرُ يفكّرُ بأنْ يخرجَ مِنَ المحلِّ بثِيابِ العامِلِ ليَتَخَلَّصَ مِنَ الحرسِ ويحتكَّ بالنّاسِ مُباشَرَةً.

لَكِــنَّهُ بعــدَ أن ســمعَ هــذا الكلامَ عدلَ عن خُطَّــتِهِ وأسرَعَ بلــبسِ العــباءَةِ ووضَــعَ العِمَامَــةَ، فَأُصِــيبَ الــرجلُ بدهــشةٍ وانعقــدَ لــسانُهُ وأصابَهُ رعــبٌ شــديدٌ، لكنَّ الأميرَ هَدَّأَ مِنْ رَوْعِهِ وطلبَ منهُ عدمَ الخوفِ، لأنَّ الأمْرَ لا يستدعِي ذلِكَ..

طلــبَ الأمــيرُ مِنَ الرَّجُلِ أنْ يشرحَ لَهُ سببَ هــروبِ الناسِ وَخَوْفِهِمْ مِنْهُ.. لكنَّ الرجلَ رفضَ أنْ يتكلمَ، فَقَدْ كانَ خَائِفًا.

الأمــيرُ الشابُّ حَدَّثَهُ بتواضُعٍ واحترامٍ حتى اطمــأنَّ إلــيهِ الــرَّجُلُ، وَأَدْرَكَ بفِطْنَــتِهِ وَخــبْرَتِهِ وَبِحُكْمِ تَقَدُّمِهِ بالسِّنِّ أنَّ الأميرَ شابٌّ طيِّبٌ لطيفٌ ولــيسَ مِــثْلَ جَــدِّه قــاسِي القلــبِ.. كما يظنُّ سائرُ الناسِ..

لكنهُ لَمْ يُحَدِّثْهُ عَنْ قَسْوَةِ جَدِّهِ، وقالَ لَهُ:

"الناسُ يخشونَ الحاكمَ لشدَّتِهِ وحَزْمِهِ، لكنَّهُ لَمْ يكنْ كذلكَ قبلَ أنْ يموتَ ابْنُهُ، فَمُنْذُ ذلكَ الحينِ أصبحَ لا يسمحُ لِلرَّعِيَّةِ بالاقترابِ مِنْهُ، وصارَ مُنْعَزِلًا عنِ الناسِ وَحَرَسُهُ يعاملونَ الناسَ بِقَسْوَةٍ شديدةٍ"..

لكنَّ الأميرَ الشابَّ لم يقتنعْ بِهَذا الكلامِ، وَلَمْ يُرِدْ إطالَةَ الحديثِ كَيْلَا يثيرَ ريبةَ الْحَرَسِ، فاشترَى بعضَ الثيابِ وأعْطَى لِلرَّجُلِ صُرَّةً مليئةً بالنقودِ، وقالَ لَهُ قبلَ أنْ يغادرَ:

"سَأعودُ إليكَ مَرَّةً ثانيةً.. وأرجُو عِنْدَهَا أنْ تُحدِّثَنِي دونَ خوفٍ"..

* * *

المشهدُ السادسَ عشرَ



بعدَ أيَّامٍ.. قَرَّرَ الأميرُ الخروجَ وَحْدَهُ..

لكنْ كَيْفَ السبيلُ إلى ذلكَ والحرسُ يحيطونَ بِهِ طوالَ الوَقْتِ؟

فَاهْتَدَى الأميرُ الصغيرُ إلى خِدْعَةٍ جديدةٍ..

انتظرَ حَتَّى أنْهَى عاملُ الحديقةِ الصَّبِيُّ اليافِعُ عَمَلَهُ، وناداهُ بإشارةٍ من يدِهِ، فاقتربَ الصبيُّ وهو يرتجفُ منَ الخوفِ.. قال لَهُ الأمِيرُ إنَّهُ يريدَ مِنْهُ أَمْرًا إنْ فَعَلَهُ سَيُكافِئُهُ عليهِ مكافأةً كبيرةً..

كانَتْ خطةُ الأميرِ أنْ يرتديَ الصَّبِيُّ العامِلُ ثيابَ الأميرِ وأن يَرْتَدِيَ الأميرُ ثيابَ العامِلِ،

ويـدخلُ العامـلُ غـرفَةَ الأمـيرِ بيـنما يخرجُ الأميرُ لابسًا ثياب الصَّبِيِّ، فلا يشَكُّ فِيهِ أحَدٌ..

خـافَ الـصَّبِيُّ.. مَـاذا لَـوِ اكتـشفَ أحَدُهُمْ ذلكَ؟

فَطَمْأَنَهُ بأَنَّهُ لا أَحَدَ يدخلُ غُرْفَتَهُ..

وطلـبَ مـنهُ أنْ يَبْقَـى فِـيهَا حتـى يعـودَ فِي الـصباحِ موعد دخولِهِ القصرَ.. فيستعيدُ كُلٌّ منهمَا شَخْصِيَّتَهُ..

وَنَجَحَـتِ الخطـةُ بِبَـسَاطَةٍ دونَ أنْ يلحـظَ الْحَـرَسُ ذلـك، فَقَـدْ كانَ الصبيانِ يافعينِ في سِنٍّ واحـدَةٍ وبنـيةٍ واحـدةٍ.. وَمَـنْ يعـتقدُ أنَّ الأمـيرَ سيتنكَّرُ فِي زِيِّ صَبِيٍّ فَلّاحٍ؟

تَـوَجَّهَ الأمـيرُ فـورَ خروجِهِ إلى ذلكَ الْمَحَلِّ

الـذِي التقَى فيهِ الرَّجُلَ مِنْ قبلُ.. وَمَا أن رآهُ حَتَّى كادَ يُغْمَى عَلَيْهِ مِنَ الخَوْفِ..

وَبَعْـدَ أنْ هـدأ الـرَّجُلُ قلـيلًا، شـعرَ بِمَدَى اهـتمامِ الـصبيِّ بِـهِ وحِرْصِهِ على سَلامَتِهِ وصِحَّتِهِ، ولم يكنْ في محَلِّهِ وَقْتَهُ أحَدٌ مِنَ الزَّبَائِنِ..

طلـبَ الأمـيرُ مِـنَ الـرَّجُلِ بعـدَ أنِ استعادَ عافِيَـتَهُ أنْ يُخْـبِرَهُ عَنْ سِرِّ خَوْفِ النَّاسِ مِنْهُ.. لكنَّ الرَّجُلَ رَفَضَ بإصْرَارٍ..

أدْرَكَ الـشابُّ أنَّ هـناكَ حاجزًا كبيرًا يفصلُ بـينَ الـشعبِ وَالْمـلِـكِ.. وَأنَّ علـيهِ أنْ يَكْتَـشِفَ السَّبَبَ...

قالَ لِلرَّجُلِ:

"سَـتُخْبِرُنِي حقـيقةَ الأمْرِ، وإلَّا سوفَ أخبرُ جَدِّي الملكَ أنَّكَ أَسَأْتَ مُعَامَلَتِي"..

فَصَارَ الرجلُ يرجوهُ ألَّا يفعلَ ذلكَ..

فَقَالَ:

"لَـنْ أُخْبِرَهُ إذا أخْبَرْتَنِي مَا هُو سَبَبُ خَوْفِ الناسِ مِنْ مَوْلايَ الملكِ؟".

عندَها قالَ الرجلُ:

"بـشرطِ أَلَّا تَغْـضَبَ مهـمَا قلـتُ وَسَـوف تُصَدِّقُنِي وَلَوْ كانَ كَلامِي غَرِيبًا بالنسبةِ لكَ؟"..

قال الأميرُ الصَّغِيرُ:

"أعِدُكَ بِذَلِكَ"..

فقالَ الرَّجُلُ غَاضِبًا يريدُ أنْ يخرجَ مِنْ دَاخِلِهِ ألَـمًـا سكنَ قَلْبَهُ فترةً طويلةً منَ الزَّمَنِ:

"إنْ الملـكَ رَجُـلٌ ظالمٌ.. يأخذُ أموالَ الناسِ بالـباطِلِ دونَ حَـقٍّ، وَمَـنْ يمتـنعْ عَنْ دفع نِصْفِ أرْبَاحِـهِ مــنَ الــتجارَةِ لِحَـرَسِ الملـكِ يُـضْرَبْ وَيُـسْجَنْ.. والحـرسُ يقومـونَ بإهانَتِـنا وضربِنا، ولذلكَ فنحنُ نَدْفَعُ عَلَى الفَوْرِ"..

ذُهِلَ الأميرُ الشابُّ مِنْ ذَلِكَ..

فَجَدُّهُ طَيِّبُ القلبِ ولا يمكنُ أنْ يفعلَ ذلكَ أبـدًا، وَطَلَـبَ مِـنَ الـرَّجُلِ دَلِيلًا عَلَى كلامِهِ وإلَّا سَوْفَ يعاقبُهُ بِنَفْسِهِ..

فَقالَ لَهُ:

"أَلَمْ تَقُـلْ لِي مـنذُ قليلٍ إنَّكَ لَنْ تَغْضَبَ مهمَا قلـتُ، وإنَّـكَ سَتُـصَدِّقُنِي، وقـد عَاهَدْتَنِـي عَـلَى ذلكَ؟".

اعْتَذَرَ الأمِيرُ الصغيرُ مِنَ الرَّجُلِ، وقالَ لَهُ:

"وَمَعَ ذلكَ أريدُ دليلًا على ما تَقُولُ".

فقالَ الرَّجُلُ:

"انتظـرْ قلـيلًا يـا سَيِّدِي.. اليومَ موعدُ دفعِ الـنقودِ.. وفي هـذا الوقتِ عادةً يأتِي جنودُ الملكِ، وهم الآنَ يتنقَلونَ بَيْنَ التُّجَّارِ".

انتظرَ الأميرُ بعضَ الوقتِ.. ثم سمع حركةً وجَلَـبَةً على مدخل المحلِّ، فأسرع للاختباءِ خلفَ بعـض البضائعِ، عِنْدَها دخلتْ مجموعةٌ مِنْ جنودِ الملـكِ وطلـبُوا المـالَ المعتادَ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ بدفعهِ فَوْرًا دونَ أنْ يَتَكلَّمَ..

استـشاطَ الأمـيرُ غـضبًا ولمْ يَـسْتَطِعْ تمالـكَ نَفْـسِهِ، فخـرجَ مـن مَخْبَـئِهِ زاجِـرًا الجـنودَ الـذينَ

فُوجئوا بالشابِّ دونَ أن يَعْلَمُوا مَنْ هُوَ.

صَارَ الأميرُ يصيحُ بِهِمْ:

"أرجعـوا الـنقودَ لِصَاحِبِهَا وإلَّا عَاقَبْتُكُمْ.. فَأَنا الأميرُ أيُّها اللُّصُوصُ".

وَكـانَ يظـنُّ أنَّهُـمْ سَـيَهَابُونَهُ لأنَّهُمْ يفعلونَ ذلـكَ بغـيرِ عِلْمِ جَدِّهِ الملكِ.. لكنَّ الجنودَ انقضَّوا عَـلَى الأمـيرِ بعـدَ أنْ نَظَرُوا إلى هَيْئَتِهِ وثيابِهِ الرَّثَّةِ، وقَبَـضُوا علـيهِ ظـنًّا مِنْهُمْ أَنهُ مُجَرَّدُ شابٍّ مُتَهَوِّرٍ.. وعـندمَا شـاهدَ صاحِبُ الْـمَحَلِّ ما حَدَثَ.. وَقَعَ عَلَى الأرْضِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ فاقدًا وَعْيَهُ... وَأَخَذَ الْحَرَسُ الأميرَ مَعَهُمْ وَأَلْقُوْهُ فِي السِّجْنِ..

* * *

المشهدُ السابعَ عشرَ



وَفِي هَـذِهِ الأثـناءِ.. أرادَ الملـكُ التَّحَدُّثَ إلى حَفِيدِهِ لأمْرٍ طارئٍ.. وَنَادِرًا ما يحدثُ ذلكَ..

فـذهبَ إلَـيْهِ فِي غُـرْفَتِه وَلَمْ يَكُـنْ يَذْهَبُ إلَى غُـرْفَتِهِ كثـيرًا، فَعَثَـرَ عَلَى المُزَارِعِ الصَّغيرِ فِي الغرفةِ مكانَـهُ، ودونَ تحقـيقٍ طـويلٍ أقـرَّ المـزارعُ بِفِعْلَتِهِ واعـترفَ لِلْمَلِـكِ بكـلِّ مَـا حَـدَثَ.. فأمَرَ الملكُ حُرَّاسَـهُ بِـسَجْنِ الْفَتَـى وبالـبَحْثِ عـنِ الأمـيرِ.. فأخـبرُوهُ بـأنَّ هـناكَ شابًّا يَدَّعِي أنَّهُ الأميرُ، قَبَضَ علـيهِ بعـضُ الجـنودِ في الـسُّوقِ وَهُـوَ الآنَ فِي الـسِّجْنِ.. وَقَـدْ ظَـنُّوا أنَّـهُ مجْنُونٌ أوْ مُـدَّعٍ مخادِعٍ ينتحلُ صفةَ الأمِيرِ، وَجَدُوهُ فِي السوقِ يرتدِي ثيابًا

رَثَّـةً بَالـيةً.. ولا يُوحِـي منظـرُهُ أبدًا بِأَنَّهُ أميرٌ وَلَا حَتَّى خادِمُ أمِير..

فَأَمَرَ الملكُ بِإحْضَارِهِ إِلَيْهِ فَوْرًا.

وعـندمَا مَـثلَ الأمـيرُ بـينَ يَـدَيْ جَدِّهِ الملكِ استغربَ الملكُ أَشَدَّ الاستغرابِ مِنْ منظرِ الأميرِ عِـندمَا رَآهُ أمَامَـهُ عَـلَى هَيْئَتِهِ الرَّثَّةِ.. فطلبَ مِنْهُ أنْ يَذْهَبَ إِلَى غُرْفَتِهِ، وَأَنْ يُنَظِّفَ نَفْسَهُ وَيَرْتَدِيَ ثيابَ الأمراءِ ثمَّ يعودَ لِيشرحَ لَهُ مَا حَدَثَ.. لكنَّ الأميرَ أصَرَّ عـلى أنْ يخـبرَ الملـكَ عَـن الأمرِ قبلَ أيِّ شَيْءٍ آخَـر، ويـشرَحَ لَهُ سَبَبَ هَذِهِ الحالِ.. وقالَ الأمِيرُ للملكِ إنَّهُ صُدِمَ مِمَّا رآهُ بِنفْسِهِ، وَأخْبَرَهُ أنَّهُ لا يقبلُ بأنْ يكونَ وَلِيًّا لِعَهْدِهِ ومَلِكًا مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنَّهُ سيتركَ القصرَ لِيَعِيشَ كَعَامَّةِ النَّاسِ..

الملـكُ أصيبَ بِحيرَةٍ بَالِغَةٍ، وأدركَ أنَّ الأمْرَ خَطيرٌ جِدًّا.. فَأَمَرَهُ بأنْ يخبرَهُ بِمَا رَآهُ فَوْرًا..

وَبَعْـدَ أنْ أَخْبَرَهُ بِمَا رَآهُ وَسَمِعَهُ بنفسِهِ؛ أقسمَ الملـكُ أنَّـهُ لا يَعْلَـمُ عَـنْ هَـذا الأمْـرِ شـيئًا، وَأنَّـه سَيُعَاقِبُ الفاعِلِينَ..

فَاسْـتَدْعَى الملـكُ بعـضَ حَرَسِـهِ المقـربينَ وَسَـأَلَهُمْ عَـنِ الأمْـرِ، وَعَلِـمَ أنَّ الأمْـرَ صَـحِيحٌ، فَـسَأَلَهُمْ لِمَـاذا لَمْ يخـبرُوهُ بـذلكَ، فقالُـوا لَهُ إنَّهُمْ فِي العـادَةِ مِنْ غَيرِ الـمَسْمُوحِ لَهُمُ الحديثُ مَعَ الملكِ، كَـمَا أنَّهُـمْ كانـوا يَخْـشَوْنَ الكـلامَ ظَنًّا مِنْهُمْ أنَّهُ هُوَ الَّـذِي يأمُـرُ الجـنودَ بذلكَ، لأنَّ وَزِيرَهُ الأوَّلَ كانَ يعرفُ الأمْرَ وَيَحْجُبُهُمْ عَنِ المَلِكِ..

غَـضِب الملكُ غَضَبًا شديدًا بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي

مَمْلَكَـتِهِ مِـنْ ظُلْـمٍ باسْـمِهِ، فاسْتَدْعَى وزيرَهُ وقائدَ الجُـنُودِ فَـوْرًا، كَـمَا دَعَا كبيرَ القُضَاةِ، وَأَمَرَ بإجراءِ تحقـيقٍ ومحاكمةٍ علنيةٍ عادلةٍ لمعاقبةِ المذنبينَ.. بَدْءًا بوزِيرِه الأَوَّلِ وقائدِ الجنودِ..

وَمُـنْذُ ذلـكَ الـيومِ قَـرَّرَ الملـكُ عَزْلَ الوزيرِ وَمُعَاقَبَـتَهُ، وأمَـرَ بـأَنْ تُزَالَ كُلُّ الحواجِزِ بَيْنَهُ وبينَ الـشَّعْبِ، وأمـرَ بِفَـتْحِ أبوابِ القَصْرِ أَمَامَ الرَّعِيَّةِ، يدخلـونَ إِلَـيْهِ ويـتحدثونَ مَعَـهُ كُلَّمَـا أَرَادُوا، كَمَا سـمحَ للأميرِ الشابِّ بأنْ يخرجَ وَيَلْتَقِيَ بالناسِ فِي أيِّ وقتٍ وَأيِّ مَكانٍ.

ثُـمَّ أَعـادَ الملـكُ المـالَ إِلَى أَصْـحَابِهَا بَعْدَ أَنْ عَاقَـبَ الوزيـرَ وقائدَ الجنودِ الذينَ كانوا يأخذونَ مَالَ التُّجارِ عنوةً بِغيرِ حَقٍّ، وَأمَرَ بِحَبْسِهِمَا والحَجْزِ عَلَى كُلِّ أَمْوَالِهِمَا..

ومـنذُ ذلـكَ الـوقتِ أصـبحَ الأمـيرُ صديقًا لـصاحِبِ مَحَلِّ الثيابِ.. كـما أصـبحَ محبوبًا لَدَى الناسِ جميعًا.

وفِي يـومٍ، وفـيمَا كـانَ الأمـيرُ يجـولُ في الـسُّوقِ، شـاهَدَ فتاةً مؤدَّبَةً جدًّا، مَا أَنْ رَآهَا حَتَّى أُعْجِبَ بأخْلَاقِها وَأَدَبِهَا فسأَلَ عَنْ والدِها، فعرفَ أَنَّهُ صَاحِبُ المحلِّ نَفْسُهُ..

ذهـبَ الأمـيرُ إلَـيْهِ فِي مَحَلِّـهِ وطلـبَ منهُ أنْ يـزوِّجَهُ ابنتَهُ، فوافقَ الرجلُ بِشَرْطِ أَنْ يوافِقَ الملكُ عَلَى هذا الزَّوَاجِ لأَنَّهُ مِنْ عامَّةِ الناسِ.

وَبَعْدَ أنْ عرضَ الأميرُ عَلَى الملكِ الأمْرَ وَافَقَ عَـلَى الفـورِ، رَغْـمَ أَنَّهُ مِنْ عَادَةِ الملوكِ أَلَّا يُزَوِّجُوا أولادَهُـمْ إلَّا بِبَـنَاتِ مُلـوكٍ وَأمَـرَاءَ أَوْ مِـنْ بناتِ أَسْرَةٍ مَالِكَـةٍ.. فـنقضَ الملكُ هذِهِ القاعِدَةَ القديمةَ

وأعلـنَ موافقـتَهُ عـلى زواجِ حَفِيدِهِ بابْنَةِ صَاحِبِ المحلِّ..

وكـانَ الملـكُ يـريدُ أن يقـيمَ عُرْسًـا مَلَكِـيًّا عَظِـيمًا، غـير أنَّ الأمـيرَ الـصغيرَ طلـبَ أن يكونَ عُرْسًـا شَـعْبِيًّا يَجْرِي في إحْدَى السَّاحَاتِ الكبيرةِ، وأنْ يَحْضُرَهُ الملكُ بِنَفْسِهِ لِتَلَقِّي التَّهانِي منَ الشعبِ مـباشَرَةً، فوافـقَ الملـكُ عَـلى ذلـكَ بكـلِّ سَـعَادَةٍ وَرِضًى.. وكانَ يومًا بديعًا لم تشهد الممالكُ القديمة عرْسًا مثلَهُ.

وَكانَـتْ هَـذِهِ القِصَّةُ مِنْ أكثرِ القصصِ التي تـسرُّ الفَتَـى اليتـيمَ عِـنْدَمَا يَـسْمَعُها.. أَوْ عـندِمَا يَتَذَكَّـرُها حين يكونُ جالسًا بمفرَدِهِ يتأمَّلُ الطبيعةَ ويفكرُ فِي الحَيَاةِ..

❁ ❁ ❁

المشهدُ الثامنَ عشرَ



اعـتادَ الفَتَـى "يتـيم" في اللَّيالِــي المقمِـرَةِ الجلـوسَ فِي قلـبِ شـجرةٍ باسِـقَةٍ قـربَ الـسُّورِ العالي.. يقضِي وَقْتَهُ فِي التفكيرِ..

الـشَّجَرَةُ تـرتفعُ فوقَ جِدارِ السُّورِ، وعندَما يَرْتَقِـي الفَتَـى أغْـصَانَهَا العالـيةَ يظهرُ لَهُ المنحدَرُ، فينـصتُ مُتَرَصِّـدًا صـوتًا غـريبًا يسمعه من فضاء الحـرية المترامِـي أمامَـهُ مـثل بحـر أخـضر ممـتد، وعـندما كـانَ يـشاهد طيرًا يحلِّقُ من بعيدٍ أوْ أرنبًا بَرِّيًّا يَعْدُو بَحْثًا عَنْ شيءٍ يأكُلُهُ، يَتَحَسَّرُ عَلَى سِجْنِهِ متمنـيًا الحـريَّةَ التـي يـنعمُ بِهَا ذلكَ الطيرُ أَوْ ذلكَ الأرْنَبُ..

وَلَمْ يكـنْ "يتـيم" يكـشفُ أفكارَهُ لأحَدٍ مِنَ الناسِ، يَعْتَبِرُها أمورًا لا يمكنُ البَوْحُ بِهَا، كما أَنَّهُ لَمْ يكـنْ عِـنْدَهُ صـديقٌ مُـمَـيَّــزٌ مُقَـرَّبٌ منهُ، فَهُوَ لَمْ يَـذْهَبْ لِلْمَدْرَسَةِ، وتعلَّمَ القراءَةَ والكتابةَ فِي بيتِ جَدَّتِـهِ، وَلَمْ يكـنْ يَلْهُـو مَعَ الفتيانِ أمثالِهِ، بَلْ كانَ وَقْـتُهُ مُـوَزَّعًا بـين مـساعَدَةِ المحتاجينَ والجلوسِ متأمِّلًا فَوْقَ الشَّجَرَةِ..

وَمَضَتِ الأيامُ والليالي على هذِه الحالِ سنينَ عَدِيـدَةً.. حتـى أصـبحَ اليتـيمُ شابًّا يافعًا.. وكانَ كـبارُ الـسِّنِّ عِـنْدَمَا يقـومُ بمـساعدتِهِمْ بأمْـرٍ مَـا يـسألونَهُ عَنْ موعِدِ زَوَاجِهِ، لكنَّهُ كانَ دائمًا يَتَهَرَّبَ مِـنْ هـذا السؤالِ بِحُجَّةِ أَنَّهُ ما زالَ صَغِيرًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِدِ العروسَ المناسبَةَ لَهُ بَعْدُ..

هَـلِ العـروسُ هِـي الحكايـةُ الّتِـي تنـسجُ المستقبلَ..

كُلُّ الناسِ فِي القريةِ يبحثونَ عَنِ المستقبلِ فِي أبنائِهِمْ..

الـشُّيوخُ يَـزْرَعُونَ الْـوَرْدَ عَـلَى صَـفَحَاتِ المَاضِي..

الفتيانُ يملأونَ الشعابَ ضَجِيجًا وَحَيَاةً..

الـيَفَاعَةُ لَيْـسَتْ هُوِيَّةً.. بَلْ حَيَاةً لِلأَمَامِ.. لا يَسْكُنُ عِنْدَهُمُ المَاضِي بيتًا غير بيتٍ خَرِب..

عُيُونُهُمْ تَرْنُو برفقٍ لكلِّ حَيَاة جَدِيدَة..

وَرُغْـمَ مـتانَةِ الأَسْـوَارِ التـي كانَـتْ تُحِـيطُ بِقَـرْيَتِهِمْ.. فـإِنَّ قَـرْيَتَهُمْ تَتَّـسِعَ مَـعَ كُـلِّ مَوْلُـودٍ جَديدٍ..

وَمَع تَقدُّمِ "يتيمٍ" فِي عُمْرِهِ واشتدادِ قُوَّتِهِ، لَمْ يعـدُ الجلـوسُ فـترةً طـويلةً فوقَ الشَّجَرَةِ وَحْدَهَا يُرْضِيهِ وَيَكْفِي نُزُوعَهُ نَحْوَ الحُـرِّيَّةِ والانطلاقِ..

كـانَ يُـدَوِّنُ مُـشَاهَدَاتِهِ الجديـدةَ كُـلَّ يَـوْمٍ، وصـارَ وقتُ جلوسِهِ فوقَ الشَّجَرَةِ يزدادُ، وَلَمْ يَعُدْ يكتفِـي باللـيالي الْمُقْمِرَةِ، وصارَ يجلسُ فترَةً طويلةً مِنَ النهارِ، دون أن يتوقفَ عَنْ مساعَدَةِ الآخرينَ، وإذا وجـدَ هـناكَ مـنْ يُسَاعِدُهُمْ غَيْرُهُ انصرفَ إلى شَجَرَتِهِ المعتادَةِ..

وَمَـعَ مُـضِيِّ الأيامِ أَصْبَحَتْ لَدَيْهِ معلوماتٌ غزيـرَةٌ لَمْ يَقْرَأهَا فِي كتابٍ وَلَمْ يُعَلِّمْهُ إيَّاهَا أَحَدٌ، بَلْ عَرَفَهَا بِالْـمُشَاهَدَةِ وَالْـمُرَاقَبَةِ والتَّفَكُّرِ..

بَاتَــتْ مَعْــرِفَتُهُ واســعةً بأنــواعِ الطــيورِ وأشْـكَالِها، يعـرفُ مَوَاعِـيدَ وَصول كُلِّ طيرٍ مِنْهَا، فــي الـصَّيْفِ وَفِي الشتاءِ، فِي الرَّبيعِ وفِي الخريفِ، كـما تعرَّفَ إلَى أنواعِ الأشْجَارِ، وعددِها في المنطقةِ التــي تـشرفُ عَلَـيْهَا الـشَّجَرَةُ، وَرَسَـمَ خـريطةً لِلأَشْـجَارِ، وقـدَّرَ أعْمَالَهـا، ومنحَ بعضَ الأشجارِ الَّتـي لا يُـوجَدُ مِـنْهَا فِي قَـرْيَتِهِ وَلا يَعْرِفُ اسْمَهَا، اسْمًا جميلًا يتوافَقُ مَعَ شَكْلِها..

فَهَذِهِ شجرةُ الغصونِ المُـلْتَفَّةِ..

وتلكَ الشجرةُ عروسٌ بِتَاجِهَا الأَخْضَرِ..

وَالشَّجَرَةُ الرَّشيقَةُ بقامَتِها الفارِعَةِ..

هُنَاكَ الشَّجَرَةُ السَّمِينَةُ الممتلئةُ السَّاقِ..

كَـما أطْلَقَ اسْمَ الشَّجَرَةِ المجنونَةِ عَلَى شَجَرَةٍ

عاليةٍ رفيعةِ الأغصانِ لا تَتَوَقَّفُ عَنِ الحركةِ سواءً مَـعَ وجـودِ الـريحِ أَمْ دُونهـا.. وَهَـذا ما كانَ يثيرُ اسـتغرابَهُ فَسَمَّـاهَا بِالمَجْنُونَةِ. لَكِنَّهُ اكتشفَ لاحقًا أَنَّهـا تـأْوِي مجمـوعةً مـن الطيورِ الصغيرةِ الحَجْمِ بحَجْـمِ حَـبَّةِ الجَـوْزِ، تظـلُّ عَـلَى الـدوامِ تُحَـرِّكَ أَجْنِحَـتَهَا وتنتقلَ مِنْ غصنٍ إلى آخرَ دونَ تَوَقُّفٍ.. وقليلًا مَا تَهْدأ أَوْ تَنَامُ.

وَكانَ "يتيم" يكتبُ كُلَّ هَذا فِي أَوْرَاقٍ كثيرةٍ متفـرِّقَةٍ، وعـندَما يـشعرُ بالـتَّعَبِ يعودُ إلى بَيْتِهِ فِي وقتٍ مُتَأَخِّرٍ منْ لَيْلٍ أوْ مِنْ نَهَارٍ، ثم ينقلُ تفاصيلَ ملاحظاتهِ الهامَّةِ إلى سِفْرٍ كبيرٍ، يَخطُّ الحَرْفَ بشكلٍ جمـيلٍ، يرسـمُ مـا يحـتاجُ إلَى رَسْمٍ، ويضعَ مُخَطَّطًا لشكلٍ منَ الأشكالِ..

وَبَعْـدَ أنْ يَنْتَهِـيَ مـن ذلكَ يُغْلِقُ الكتابَ ثم يحملُـهُ ويُخفـيهِ في صـندوقٍ خـشبيٍّ قديمٍ، كانَتْ جَدَّتُهُ تُخَبِّئُ فِيهِ حَاجَاتِهَا الهامَّةِ..

تلكَ هِي خَطَواتُ الباحِثِ عَنْ أَمْرٍ لَا يَدْرِي كُنْهَهُ..

يَـسْعَى إلَى ضَـوْءٍ فِي ظلمـةٍ تَشْتَدُّ إبهامًا يومًا بعدَ يومٍ..

يغـرقُ في بحـرٍ من الأفكارِ المَلْسَاءِ..منها ما هو مقعَّرٌ ومنْهَا ما هُوَ مُحَدَّبٌ..

يغـرفُ مِـنْ بَحْـرٍ مجْهُولٍ، بَحْرِ هَذا الْـمَدَى الـسَّاحِرِ.. بَحْرٍ مِنْ جَمَالٍ أخضرَ تارَةً.. ومنْ جمالٍ أبيضَ تارَةً أُخْرَى..

فِي كُلِّ فُصُولِ العامِ تُزْهِرُ فِي قَلْبِهِ الـْحَكَايَا..

عيناهُ لا تـملَّانِ الانتظارَ.. ولا يعرف كيفَ يغـضُّ الطـرفَ عَـنْ حقـيقةٍ لا تُرَى بِالْعَيْنِ.. ولا تُسْمَعُ بالأذُنِ.. وَلَا تُدْرَكُ بِغَيْرِ القلبِ..

***

المشهدُ التاسعَ عشرَ



ظـلَّ الفَتَـى "يتـيم" عـلى هـذه الحـالِ زمنًا طَــويلًا.. عيــناهُ تجـولانِ بِــلَا انقطــاعٍ فِي الأُفُــقِ البعـيدِ.. لكـنَّ العُـبُورَ مستحيلٌ، فَـمَـا وراءَ هَذا المَـدِّ الأَخْـضَرِ مِـنْ أمَـلٍ.. كـيفَ يجـتازُ غابـاتٍ مَـسْكُونَةً بالوحوشِ.. فيستقرَّ البالُ ويهدأَ الخاطِرُ وَيَهْــنأَ الفكــرُ بــصَرْفِ الجَــرْيِ وَرَاءَ كُــلِّ هَــذِهِ الأَحْلَامِ.. أَوْ رُبَّـمَـا "الأَوْهَامِ".

تَـرَكَ الفَتَى ظِلَّهُ عَلَى الشَّجَرَةِ.. وعادَ يجوبُ القريَةَ بحثًا عَمَّنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ..

ومـضتْ أيّـامٌ وأيَّـامٌ وَالْفَتَـى مُنْـصَرِفٌ عَنْ نفسِهِ.. لا يشغلُها بغيرِ الأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ التِي تعيشُ

فِي هـذا المكـانِ، بأنْفَاسِـها الْـعَطِـرَةِ.. وبفـضائها الــمليءِ بالأمَـلِ، وشَمْـسِهَا التـي تـشعلُ قلوبَ الحالمـينَ أكثـرَ مـنَ القمـرِ، فالقمـرُ عِـنْدَهُمْ دليلُ سباتٍ.. والشمسُ دليلُ حَيَاةٍ.. وبقاءٍ.

مِـنْ كثـرةِ ما كانَ الفَتَى يحملُ متاعَ الآخرينَ لمسافاتٍ طـويلةٍ.. اشـتدَّ عُودُه، وبرزتْ عَضلاتُهُ في كـلِّ زَاوِيَـةٍ من زوايَا جِسْمِهِ الرَّشِيقِ.. فأرْخَت هـذه التـضاريسُ المـستجدَّةُ عـلى طُـولِهِ الفَـارِعِ واتِّـسَاعِ صَدْرِهِ المنتفخِ وشموخِ رأسِهِ المتكىءِ على منكبـينِ عريـضينِ بهامَـةٍ يكلِّلُهَـا كـبرياءُ الشبابِ وعـنفوانُ النـبلاءِ.. غلالـة مـن هيبةٍ باتَ يعرفُها الجميعُ..

لكـنَّهُ لم يكـنْ يعـبأ بِنَفْـسِهِ، ولا يطمحُ لكيْ

يَتَسَيَّدَ مكانةً ما، أو يتبوَّأ مقامًا يحلُم به مَنْ فِي مثلِ سِنِّهِ..

ليسَ المنصبُ هو الذي يصنعُ صاحِبَهُ، بَلْ ربما العكسُ هو الصحيحُ.

وَما الظنُّ بغيرِ ذلكَ سِوَى جهلٍ بالحقِّ، وعجزٍ عن اكتناهِ المعرفَةِ التي يغرفُ منْ نَبْعِها الباحثونَ عنِ الحَقِّ في دُجْنَةِ الليلِ الحَالِكِ، أمَّا أولئك المغامرونَ الضائعونَ في غاباتِ التيهِ فلا يدركونَ بِسُهُولَةِ مَا الَّذِي يَلْفَح وُجُوهَهُمْ.. أهِيَ نارُ الموقدِ؟ أمْ لهبُ الصَّيْفِ؟.. أمْ صفعاتُ الحياةِ.. أم فَحِيحُ جَهَنَّم؟!

ولعلَّ الخَطأَ فِي الحكمِ على الأمورِ لا يَتَأَتَّى إِلَّا مِنْ خطأ التَّصَوُّرِ القائمِ نَفْسِهِ، فالوهْمُ لا يَرْقَى

بـصاحبهِ، بَـلْ يقودُهُ إلى احتقارِ الناسِ لَهُ، أو على الأقـلِّ الـسُّخريَة مـنهُ ومـنْ أحلامِـهِ المـسكونَةِ بِالْخَـيَالِ.. والـنفسُ التي تَرْقَى بِمَعَالِيهَا لا تَسْكُنُ قصورَ الوَهْمِ ولا تَرْتَقِي مَنَابِرَ الْجَهْلِ.

وَمَـضَتِ الأيـامُ وبقـيَتِ الأحـلامُ العاجِزَةُ تقـيمُ في نفـسِ الفَتَـى المشغولِ عَنْ نَفْسِهِ، لكنَّهُ في نهاياتِ الليالي، عندمَا يحلُّ السكونُ وينفردُ بنفسِهِ، تقفـزُ الأحـلامُ أمَامَـهُ مِـنْ جَديـدٍ، وتعـودُ رغـبةُ الانطــلاقِ شــديدةً في أعمـــاقِ نفــسِهِ، تــريدُ الانقـضاضَ عـلى الأسْـوَارِ تَقْضُمُها، لِتَتَحَرَّرَ مِن هَذا السِّجْنِ الكبيرِ.

حَتَّى جاءَ ذلكَ اليومُ..

حيـنما اقـتربَ مـنهُ جارُ الطفولةِ وهوَ يجلسُ

فِي مكانِـهِ الـمُفَـضَّلِ.. وتحدَّثا طويلًا عنِ الأحلامِ والمستقبلِ..

وَكَـشَفَ "يتيمٌ" لجارِ الطفولةِ ما فِي قلبهِ منْ أحـلامٍ.. وكانَ هذا الشابُّ اليافِعُ يُشَارِكُهُ في كثيرٍ مـن الأحـيانِ مساعدةَ الآخرينَ.. فوافقهُ الصديقُ وأسرَّ لَهُ بِأَحْلَامٍ تشبِهُ مَا يَـحْلُمُ بِه..

لكـنْ لـيسَ كـلُّ مـا يَتَمَنَّـى الـمـرءُ يُدْرِكُهُ، والتَّمَنِّي يَعْتَرِيهِ فَشَلٌ لا يُصِيبُهُ تَمَنٍّ.. فالتماسُ ضوءٍ في عـتمةِ لـيلٍ لا يقـدّرُ صُـعوبَتَهُ غَـيْرُ مكابـدِ ليلٍ طـويلٍ في صـحراءَ مقفرةٍ، وَلولَا بضعُ نجيمـاتٍ حَيْرَى، في غيبَةِ قَمَرٍ، لاستحالَ الفضاءُ قَبْرًا، رُغْمَ مَـدَاهُ.. فـالأحْلامَ تـأتِي وتـذهبُ.. وغالـبًا مـا

يـضمحلُّ أكثـرُها ويـزولُ مـع مـرور الأيام، لأن الأحـلامَ عـادةً مـا تـولدُ مِـنْ وَهْـمٍ، وتنهارُ على أعتابِ وَاقع..

قالَ "يتيم" لجارِه الشَّابِّ:

"أحلامي أمَامِي واسعةٌ وسعَ السماءِ.. كبيرةٌ مـثلُ البَحْـرِ.. شاسِـعَةٌ مثلُ فضاءٍ.. فكيفَ لواقعٍ مهـما كـانَ أنْ يـَحُـدَّ منْ أحلامِي؟! أن تمنع طائرًا مـن التحلـيق في سـماء لَا حـدودَ لها.. الحياةُ كلُّها مجمـوعة أحـلامٍ، وَهِـيَ عـندما تـتحقَّقُ في بعضِ جَوَانِـبِهَا، نـصرُّ عـلى أنَّـهَـا حلـمٌ، ونظـلُّ نحلـمُ ونحلـمُ ونحلـمُ، حتـى نظـنَّ الواقـعَ جـزءًا مـن الأحلام"..

وتأملَ قليلًا ثم تابعَ كلامَهُ قائلًا:

"عشتُ دهرًا أرسمُ صورًا من خيالات ملوَّنةٍ لا تنقطعُ.. تفاصيلُ صنعتُها بيديَّ هاتينِ وأصبحتْ خليلةَ ذاتِي.. أجَسِّدُ ما ليسَ من واقعٍ واقعًا.. أعيشُهُ وهمًا.. عادة يومية.. عشتها وحدي.. لم أُخْبِرْ بها أحدًا، لا لأنانيةٍ أو استئثارٍ، بلْ لأنها سِرِّي.. وهي.. بلْ بالأصحِّ حلمي الذي لا أوَدُّ أنْ يشارِكَنِي فيهِ أحدٌ.. مهما كان قريبًا مِنِّي.. ولا أذكرُ أنِّي حاولتُ أنْ أعيشَ مثلَ غَيْرِي.. لَكِنْ...".

وسادتْ فترةُ صمتٍ مضتْ كَدَهْرٍ..

ثم تنهَّدَ من أعماقِ نفسهِ وانزلقتِ الكلماتُ من فَمِهِ كحبَّاتِ عِنَبٍ بارِدَة:

"مـا أجمـلَ الأحـلامَ عندما تبقى فِي مخيلاتِنا وتعـودُ إلـيها.. مـع أنَّـنا نـتوهم أنّ الأحـلام لـو تحققت أو تحقق بعضٌ منها فإنّ حياتنا سوف تتغير وتتبدل وتتحسن..".

❋ ❋ ❋

المشهدُ العشرونَ



استعادَ جارُ "يتيم" قصةً سمعَها قديمًا وهو صغير، لكنَّه لم يكنْ يتذكر تفاصيلها إلَّا هذه اللحظة، في لحظة قوة ورغبة بالانعتاقِ والحريَّةِ وعدم الاستسلامِ للواقِعِ مهمَا كان الواقع صعبًا وأليمًا.. لم يكن "يتيم" قد سمع هذه القصة من قبل..

تذكر جار "يتيم" قصة أميرة صغيرة مرت كما يقولونَ في هذا القصرِ القديمِ، وكانت سعيدةً في قصرِها الذي تزينُهُ الأشجارُ والأزهارُ، وتملأه الأطيارُ بأعذبِ الألحانِ..

الأمـيرةُ كانـتْ مثل كل أميراتِ الزمانِ ثَرِيَّةً جدًّا، وسريرُها مصنوع من مَرْمَرٍ وياقوتٍ..

كـلُّ ما لديها ثمينٌ.. وكل ما تملكه من أجود ما يمكن أن يكون..

كانـت تعيش في هذا القصرِ برفقةِ مُرَبِّيَتِها.. ويحرسُـها حـراس أشـداءُ أقـوياءُ.. لكنَّها لم تكن راضـيةً عـن حَـيَاتِها رغم كل هذا الرخاء والنعيم والثـرَاءِ.. تـشعرُ أنَّ القــصرَ سـجنٌ.. قــيودٌ.. حواجـزُ.. أشـياء تحجبها عن الناس.. عنْ أقرانِها البناتِ.. والقصر بعيدٌ.. فوقَ ربوةٍ عاليةٍ نائيةٍ.. لا يمكـن الوصـول إلـيه إلّا بـإذنٍ شخصيٍّ من أبيها الحاكم.

قَضَتِ الأميرةُ في هذا القصر معظم حياتها..

بعـيدةً عـن الجميعِ، وحتى عَنْ أمِّها التي لا تراها إلّا في مناسـباتٍ متباعدَةٍ. أبوها الحاكم كان يخافُ على ابنتهِ من الشعبِ.. بسبب ظلمِهِ وبطشِه.

هُوَ يعلمُ أنَّهُمْ يكرهُونَهُ، لذلكَ فَهُوَ يخشَى أنْ يَنْـتَقِمُوا مـنهُ بقـتلِ ابنـتهِ، كـما يخـشَى أن تنكشفَ صـورتُهُ الحقيقـيةُ أمَامَهـا، فهي تظنُّهُ حاكمًا عادلاً نـزيهًا.. يحـبُّ شـعبَهُ، وشعبُهُ يحبُّه.. وهي تظنُّ أنَّهُ طَـيِّبُ القلـبِ، لم تظـنَّ يـومًا أن وجه أبيها الهادئ الوقـور لـيس سـوى قـناعٍ رقيقٍ لوجهٍ آخرَ يعرفه الناسُ كلُّهم.. ويخفى عليهَا وَحْدَها.

وكـان أبُوها لا يريد أن تعرفَ ابنتهُ أسْرَارَهُ، أن تَـرَى مـا يفعلُــهُ بالـشعبِ مـن ظُلْمٍ وجورٍ.. أبعـدَها عن مقرِّ حكمِهِ وأسكنَهَا في جناحٍ معزولٍ مـن أجـنحةِ القـصرِ، ووفَّر لها كلَّ ما تحتاجُه، من

تـسالٍ وألعـابٍ.. وطعـامٍ وشرابٍ، معتقدًا أنه لا ينقصُها شيء ولا تحتاج إلى أحَدٍ..

وكـان الحـاكمُ الظـالمُ مـرهوبًا عـندَ عامَّـةِ الشعبِ، لا يجرؤ شخصٌ على مخالفة أوامره الظالمة وأحكامـه الجائـرة.. يأمرُ فيطاعُ.. يظلمُ فيُهابُ.. ومـن يعـصهِ يُكـوَ بالحديدِ والنارِ.. وكان الشعب يخافُ مِنْهُ ويخشَى ظُلْمَهُ..

قسم من الشعب:

ينـتفعونَ مِـنْهُ.. يعيـشونَ عـلى فتاتِهِ وظلمِهِ للـناسِ، لا يفكـرونَ إلَّا بـما يجـنونَ من مكاسِب، يمدحونَهُ ويعظمونهُ..

هم أكثر الشعبِ بغضًا له وكراهية، خزائنهم ملأى بعطاياه.. وأيديهم ملطخة بالدم.

وقسم ثانٍ:

يأتمرونَ بأمْرِهِ.. يعملونَ في الجيشِ والسلطةِ والإدارةِ.. ينفذُ جَرائمَهُ بِوَاسِطَتِهِمْ، لا يستطيعونَ الـرَّفْضَ، يخافونَ على أنفسِهم وأُسَرِهِمْ منْ بطشِهِ وظُلْمِهِ..

يحاولــونَ أحــيانًا تخفــيفَ الأحكــامِ عــنِ الـناس.. وإذا اكتشفَ الحاكم واحدًا منهم سجنَهُ وعذَّبَهُ دونَ رَحْمَة..

وقسم ثالث:

محايـدونَ تمامًـا.. يعيشونَ بعزلة.. يرفضونَ بـصمتٍ وجودَ الحاكمِ وأفعالِهِ، يفضلونَ الأعمالَ البـسيطةَ البعـيدةَ عـن سلطانِهِ.. يعملونَ بِالحرَف والتِّجَارَة..

يغـضُّونَ الطـرف عما يجري حولهم، يدعون رَبَّهم لِيُخَلِّصَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيه..

لكـنهمْ لا يفعلـونَ أيَّ شيءٍ سـوى الـدعاءِ لِيَـزيحُوا عَـنْ كـاهلهمْ هـذا الظلمَ.. حتى إنهم لا يـتكلمون فـيما بيـنهمْ بأدْنَـى أمـرٍ يـتعلق بالحاكمِ وحاشِيَتِه.

أما القسم الرابع والأخير:

فقد كانَ متمردًا بقوَّة.. رافضًا بِعُنْفٍ.. لكلِّ مـا يقـومَ بِـهِ الحـاكمُ منْ أفعالٍ منكرةٍ.. شرّيرَةِ.. بعـضهمْ دخـلَ الـسجنَ، وبعـضهم عُـذِّبَ حَتَّى مَاتَ.. ومنهم من هاجر إلى بلاد بعيدة.

ومــنهم مــن لجــأ إلى الــوديانِ والــسهولِ والجبالِ؛ ثم شكلوا مجموعات سرِّيَّةٍ تقاوِمُ الحاكمَ

وشرورَهُ، تلجأ إلى مهاجَمَةِ جنودِهِ وقوافلِهِ، تستولي على ما في هذه القوافلِ من سلاح ومعدّات وتموين غذائي متنوع.

وهذا القسمُ الأخيرُ كان أشدَّ الأقسامِ إزعاجًا للحاكِم، يثير غضبَهُ وحنقَهُ، فيصدرَ أوامِرَهُ الصارمةَ باستخدامِ كلِّ أسَاليبِ البطشِ والقوَّةِ للقضاءِ عليهمْ.. ومع ذلك كانت أعدادهم تزدادُ ولا تنقصُ.. وإمكاناتهم تقوَى ولا تَضْعُف..

* * *

المشهدُ الواحدُ والعشرونَ



الأمـيرة الصغيرةُ الجميلةُ لم تكن تعرفُ عنْ ذلـكَ شـيئًا، حياتها تَـمْضِي بشكلٍ هادِىءٍ رتيبٍ، تقـرأ الكـتبَ الكثـيرةَ المتـنوِّعَة، تمـارسُ هـواياتِها المُسَلِّيَة..

ترسم لوحاتٍ طبيعيةً جميلةً.. تلعبَ بألعابها الفريدة التي صنعها لها عمال أبيها..

تـشدو مـع البلابلِ والحسَاسِين.. تعيشُ مع الطبـيعةِ الجميلةِ في حديقةِ جَنَاحِها؛ تزرع الورودَ والـرياحينَ.. تـسقي الأشـجارَ وتقطـفُ الثمارَ.. تُطْعِـمَ الـدَّجَاجَ والصِّيـصان.. تلعـبُ.. تلهُـو..

تفرَح.. الحياة بالنسبة لها عالم آخر، غيرُ ذلك العالم الذي يعيش فيه الشعب..

عـالمٌ مـستقلٌّ.. لا جـراحَ فـيهِ ولا آلامَ.. لا جُوعَ فِيهِ ولا مَرضَ.

أمـا مـربِّيَتُها فقـد كانت تعرفُ كلَّ شيءٍ... تـتألَّمُ لمـا يحـدثُ للـشعبِ، لكـنها تتجـنَّبُ قـسوةَ الحـاكمِ وظلمِـهِ، تعلـمُ أنـه ميِّتُ القلب، يعاملُ الـناسَ دون رحمـةٍ... حتـى إنه يظلمُ زوجتَهُ وهو الـذي لا يـسمحُ لها بالجلوسِ مع ابنتِها إلَّا نادراً، وكـان يحتقرُ الناسَ ويتلذَّذُ بتعذيبهم، ويظنُّ أنه لو خفَّفَ من قسوتِهِ عليهم لانتهى ملكُهُ واضمحلَّ.

المـربيةُ الحكـيمةُ تعلـمُ أنَّ الحاكم قَرَّب إليه المجـرمينَ واللـصوصَ، وأعطاهم مكانةً عاليةً في

المجـتمع، فـبدلًا مـن أن يرمِيَهُمْ في السجونِ التي صـنعتْ أصْـلًا لأمـثالِهِمْ، سَـلَّمَهُمْ أكـبَرَ المراكزِ، وَجَعَلَهُـمْ في مناصبَ ليسوا أهلًا لَهَا، فعاشَ أفرادُ الشعبِ في دوَّامَةٍ لا يستطيعونَ الخلاصَ مِنْهَا..

الـمُـرَبِّيَةُ تعـرفُ هـذا وأكثـر، لكـنها تحـبُّ الأمـيرةَ الـصغيرةَ، فقـد ولـدتْ عـلى يَدَيْهَا.. ولا تـستطِيعُ الـتخلِّي عنها، لم توافِقْ يومًا على ما يفعلُهُ أبوها الحاكم لكنَّها ضَعِيفَة..

لا تجـرُؤُ حَتَّـى عـلى النظـرِ في عينـيهِ كما أنَّها سـعيدة بـرفقة الأمـيرةِ الـصغيرة، وهي تخشى أن تكتـشفَ الأميرة الطيبةُ في أحدِ الأيام ظلمَ أبيها.. فهـي رقـيقةُ الـشعورِ بـريئةُ الـنفسِ تـرفضُ ظلمَ الآخرينَ، حتى الحيواناتِ الصغيرةَ تخافُ عَليْهَا..

فلـو علمـتْ أنَّ أباهـا يقـوم بكـل ذلـك الـسوءِ لأُصِيبَتْ بِحَسْرَةٍ شَدِيدَة.. وربَّما سقطتْ من هَوْلِ الصَّدْمَةِ.

وبالـرغمِ من كلِّ مباهجِ الحياةِ التي تحيطُ بها لم تكـن الأمـيرةُ الصغيرةُ سعيدةً بحياتِها، فكلُّ ما يحـيطُ بهـا مـن فَخَامَـةٍ وثراءٍ لا يَعْنِي لَـهَا الكثيرَ، فهـي تـشعر أنَّهَـا لا تعيشُ عيشةً طبيعيَّةً، تريد أنْ تجتمعَ معَ أسْرَتِها الصغيرةِ فِي مكانٍ واحدٍ..

وكانـتْ كلَّـما سأَلتْ أبَاها عندما يزورُها معَ أمِّهـا، عن ندرة زياراتهما إليها، وعن سببِ عُزْلَتِهَا وَوَحْـدَتِها وَلِـمَـاذَا لا تخرُجُ وَتَتَنَزَّهُ في مملكةِ أبيها، وتـرجوهُ أن يأخَـذَهَا مَعَـهُ ويخرجَها منْ عُزْلَتِها.. تـسمعُ جـوابًا لطيفًا منه، يختلف تمامًا عن أسلوبه مع الآخرينَ..

كان يقول لها:

"هـذا المكـانُ فـيه كـلُّ مـا تـرغبينَ فـيه، أنا أخـشى علـيكِ.. فقد تتعرضين للأخطار.. كما أن الهـواء في الخارج ليس نظيفًا مثل هواء حديقتكِ.. والـشوارِعَ مليـئةٌ بـالعُمَّالِ والجـنودِ والمـصانِعِ والضجيجِ.. فلماذا تزعجين نفسك بكلِّ هذا؟".

الأمـيرةُ الصغيرةُ قلبُها طيِّبٌ.. تصدِّقُ أبَاها وتقتـنعُ بـسرْعَةٍ، لكـن عندما يغادرُ أبوها المكانَ، تعـود هـي إلى وَحْـدَتِها، ويـصبح القصرُ الضخمُ الـرائعُ سِـجْنًا رغـمَ مـا فـيه مـن وسـائل التسليةِ والترفيهِ..

وكانتْ تجلسُ في كلِّ ليلةٍ تحتَ ضَوْءِ القمرِ.. تتأمَّلَ السكونَ.. تفكِّرُ بِحَيَاتِها..

"هـــل ســـأظَلُّ في هـــذهِ الـــوَحْدَةِ طـــوالَ حَيَاتِي؟".

كانت تحلُمُ بفارسٍ يأتِي من بعيدٍ يَحْمِلُهَا على حـصانِهِ الأبيضِ، يَخْطِفَها منْ هذا القصرِ، لتعيشَ بـينَ الـناسِ؛ حـياةً طبيعـيةً، ولـو في كوخٍ، تعيش ببـساطةٍ.. نَعَـمْ بِبَسَاطَةٍ.. ولو أكلتْ خبزًا جافًّا.. وقرصَها البردُ والجوعُ..

وكانتْ تقولَ لِـمُرَبِّيتِهَا هذا الكلامَ فتقولُ فِي نفسها:

"مـسكينة أنـتِ أيـتها الأميرةُ الصغيرةُ، كم أنــتِ طَيِّـبةُ القلـبِ، مـا أدراكِ بقرصـاتِ الجـوعِ والــبردِ.. ومــا ذقــت يــومًا طعــم الألمِ والتــشرُّدِ والظلمِ"..

أما الأميرة فكانت تردد:

"كـرهتُ القـصرَ.. كـرهتُ الحـياةَ.. آه لـو تـتحقَّقُ أمنيتِـي وأعـيشُ في كوخٍ بسيطٍ.. في أسْرَةِ فـلاحٍ فقيرٍ.. بدلًا من كلِّ هذا الثراءِ، وهذه الحياةِ الفاخِـرَةِ المريرةِ.. أشعر أنَّنِي في سجنٍ لا خلاصَ منه".

❋ ❋ ❋

المشهدُ الثاني والعشرون



وبعـدَ أنْ كـبرتِ الأمـيرةُ الـصغيرةُ قلـيلًا، صَارَتْ تبحثُ في أنحاءِ القصرِ عن مَخْرَجٍ..

وفي أحـدِ الأيـامِ اكْتَشَفَتْ نفقًا سِرِّيًّا يقودُها إلى غابةٍ قريبةٍ منَ القصرِ.. فصارتْ ترجُو مربيتَها أنْ تـسمحَ لهـا بالخـروجِ مَـعَ فَرَسِهَا الرَّمادِيَّةِ التي تركبُها فِي حديقتها الصغيرَةِ فلا تتمكنُ من الجرْيِ السريعِ لضيقِ مساحةِ الحديقةِ.. هي تريدُ أن تقفزَ معَ الفرسِ في كل الأمكنةِ الجَمِيلَة..

المـربِّيَةُ كانـتْ خائفـةً فِـيمَا لَـوْ عَرَفَ الحاكِمُ بذلكَ..

لكـنَّ الأمـيرةَ الجمـيلةَ أصَرَّتْ على الْخُروجِ مهـمَا كـانَ الأمْـرُ، وعـندما تأكَّـدَتْ مِـنِ انشغَالِ الحـرسِ امْـتَطَتْ فَرَسَـها الـرَّمَادِيَّةَ، التي انطلقت برشـاقةٍ، وطـارتْ بالأمـيرة نحوَ الغابةِ وصارَتْ تـسبحُ مـن مكانٍ إلى مكانٍ، تقفزُ عاليًا فِي الهواءِ.. ثـم تحـط أقـدامَها برفق فوق التراب كأنَّها تلامسُ الأرضَ بِحَوَافِـرِهَا، وكانـتِ الأمـيرةُ تشعرُ لأَوّلِ مَـرَّةٍ بالحـريَّةِ وبِالخفـةِ التامَّةِ والرِّقَةِ البالِغَةِ.. لأنَّ الفـرسَ كانـتْ تعلـم أنَّ عَـلى ظَهْـرِها أميرةً طَيبةَ القَلْبِ.

وصارَتِ الأميرةُ تخرجُ مِنْ حينٍ إِلى آخَرَ مِنَ الـنَّفَقِ السِّرِّيِّ.. وتعودُ بعد فترةٍ قصيرةٍ ولا تتأخرُ حتى لا يكتشفَ أحَدٌ غِيَابَهَا، فلا يعودُ باستطاعَتِها الخروجُ مَرَّةً ثانيةً.

وتكـرّرَتِ رَحلَاتُها واسْتَكْشَفَتْ كلَّ شِعَابِ الوديانِ والجبالِ التي تحيطُ بالقصرِ، ولم تكنْ تبتعدُ كثيرًا حتى تتمكّن من العودة بسرعة.. وفي رحلاتِها المتكررَةِ صادقتِ كُلَّ الأزهارِ والأشجارِ والأطيارِ، وألِفَتِ الأمْكِنَةَ كما يألَفُ الإنسانُ الإنسانَ. وشعرت أنها تشبه كلَّ شيءٍ في الطبيعةِ، بل إنها جزءٌ منَ الطبيعةِ.. ماءٌ في النهرِ.. وردةٌ في الوادِي.. أوْ طَيْرٌ فِي السَّماءِ..

مِنْ فَوْقِ فَرَسِهَا الرَّمَادِيةِ كانتْ تطيرُ مثلَ النسيمِ.. تحملُ طُفُولَتَهَا.. شبَابَها.. روحَها التوَّاقَةَ لِلْحُرِّيَّةِ..

وفي مرة تركتْ لجامَ فَرَسِها فقادَتِ الفرسُ نَفْسَها.. انشغلتْ عَنْ تَذَكُّرِ أنَّ عَلَيْهَا العودةَ إلى القصرِ خلالَ وقتٍ قصيرٍ.. لم تشغلْ نفسَها

بـضرورةِ عـدمِ الـذهابِ بعيدًا.. نَسِيَتْ أنها أميرةُ هذه الوديانِ والتلالِ والجبالِ..

صارَتْ فراشةً تهيمُ في الحقول.

وفجـأةً.. انزلقَت قدمُ الفرسِ وهي تركضُ على حافة منحدَرٍ شديدِ الوُعُورَةِ.. انقلبتِ الفرسُ عـلى رأسِـها.. طـارتِ الأمـيرةُ هـذِهِ المـرَّةَ طيرانًا حقيقـيًّا.. طارت أكثر من عشرة أمتار.. ثم حطت فوق الرمال والصخور..

الفـرسُ المـسكينةُ انقلـبتْ فِي اتِّجَـاهٍ آخَـرَ.. الْـمُـنْحَدَرُ جَـذَبَهَا بقوةٍ لثقلِ وَزْنِهَا.. انقلبتْ حينًا على رأسِها.. وحينًا آخر على جَنْبِها.. ثم ظَهْرِهَا.. وظلــتْ تَــنْقَلِبُ.. وتــنقلبُ.. وَصــدَى صَــوْتِها الـصاخِبِ يَتَرَدَّدَ في أنحاءِ المكانِ.. حتى استقرَّت في قعرِ الوادي.. وتبدد صوتُها تمامًا.

الأمـيرةُ الجـريحةُ ذاقـتْ ألمَ الجراحِ الفظيعَ.. ذاقَتْهُ للمرَّة الأولى، صارت تجهشُ بالبكاءِ..

مَـشْهَدُ الفـرسِ وَهِـيَ تَتَلَوَّى مِنَ الألمِ غَلَبَ آلامَ الجـراحِ الكثيرةِ التي أصابَتْهَا، وراحت تَبْكي حُـزنًا عـلى الفـرسِ وهَلعًـا مِـما أصابَها، وصارتِ الدموعُ تنهمرُ من عينيها لأوَّلِ مَرَّة..

ومـنْ هـولِ الـصَّدْمَةِ لم تـشعرْ بالدماءِ التي كانـت تُغَطِّـي قَدَمَـيْهَا.. لَمْ تظـنَّ أنَّ حادثًا مؤسفًا مـثل هـذا سيصيبها يومًا مَا.. حاولتِ الوقوفَ.. الألـــمُ الفظـيع سرى في عظامِهـا مـثلُ الـبرقِ.. أدركـتْ أنها لا تقوى على التحرُّكِ من مكانِها، بَدَا شَـبَحُ المـوتِ يخـيِّم فَـوْقَ رَأسِـها.. تشعر أَنَّهُ يَدْنُو مِـنْهَا.. سيـصيبُها كـما أصـابَ الفرسَ المسكينةَ.. فَمَنْ ذا الذِي يستطيعُ اكتشافَ مَكانِهَا..

"سـأنْزِفُ حَتَّـى الموتِ".. لم تستطع مقاومة هـذا التَّـصَوُّرِ.. صـارَ الألمُ أقْـوَى مِنْهَا.. ضَعُفَتْ أمَامَـهُ.. اسْتَـسْلَمَتْ.. ازدادَ بِـسُرعَةٍ حتـى غـشيَ عَلَيْهَا، وفقدتْ وَعْيَها تَـمـامًا..

وفِي هَـذا الـوقتِ كانـت المـربِّيَةُ تشعرُ بقلقٍ شديدٍ..

"هذه أولُ مرَّةٍ تتأخَّرُ الأميرَةُ عَنِ العَوْدَةِ!".

انتظرتْ بعضَ الوقتِ..

"الـشمسُ تكـادَ تغـيبُ.. والأميرةُ لم ترجعْ بَعْدُ".

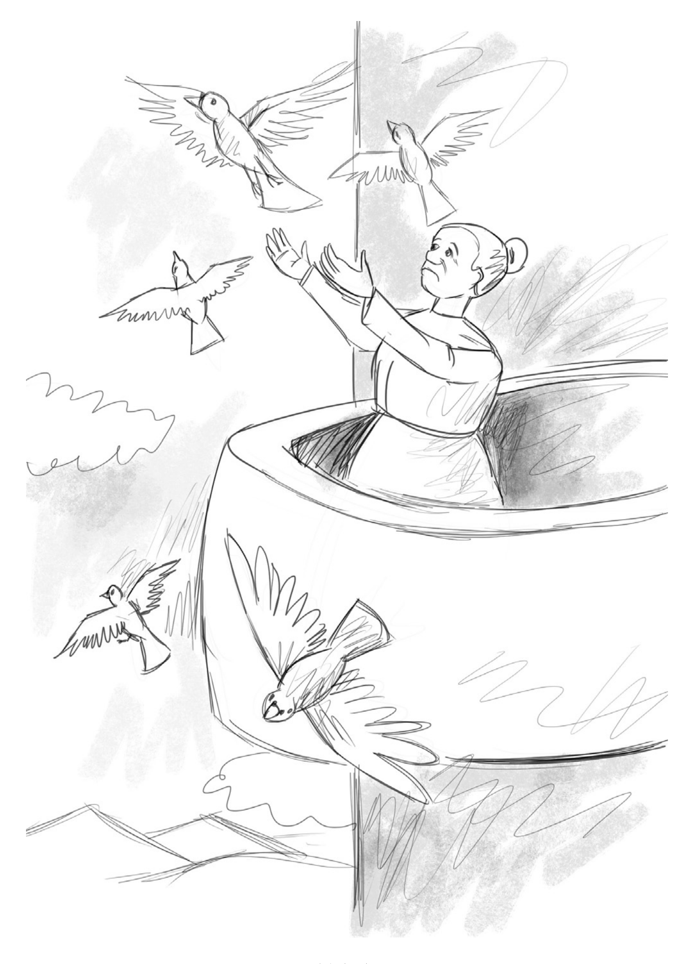
الحـرَّاسُ اكتـشفوا غيابَ الفرَسِ الرَّمَادِيَّةِ.. بـدأ الذعـر يدبُّ بَيْنَهُمْ، والمربيَةُ أدركت أنَّ سوءًا قَدْ وَقَع..

"لا بُدَّ مِنْ إِخْبَارِ الحَاكِمِ في الـحَـــالِ".

لم تَخْشَ انـتقامَهُ مِـنْهَا.. لم تخـشَ أن يَـتَّهِمَهَا بالتقـصيرِ والإِهْمَـالِ.. هِـيَ أكثـرُ الـناسِ معـرفَةً ببطـشِهِ وجَـبَرُوتِهِ، فكـيفَ فِي أمـر يخـص ابْنَـتَهُ الوحـيدَةَ. ومـع ذلـك يجب التحركُ بسرعة.. رُبَّمَا تكونُ الأميرةُ في خطرٍ وتحتاجُ لِـمُسَاعَدَةٍ.

* * *

المشهدُ الثالثُ والعشرونَ



أطلقتِ الـمُرَبِّيَةُ سِرْبًا مِنَ الحمامِ الأَحْمَرِ.. لا يُطْلَـقُ إلَّا عـندَ الْخَطَـرِ، مـدرَّبٌ كَـيْ ينطلقَ بقوةٍ وسرعـةٍ بالغـةٍ نحو مَقَرِّ الحاكِمِ مُبَاشَرَةً، فيعلمُ أنَّ سـوءًا قـد وقـعَ لابنـتِهِ، وهَـذِهِ الطـريقةُ التـي اسـتَخْدَمَتْهَا المربيةُ لأوَّلِ مَرَّةٍ، أمَرَ الحاكِمُ باللجوءِ إلَـيْهَا فِي الحالـةِ الطارِئَـةِ، لأنها أفضلُ مِنْ أقْوَى فـارسٍ يقـودُ أسْرَعَ الخـيولِ.. فالأمـرُ لا يحـتملُ تضييعَ لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

وخـلالَ دقائـقَ قلـيلةٍ، حضرَ الحاكِمُ برفقةِ مجمـوعةٍ كبـيرةٍ من الجنودِ، وعندمَا أَخْبَرَتْهُ المربيةُ باختفاءِ ابنتِهِ، أمَرَ جنودَهُ بِأنْ يَقْتَفُوا أثَرَهَا ويبحثوا

فِي كُلِّ مَكانٍ.. فانطلقَ الجنودُ وانتشرُوا بينَ الجبالِ والــوديان وَلَمْ يَــتْرُكُوا مكانًــا إلّا وبحــثوا فــيهِ.. وتتــبعوا كــلّ أثــرٍ مُـمْـكِنٍ.. حتى إنَّهُمْ غَاصُوا فِي أعماقِ النهرِ الذي يمرُّ فِي الوادي السحيقِ.. لكنهمْ مَا وَجَدُوا شَيْئًا..

الحاكمُ اسْتَدْعَى مَزيدًا مِنَ الجنودِ.. واستمرَّ الــبحثُ أيامًــا ولــياليَ طويلةً.. ولم يسمحْ للجنودِ بالــرَّاحَةِ والــنومِ.. كثــيرونَ مِــنْهُمْ نامُــوا فــوقَ خُــيُولِهِمْ.. وَلَمْ يَجْرُؤوا على العودةِ دونَ العثورِ عَلَى الأمِيرة..

أمــا الحــاكمُ فقــد خَــرَجَ بِنفــسِهِ يَــبْحَثُ عَنِ ابْنَــتِهِ.. يحمــلُ سَــوْطَهُ يــضربُ الفرســانَ والجنودَ لِيَبْحَثُوا بجدٍّ دونَ تكاسُلٍ.. حَضَرَتْ فرقةٌ صَغِيرَةٌ ماهِــرَةٌ بالتسلُّقِ.. قالَ قائدُها للحاكِمِ إِنَّهُمْ وَجَدُوا

فَرَسَ الأميرةِ هالكةً في قَعْرِ الوادِي السَّحِيقِ وعليه أنْ يرسـلَ الجـنودَ إلى ذلك الوادِي ليبحثوا في كلِّ ناحيةٍ فيه..

تَجَمَّـعَ الجـنودُ كلُّهـم هـناكَ.. ومَـنْ خَـشِيَ النـزولَ في الـوادِي أمـرَ الـسلطان بقتلِهِ.. لم يكن بعـض الجـنود يعـرفونَ تـسلُّقَ الجبالِ والنزولَ في الـمُـنْحَدَرَاتِ، وأكثـرهُم لا يملكـونَ المعـدَّاتِ اللازمَة.. فَسَقطَ منهم كثيرونَ في الوادي وماتوا.. والسلطان لا يُبَالِـي بصراخِهِمْ وآلامِهِم..

أَحَـدُ القـادة المقـربينَ مـن الحـاكِم يَئِسَ من العـثورِ عـلى الأمـيرةِ، تأكَّـدَ أَنْ لَا أَثَـرَ لَـهَـا فِي الـوادي.. خـشيَ أن يمـوتَ الجـنودُ كلُّهُـمْ وهـم يـسقطونَ في قعـرِ الوادِي بالعشرَاتِ.. اقتربَ من

الحـاكم منحنـيَ الـرأسِ.. اسْـتَعْطَفَهُ ليـسمح لـه بالكلام.. أشار إليهِ الحاكم أي تكلَّم..

قال القائد:

"مـولاي.. الجـنود يهلكـون.. مـضى عـلى الـبحثِ أيـامٌ ولم نجـدْ شـيئًا.. لـو كانـت مولاتِي الأميرة سقطت في قعر هذا الوادي فمن المستحيل أنْ تكونَ على قيدِ الحياةِ.. والذئاب سوف..".

لم يكـد القائـد يتفوّه بهذه الكلمات وقبل أن يكمـل كلامـه.. أشار الحاكم إلى أحد الجنود آمرًا بقطع رأس القائد.. فنفَّذ الجنديُّ الأمرَ على الفورِ قبلَ أن يتمكنَ القائدُ من الدفاع عن نفسه.

وعـندما رَأى الجـنودُ مـا حَـدَثَ لِقَائِدِهِمْ.. أَصَـابَهُمُ الـرعبُ الـشديدُ، وَسَرَى الخوفُ بينَهُمْ،

صَـارُوا يركـضونَ كالمجانين في كلِّ جانب، عسى أنْ يجـدوا شـيئًا يهدِّئ الحاكمَ الظالمَ.. لكن واحدًا منهم لم يكن يتمنى اكتشاف الأميرة ميتة خوفًا من بطشِ الحاكم..

في هـذا الوقتِ كانتِ الأميرَةُ الجريحَةُ تَتَعَافَى وتـستعيدُ وَعْـيَهَا فِي مكـانٍ آخَـرَ لا يعـرفُهُ جـنودُ الحـاكِمِ، وَفِي كَهْـفٍ بعـيدٍ فِي بطـنِ جَـبَلٍ شـديدِ الانحدارِ، كانَتِ الأميرَةُ مُـمَدَّدَةً على فراشٍ بسيطٍ تحـاوِلُ فـتحَ عَيْنَـيْهَا دونَ أن تَعْلَـمَ أيـنَ هِـي وما حَدَثَ مَعَهَا بعد تلكَ الحَادِثَةِ الرَّهِيبَةِ؟!

اكتـشفَتْ أنَّ مجمـوعةً مـن الـرِّجالِ عَثَـرُوا عَلَيْهَا مَلْقِيَّةً فِي الوادِي مُضَرَّجَةً بِدِمَائِها..

كانَ بَيْنَهُمْ رجلٌ يعرفُ بِالطِّبِّ، حَمَلُوهَا فَوْقَ

خَـشَبَةٍ.. ونقلُوها بِعِنَايَةٍ إلى هَذَا الكَهْفِ، طَمَسُوا آثـارَهُمْ، أَخْفَوْا دِمَاءَ الفتاةِ وغطَّوْهَا بِالتراب حتى لا يكتـشفهَا أحَـدٌ ويعرفَ جنودُ السلطانِ مكانَهُمْ فيبطشُوا بِهِمْ.

الطبـيبُ عـالجَ جـراحَ الأميرةِ وكسورَها.. فـتحت الأمـيرةُ عَيْنَـيْهَا.. ولم تَـسْتَطِعِ الكـلامَ.. علمتْ أنَّ هؤلاءِ الرجالَ أنقذُوها منَ الموتِ..

"لا شـكَّ أنهـمْ قطـاعُ طُـرُقٍ.. هاربونَ منَ القانـونِ.. مجـرمونَ.. لـصوصٌ.. بالتأكـيدِ هُـمْ لصُوص.. فلماذا هم يسكنون في الجبالِ؟!".

حَمِدَ الطبيبُ رَبَّهُ على سلامَةِ الفتَاةِ..

جـاءَ مجمـوعةٌ مـنَ الـرجالِ والنّساءِ يهنئونَ الفـتاةَ عـلى سـلَامتِهَا.. طلـبَ مـنها أحَـدُهُمْ أنْ

تخبرَهم عَنْ مكانِ أسْرَتِها.. فهم بالتأكيد قلقونَ على ابنتهم..

لم تتكلَّمِ الأميرةُ بكلمةٍ واحدةٍ.. الطبيبُ طمأنها أنها أصبحت بخير ولا يوجد خطر على حياتها.. لكنها لا تستطيعُ الحراكَ الآنَ فَفِي ذلك خطرٌ عَلَيْهَا.. وكانَ معَ الرجالِ بضعُ نِسَاءٍ قمن بِخِدْمَةِ الأميرَةِ.. غَسَّلْنَ جَسَدَهَا وَثِيَابَهَا وَصِرْنَ يُطْعِمْنَهَا بِلُطْفٍ.

الطبيبُ يأتِي إِلَيْهَا منْ حينٍ إِلى آخَرَ يَطْمَئِنُّ عَلَيْهَا، يُسْمِعُها كَلامًا جميلًا؛ يقولُ لها إنَّها في عمرِ ابنته، ثم يتركها باحترامٍ مثلما دخل دون أن يعرف مَنْ هِيَ، لكنهم كانوا متأكّدينَ أنَّها ابنةُ أسرَةٍ كريمةٍ ثرِيَّةٍ بسببِ الثيابِ التي كانت تَرْتَدِيهَا.

* * *

المشهدُ الرابعُ والعشرونَ



سَـمِعَتْهُمْ الأميرةُ يتحدثونَ عَنْ ظلمِ الحاكِمِ لِلـشَّعْبِ.. عَـنْ جـوْعِ الـناسِ.. عَـنِ القهرِ الذي يعيـشونَهُ.. عـنِ الـسجونِ.. عَـنِ القـتلِ.. عَـنِ التعذيبِ.

سـمعتْ كلـماتٍ مثل: جورُ الحاكِمِ.. جَشَعُ الحاكِمِ.. المساجينُ.. القَتْلَى.. السُّجُون..

سـمعتْ أشـياءَ وأشـياءَ لم تكـن تتـصورُ وجـودها.. لم تـتوقعها يـومًا.. اكتـشفت الظلـم الواقـع عـلى الـناس.. وأن أباهـا يـسرقُ مَـالَـهُمْ وقوتَّهُمْ وَحَيَاتَهُمْ..

حَاوَلَتْ أنْ لَا تُصَدِّقَ..

"كاذبونَ.. كاذبونَ"..

صارَتْ تَصْرُخُ في أعْمَاقِها..

"لكـنهمْ طَيِّـبون.. لطفاءَ.. يعاملونَنِي بكلِّ احترامٍ".

"تُـرَى مَـاذا سـيفعلونَ لو اكتشفوا أنَّنِي ابنةُ السلطانِ؟".

فجأةً جاءَ رجلٌ على عجلٍ:

"السلطانُ يبحثُ عن ابنتهِ المفقودة".

سمعتِ الأميرةُ الخبرَ.. قالت:

"سيقتلونَني بِكُلِّ تَأْكِيدٍ".

لكـن معاملـتهم لهـا لم تتغير.. جاء الطبيب، ابتسم لها كما ابتسم لها أول مرة..

"الحمـدُ لله.. أنـتِ بأفـضل حـالٍ الـيومَ يـا ابنتي".

"مـا رَأْيُـكِ أنْ تَأْخُذي الآنَ فَرَسًا مِنْ أَجْوَدِ خُيُولِـنَا وَتَتَوَجَّهِـي إلَى أهْلِـكِ.. لا بد أنهم قلقونَ عليكِ"..

"لكـنْ سِـيرِي بهـدوءٍ حتـى لا تَتَضَرَّرِي.. فجراحُكِ لم تلتئمْ بَعْدُ"..

لم تصدِّقِ الأميرةُ الجميلةُ ما تَسْمَعُ:

"أهذا حلْمٌ أمْ حَقِيقَة؟".

أدرك الطبيبُ ما في عينيها:

"مـا كنَّا لنفعلَ ما تفكرينَ به، لا ذنبَ لَكِ.. نحـنُ لـسنَا بمجـرمينَ كما يقولون عَنَّا.. اذهبي يا ابنتي.. اذهبي فالناس تموتُ الآنَ مِنْ أَجْلِكِ".

الأمـيرة لم تكـن تـصدِّقُ كـلَّ ما سمعته عَنْ أَبِـيها، تـريد إثـبات العكـسِ لهـم جميعًا، فوالدُها لطـيفٌ جدًّا معها، وهي لم تتوقع أبدًا أنْ يكونَ كَمَا يقولـونَ.. رَكِـبَتِ الأمـيرةُ فَرَسًـا قَـوِيَّةً.. وَدَّعَتِ الـرِّجَالَ.. شَـكَرَتِ النـساءَ لعنايتهنَّ بِها.. سارت الفــرس بهــدوء إلى وجهــة لا يعــرفها هــؤلاءِ الرِّجَالُ..

سـلكت الأمـيرةَ طـرقاتٍ سرِّيَّـةً، وَدَخَلَتْ أنفاقًـا لا يعرفُها جنودُ أَبِيها.. وَصَلَتْ إلَى قَصْرِهَا الْـمَرْمَـرِيِّ.. ودَخَلَـتْ غـرفةَ مُرَبيتِهَا فكاد يُغْمَى عَلَـيْهَا مِـنَ الْـمُفَاجَـأَةِ.. تمالكتْ نَفْسَهَا، حَضَنَتِ

الأمِـيرَةَ، وَصَـارَتْ تَبْكِـي مِـنَ الفَـرَحِ.. قالـتِ الأميرة:

"سَأسْألك سؤالًا واحدًا: هل أبي ظالم بحق الشعب؟".

أحـنتْ رَأْسَـهَا.. لَمْ تكـنْ تتوقعُ هذا السؤال أبدًا:

"مولاتِي".

"أرجوكِ.. أجيبيني"..

"كـلامٌ فـارغٌ.. مـن وضـعَ في رَأْسِـكِ هذا الكلام".

"أجِيبيني".

"لـنذهبْ أوَّلًا إلى مقـر أبِـيكِ.. إنَّهُ غَاضِبٌ جِدًّا بِسَبَبِ غِيابِكِ".

جلستِ الأميرةُ على سريرِ المربِّيَةِ وقالتْ بصوتٍ كئيبٍ:

"الآنَ تَأَكَّدْتُ أنَّ ما قالوهُ هُو صحيحٌ وصادقٌ؛ يقتلُ الناسَ، يستولِي على بيوتِهِمْ وأرْضِهِمْ وممتلكاتِهِمْ بالْقُوَّةِ.. ويحرُمُ أولادَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.. إنَّ أبِي مجرِمٌ.. مُجْرِمٌ.."..

الأميرةُ تبكِي بمرَارَة.. والمربية تَضُمُّها إلى صَدْرِها..

خافت الأميرةُ أن تُواجِهَ أَبَاهَا بأفْعَالِهِ.. سَوْفَ ينتقمُ منَ الناسِ أكثرَ.. سَوْفَ يَسْجُنُها وَيَمْنَعُهَا مِنْ لِقَاءِ الشعبِ كما كانَ يفعلُ طوالَ حَيَاتِهَا.. ولكنها هذه المرة ستفعل ما يجب أن تفعله..

قـرَّرتِ الانـضمامَ إلى صـفوفِ المقاوِمينَ مِنَ الشعبِ.. ومقاومةَ الحَاكِم..

قالتْ لِمُرَبِّيَتِهَا: "تعالَيْ مَعِي"..

أَجَابَـتْهَا: "أنـتِ لا تحتاجـينَ اليومَ إلى امْرَأةٍ عجوزٍ كبيرةٍ مِثْلي"..

انطلقــتِ الأمــيرةُ عائــدةً إلى الجــبالِ.. إلى الكَهْفِ الذِي جَاءَتْ مِنْهُ.

جُـنَّ الحـاكمُ عندما علمَ أنَّ ابْنَتَهُ حَيَّةٌ تقاتلُ في صفوفِ أَعْدَائِهِ..

انتـشرَ الخـبرُ مـثلَ الـنَّارِ فِي الْـهَشِيمِ.. "ابنةُ الحاكمِ تقاتِلُ أباها مِن أَجْلِ الشَّعْبِ..".

سَرَتْ فِي أوصـــالِ الــشعبِ روحُ الــثَّوْرَةِ والعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ..

شـعرَ الشعبُ بقوَّةٍ هائِلَةٍ، ثارَ الشَّعبُ كُلُّهُ.. حَتَّى جَيْشُ الحاكِمِ لم يَعُدْ يُنَفِّذُ كل أوامره..

وبـدأ الحـاكمُ يفقـدُ قـوته شـيئًا فشيئًا.. ثم انقلب الجيشُ على قائده.. أمسكُوا الحاكمَ وزجُّوا بـهِ في الـسجنِ.. اجتمع الناسُ يهتفونَ بحياة ابنتِهِ الأمِـيرَةِ.. وطالـبُوها بـأن تكـون حاكمـة مكـان أبيها..

لكـن الأميرةَ رَفَضَتْ ذلكَ.. لَـمْ تفكرْ يومًا أنْ تكونَ حاكمةً، لا تُحِبُّ القصورَ.. لكنها طلبتْ مِـنَ الـشعبِ أمـرًا خاصًّـا.. صارَتْ تَرْجُو الناسَ الـصَّفْحَ عَـنْ أَبِـيهَا.. أنْ يَـسْمَحُوا لَـهُ بِالـبقاءِ فِي القصْرِ حتَّى يَمُوتَ..

تَوَسُّلاتُ الأميرةِ كانتْ أَقْوى مِنْ كُلِّ جَرَائِم أبِيها..

الناسُ طيبونَ.. لم يكنِ الانتقامُ هَدَفَهُمْ..

تَرَكُوهُ فِي قَصْرِهِ وَلَمْ يَعُدْ يسمعُ الناسُ عَنْهُ أيَّ خبرٍ منذُ ذلكَ الحينِ، ولم تسكن الأميرةُ القصرَ بعد ذلك.. عاشت كما أَرَادت.. مثل الشعبِ.. وبعد موت الحاكم لم يسكن أحدٌ ذلك القصر..

وعاشت الأميرة بعد ذلك عمرًا طويلًا.. نَسِيَ الناسُ مَنْ هِيَ.. لكنَّهم لَمْ يَنْسَوا قَصَّتَهَا.. وتزوجَتْ ابنَ الطبيبِ الذِي عَالَجَهَا فِي الكهفِ.. وكان إنسانًا بسيطًا يعرفُ تمامًا ما معنى الحبِّ والرحمةِ والحُرِّيَّةِ.

* * *

المشهدُ الأخيرُ



عـندما اسـتمع "يتـيم" إِلَى هـذِه القـصَّةِ الغـريبةِ، وكـان يسمعها لأوَّلِ مَرَّةٍ رغم أنهُ يعرفُ كثيرًا من قصص القَصْرِ، التهبتْ مشاعِرُ الحريَّةِ في قلبِهِ مِنْ جَدِيد..

أدْرَكَ أنَّ جـارَهُ يحمـلُ المـشاعرَ الـصَّادِقَة نفسها..

يحبونَ الأرضَ وتاريخَها المرتبطَ بالقَصْرِ..

كـما يحبونَ كَسْرَ هَذِهِ الأسْوَارِ والتخلُّصَ مِنَ الخَطَرِ الَّذي يحيطُ بِهِمْ.. لكنْ لا يُوجَدُ سَبِيلٌ سِوَى القـضاءِ عـلى الوحوشِ التي تحيط بالقريةِ من كلِّ جانب..

قـرر "يتـيم" أن يـبوح لجارِه الصديق بما في قلبه.. فوجد لديه المشاعر نفسها..

ولكـن الـناس اعـتادُوا على المكانِ.. وليس عـندهم رغـبةٌ في الخروج منه أو التحرر من قيوده بسهولة..

"يتـيم" لا يـريد أن يتحرر من المكان بنفسه فقط..

هـو في الحقـيقة لا يـريد الابتعاد عن المكان الذي يحبُّ..

وكيف يترك القرية التي يحبُّها..

هُوَ يريدُ أنْ يفتحَ الأبوابَ أمَامَ قَرْيَتِهِ ويكسرَ أسْوَارَها العاليةَ فلا تَبْقَى معزولةً عنِ العالَمِ..

لا يـريدُ الـمُغامَرَةَ بنفسِهِ ولا بِغَيْرِهِ كما فعلَ

كثـيرٌ مـنَ الـشبابِ، فـما عـادوا بعـدما غامـروا بأرواحهم في مواجهة الوحوش الضارية..

هـنا أدرك "يتـيم" مـع صديقه أنه لا بدَّ منْ عملٍ جَمَاعِيٍّ..

هَـذِهِ الطمـوحاتُ لا تَعْنِـي هُجْـرَانَ القرْيَةِ وَتَرْكَهَا..

بـلْ عكـسَ ذلـكَ تمامًـا.. فهـي تعني حمايةَ القـريةِ مـن كـلِّ عـدوٍّ، ليـتمكَّنَ أهـلُ القريَةِ من العـيشِ بحرِّيَّةٍ تامَّة، والانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ بـسلام، وتمهيد السبيل لكي تستقبل القرية الزوّار من كلِّ مكانٍ كما كان يَحْدُثُ في السابق.

لقـد كانـت قـصة الأمـيرة التـي ارتـادَتِ الـسهولَ والـتلالَ والمـنحدراتِ رغـم صـعوبتها حافزًا له على تحقيق حلمه..

كما كانت كل القصص السابقة المرتبطة بالقصر تشير إلى القوةِ والإصرارِ والرغبةِ بالحياةِ بعنفوان وحرّية..

وكان "يتيم" من خلال مراقبته المستمرة للطبيعةِ من وراء السورِ وهو يجلس في أعلى الشجرة، يدرك أن تلك الوحوش رغم ما تتمتع به من قوة، كما كان يتناقل أهل القرية.. فإنها لم تكن تظهر على مقربة من سورِ القريةِ.. وربما هي أقلُّ وحشيّةً مِمَّا يعتقدُ أهْلُ القَرْيَةِ..

وكانَ صوتُها القوِيُّ معَ بِدَايَةِ الليلِ يضعفُ فِي آخِرِه، وتصبح الأصواتُ بعيدةً جدًّا وكأنها تهابُ شيئًا ما..

وبات مع مراقبتها اليومية يعرف الاتجاهات التي تتحرك فيها..

وكانَ يكتب ذلك في مفكرةٍ صغيرة..

عـرضَ "يتـيم" تلـكَ المفكَّـرَةَ عـلى جَـارِهِ الـصَّدِيق.. فـأدرك أن عدد الوحوش قليل، وهي تتـنقل مـن مكانٍ إلى مكان، وأنه يمكن مواجهتها بخطـط يمكـن وَضْعُها، كما يمكنُ إعدادُ السلاحِ المناسِب للقضاءِ عليها..

لَمْ يَعُدْ "يتيم" يتيمًا بفكرته..

تجمـع أمامَـهُ الكثـير من الأحلامِ الجديدةِ.. وعـادت الفـرحة ترتـسم فـوق ثغرِهِ مِنْ جديدٍ.. لـيس علـيه بعـد اليوم أن يكتفيَ بالأحلامِ.. لأن الأحلامَ وحدها ليستْ كافية..

طلـب إلـيه جارُهُ الصديقُ أن يعرض فكرتَهُ على شباب القرية..

ورغـم أن بعـضهم كان خائفًا من الفكرة.. فـإن الـبعضَ الآخـرَ كانت الفكرةُ تراوِدُهُمْ مِثْلَهُ تَـمَـامًا..

كانُـوا جميعًا متفقـينَ على أهميَّةِ القضاءِ على الأخطـارِ التي تحيطُ بِقَرْيَتِهِمْ، لذا لَـمْ يَكُنْ بدٌّ من اتخاذ قرار حاسم..

اجـتمع الشباب.. وكانت أفكارهم متقاربة ومشاعرهم تزدادُ حَمَاسَةً..

انتشرتْ أخبارُ الاجتماعِ في أنحاءِ القريةِ..

وصل الأمرُ إلى حكماءِ القريةِ وكبارها..

لم يقـبلْ كـبارُ القريةِ ما عَزَمَ عليهِ صغارُها.. فهـم يخشونَ الأخطارَ التي يؤمنون بأنها تحيط بهم

مـن كـل جانب، ويعتقدونَ أنَّ الخروجَ منَ القريةِ يعني الموتَ المحتَّمَ..

رَفَـضَ الآبـاءُ والأمهـاتُ مجـرَّد مناقـشة الموضـوع مـع أبـنائهم، فهـم يرفـضونَ الفكـرَةَ بالمطلـقِ، لا يقـبلونَ المغامَرَةَ بالأرواحِ مهما كانتِ الأسـبابُ، لأن مـا وراء السور هو المجهولُ الذي لا يعرفهُ أحَد..

حـاول "يتـيم" مـرارًا أنْ يطـرح الموضـوعَ للنقاشِ مُرْتَكِزًا على احترامِ أهلِ القريةِ وتقديرِهِمْ لَـهُ.. لكـنَّهُمْ في كـلِّ مـرةٍ كانـوا يتهيَّبونَ مواصلةَ مناقـشَةِ الأمْـر باعتبارِ أنَّ البقاء داخل سورِ القريةِ وعـدمَ الخـروج مـنها لأي سـبب كـان هـي مـن الثوابت التي لا رجعةَ عنها.

قـرر شـباب القرية عدمَ الرضوخ، أيقنوا أن عـلى عاتِقِهِمْ مسؤوليةً عظيمةً وهي تغييرُ الأفكارِ التـي يتمـسكُ بهـا كبار القرية الذين يصرُّون على البقاءِ داخل الأسوارِ وعدم تَجَاوُزِهَا.

تَنَادى الشبابُ منْ كلِّ جانبٍ.. كانت فكرةُ الحريَّةِ حَيَّةً في قلوبِهِمْ..

قـرروا البدء منذ اللحظةِ بالتدرُّبِ والاستعدادِ والـتأهُّبِ؛ لمـواجَهَةِ الوحوشِ واصطيادِها وقتلها وتدمير جحورِها وكهوفها..

وبـدأ الاسـتعدادُ الـشامِل وتحضيرُ الشبابِ الأشِدَّاءِ..

وبـدأ الفنيونَ المهَرة بإعدادِ السلاحِ المناسِب من خناجرَ وسيوفٍ ورماح..

وهكذا انطلقتْ مشاعرُ الحرِّيَّةِ من قلوبهم.. بعـدما سـكنتها فـترة طـويلة.. يريدون كسرَ هذا السورِ الذي يحيطُ بقريتهم..

وكـان "يتيم" وجارُه الصديق.. وعدد كبير من شباب القرية يَجِدُّونَ في الليلِ والنهارِ من أجلِ تحقيقِ حُلْمِهِمْ بِالحريةِ والقضاء على كل الوحوشِ الـشريرةِ التـي تحـيطُ بِهِـمْ، لـتكونَ قـصتُهمْ قصةً جديـدةً تَنـضمُّ إلى القـصصِ الكثـيرَةِ التي رواها الأجْـدَادُ.. قِـصَّة التَّحَرُّرِ من السِّجْنِ الكبيرِ.. مِنَ القــريَةِ المَـسْجُونَةِ، مهـما كانـت الـصعاب والتحدِّيَات.. وبذلكَ يتحققُ حلمهم بِالحرِّيَّةِ..

(النهاية)

فهرس المحتويات

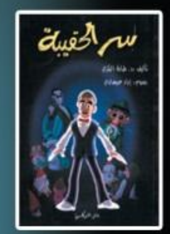
الكاتب والكتاب

بدأ د. طارق البكري الكتابة للطفل في سن مبكر، حتى انتشرت قصصه ومؤلفاته في معظم البلاد العربية، وهي معتمدة حالياً في كثير من المدارس وفي مختلف المراحل. تولى العديد من المهام؛ منها رئاسته للجنة جائزة صحافة الطفل العربي في نادي دبي للصحافة، وكان عضواً في لجنة تقييم جائزة الدولة لأدب الطفل في قطر، وجائزة الريادة في مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، عمل مستشاراً لمجلة (أجيالنا) للأطفال، ومدرّساً لمادة أدب الطفل، إلى جانب عمله في وكالة الأنباء الكويتية (كونا)، ومجلة (التقدم العلمي) التي تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، وجريدتي الأنباء والقبس ومجلتي براعم الإيمان ومجلة أولاد وبنات. والمؤلف مقيم في الكويت منذ عام 1993، وعمل انطلاقاً من موهبته، التي تعمقت من خلال الدراسة العلمية، على تناول العديد من المحاور القصصية بأسلوب معاصر شيق ومفيد، بناء على قيم هادفة.

الناشر

















خلبوي: 00961 3 235949 - ص.ب.4101 بيروت - لبنان
تليفاكس 00961 7 920158 - 009611310653
Website: www.alrouqy.com Email: info@alrouqy.com